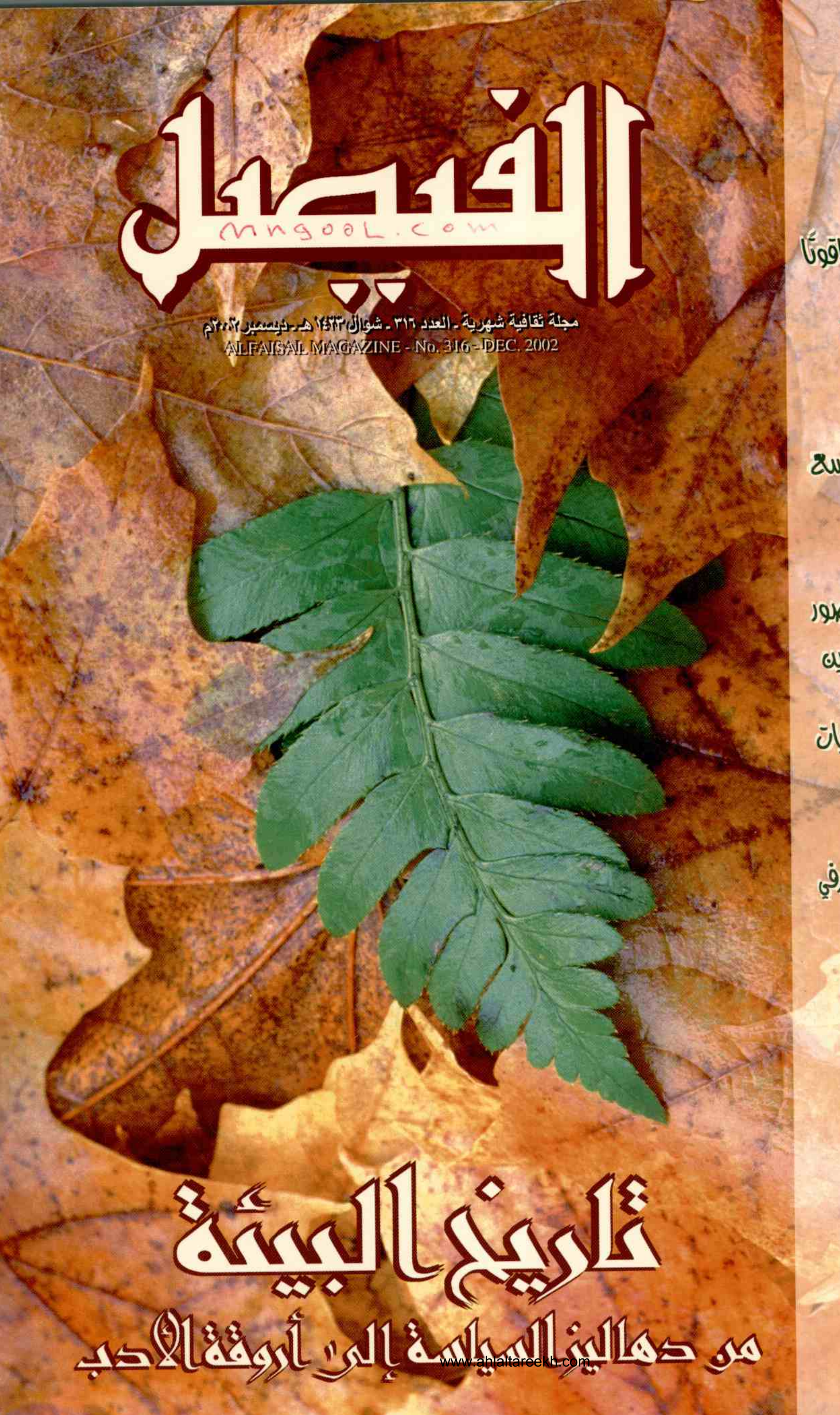


البلخش الذي أصبح ياقوتًا

ين الحَرْملية والعاذرِيَّة

جهود العلماء العرب
في روسيا في القرن التاسع
عشر

هندسة الإذعان: من صور
الإلهاء في القرن العشرين

ثقافة الترجمة في الولايات
المتحدة الأمريكية

ملامح من النسيج الحرفي
في تونس

سحر عالم البحار

الخزانة الملكية بالرباط
من أغنى خزائن
المخطوطات في العالم



الناشر: دار الفيصل الثقافية

المحتويات

ضوابط النشر

- يفضل طباعة المادة المرسلة على الحاسب الآلي، وإرسال نسخة على قرص مرن إن أمكن، أو كتابتها بخط مقروء على ورق A4 جيد، مع إرفاق سيرة ذاتية، وصورة ملونة حديثة.
- لا تفضل المجلة نشر المقالات الانطباعية التي تخلو من المعلومات.
- يرجى إرفاق صور أصلية ملونة جيدة مع الاستطلاعات والموضوعات الملونة، ولا تقبل الصور المأخوذة من الصحف والمجلات.
- في حال إرسال قصة مترجمة، يرجى إرفاق الأصل المترجم.
- لا تنشر المجلة الموضوعات المترجمة مباشرة من مجلات أجنبية، إلا إذا كان هناك إذن مسبق منها، وإن كان لا مانع من اتخاذها مصدراً من مصادر الموضوع، مع توضيح مواضع الاقتباسات بشكل علمي.
- المواد التي يعتذر من عدم نشرها لا تعني بالضرورة ضعف مستواها، ولكن قد تكون هناك مواد كثيرة في الموضوع نفسه سبق نشرها، أو تنتظر النشر. ولا ترد المقالات إلى أصحابها بأي حال من الأحوال.
- يرجى إرفاق صورة غلاف الكتاب الذي يتم عرضه في باب «قراءات» مع بيانات وافية عن الكتاب المعروض يشمل: عنوانه واسم مؤلفه ودار النشر ومقرها، وسنة النشر، وعدد الصفحات.
- نأمل من الإخوة الكتاب الذين يراسلون المجلة من خارج المملكة العربية السعودية كتابة أسمائهم بالحرف اللاتيني.
- الموضوعات التي مضى عليها وقت طويل ولم تنشر في المجلة سيتم الرد على الكتاب بعد إعادة تقويمها بغض النظر عن أنها قد أجيزت من قبل للنشر.
- لا تمنح مكافآت على ما ينشر في بابي «رسائلكم» و«ردود وتعقيبات».
- يرجى الاهتمام بالتوثيق، ومن أهم ما ينبغي مراعاته:
  - يفضل تخريج الآيات القرآنية من القرآن الكريم مع تشكيلها، وذلك بذكر اسم السورة ووضع نقطتين بعدها ورقم الآية.
  - يفضل تخريج الأحاديث الشريفة من كتب الحديث مع ذكر طبعة الكتاب.
  - التثبت من النقول التي تنقل من الكتب، ولاسيما المصادر والمراجع التراثية القديمة مع ذكر طبعة الكتاب.
  - تشكيل الشعر ما أمكن، وخصوصاً القديم منه.
  - ضبط أسماء الأعلام والشعراء والأماكن والأشياء غير المعروفة والكلمات غير المألوفة بالشكل الصحيح، والتأكد من أن أسماء الأعلام الأجانب مطابقة لما هو متداول في لغاتهم إن أمكن.

الموضوعات التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كتّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.

السعر الإفرادي

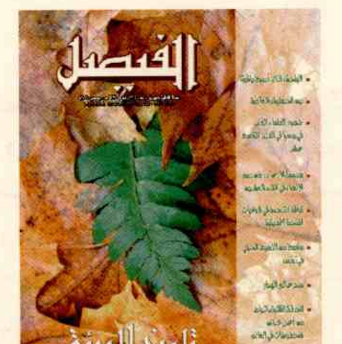
السعودية ٨ ريالات - الكويت ٦٥٠ فلس - الإمارات ٧ دراهم - قطر ٧ ريالات - البحرين ٧٥٠ فلس - عُمان ٧٥٠ بيسة - الأردن ٥٠٠ فلس - اليمن ٦٠ ريالاً - مصر جنيهان - السودان ٧٠ ديناراً - المغرب ٨ دراهم - تونس دينار واحد - الجزائر ٨٠ ديناراً - العراق ٤٠٠ فلس - سورية ٣٠ ليرة - ليبيا ٨٠٠ درهم - موريتانيا ١٠٠ أوقية - الصومال ٢٠٠٠ شلن - جيبوتي ١٥٠ فرنك - لبنان ما يعادل ٤ ريالات سعودية - الباكستان ٢٠ روبية - المملكة المتحدة جنيه إسترليني واحد.

الموزعون

السعودية - الشركة السعودية للتوزيع - هاتف ٦٥٣٠٩٠٩(٠٢)، فاكس ٦٥٣٣١٩١(٠٢)، مصر - مؤسسة توزيع الأهرام - شارع الجلاء هاتف: ٣٣٩١٠٩٥ - فاكس ٣٣٩١٠٩٦ - ٢٠٢٠٠، سورية - المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات ص.ب ١٢٠٣٥ هاتف ٢١٢٨٢٤٨- فاكس ٢١٢٢٥٣٢ - ١١- ٠٠٩٦٣، تونس - الشركة التونسية للصحافة - ٣نهج المغرب - ص.ب ٧١٩- فاكس ٧١٣٢٣٠٠٤/ هاتف ٣٢٢٤٩٩ - ٧١ - ٠٠٢١٦، قطر - دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع - ص.ب ٣٤٨٨ هاتف ٤٦٦١٢٨٢ - فاكس ٤٦٦١٨٦٥ - ٠٠٩٧٤، الأردن - شركة وكالة التوزيع الأردنية - ص.ب ٣٧٥ هاتف ٤٦٣٠١٩١ - فاكس ٤٦٣٥١٥٢ - ٦- ٠٠٩٦٢، البحرين - مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ص.ب ٢٢٤ هاتف ٢٩٤٠٠٠ - فاكس ٥٣١٢٨١ - ٠٠٩٧٣، الإمارات العربية المتحدة - مكتبة دار الحكمة ص.ب ٢٠٠٧ هاتف ٢٦٦٥٣٩٤ - فاكس ٢٦٦٩٨٢٧ - ٤ - ٠٠٩٧١، الكويت - شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع ص.ب ٢٩١٣٦ ت ٢٤١٧٨١٠/١١/١٢ - فاكس ٢٤١٧٨٠٩ - ٠٠٩٦٥، المغرب ، الشركة الشريفية لتوزيع الصحف فاكس: ٢٢٤٠٤٠٣١/٣٢ - ٠٠٢١٢ ت: ٢٢٤٠٠٢٢٣، الجمهورية اليمنية - القائد للنشر والتوزيع ت: ٢٠١٩٠١/٢ - ٣ - ٠٠٩٦٧ فاكس: ٢٠١٩٠٩/٧







البيئة: من دهاليز السياسة إلى أروقة الأدب

دفع الشعور بالإحباط من الدمار الذي لحق بالبيئة إلى ظهور تيارات فكرية مثالية حالمة وخيالية ترغب في استنساخ فلسفة مشابهة لفكرة المدينة الفاضلة. وأثرت أحداث سياسية كبيرة في البيئة، واستغل السياسيون الاهتمام بالبيئة لتحقيق المكاسب، وعلى الرغم من علاقة التفاعل بين السياسة والبيئة إلا أن هذا الموضوع الشائق والحساس لم يلاق حقه من الإيضاح والتبيين.

إدارة التحرير:

رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد
مدير التحرير: عبدالله يوسف الكويليت

المراسلات للتحرير والإدارة:
ص.ب (٣) الرياض ١١٤١١ - المملكة العربية السعودية
هاتف: ٤٦٥٣٠٢٧ - ٤٦٥٢٢٥٥
ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

الاشتراك السنوي:
١٥٠ ريال سعودي للأفراد، ٢٥٠ ريال سعودي للمؤسسات، أو ما يعادلهما بالدولار الأمريكي خارج المملكة العربية السعودية.

الإعلانات:
هاتف : ٤٦٥٢٢٥٥ - ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

رقم الإيداع في مكتبة الملك فهد الوطنية ١٤/٠٥٤٢
ردمد ١١٤٠-٠٢٥٨

ملاحظات واقتراحات

إن للفيصل محبة ومكانة في النفس، لما لها من أثر في توسيع التراث والثقافة العربية الإسلامية، فهي قد حازت على إعجاب كل من يقرؤها.

مع تحياتي لكل من يساهم في إخراجها، وشكري الخاص إلى رئيس تحريرها، وأبدي بعض ملاحظاتي التي أحببت أن ألفت النظر إليها:

- حبذا لو يكون هناك باب متخصص يشتمل على شرح عن حياة علماء المسلمين، وتذكير كيف بدأ أول بزوغ لعلمهم.
- إيجاد قسم مختص بالقنوات الإسلامية.
- بصفتي عربيًا مسلمًا، أحب أن تقوم المجلة بالتعريف بحقيقة الإسلام؛ وذلك بالحوار الصريح وتبادل الآراء بشأن وجهة نظر عن الواقع والسياسات. أي عن كيفية رؤية الإسلام، وكيف ندعمه بشكل أوسع، والحوار مع المنظمات التي تهتم بهذا المجال.
- باب يهتم بالعلوم الكيميائية أو الفلكية.

وأتمنى أن تقبلوني صديقًا للمجلة.

وسيم محمود عبده
الحديدة ـ اليمن

التحرير:

مرحبًا بكم صديقًا، ونشكر لك اقتراحاتك، ولكن نوضح أن المجلة تغطي مختلف الموضوعات التي أشرت إليها، فهي تتناول أعلام المسلمين وغيرهم من خلال باب «أعلام»، كما تهتم في كل عدد بالموضوعات العلمية على تنوعها، ويتم التعريف بالإسلام وقيمه عن طريق مقالات مختلفة من كتّاب مختصين.

ويبقى اقتراحك الخاص بالقنوات الإسلامية، فهل تعني أن نعرف بها، أو أن ننشر بعض ما تطرحه، أم ماذا؟ شاكرين لك اهتمامك.

قلق!

أهديكم تحياتي وتقديري في سبيل الرقي بهذا الصرح الثقافي الرائع، إذ إنني من المتابعين لهذه المجلة، بل إنني من المغرمين بها، وأتشوق إلى وصولها شهريًا على الرغم من تأخيرها..

وبما أنني من محبي المجلة، والمسابقة الشهرية أورد لكم الآتي:

أولاً: تأخير المجلة ما زال يقلقنا دائمًا، إذ إنها تصل بعد منتصف الشهر الذي تصدر فيه وأحيانًا في نهايته، بينما بعض المجلات تصل في بداية الشهر.

ثانيًا: لقد أرسلت لكم عدة رسائل متضمنة إجابات المسابقة ولا أدري ما مصيرها، هل هي وصلت ولم يحالفني الحظ أم أنها تصل متأخرة، أم ما هو السبب؟!! ومما زاد قلقي أنني لم أر أحدًا من الفائزين في الأعداد الماضية من حضرموت مثلاً أو من أبين أو من شبوة وغيرها من محافظات الجمهورية. هل لم تصلكم أي رسالة من المحافظات الشرقية؟. نرجو إفادتنا هل إذا كانت الرسائل تصل أم لا؟.

ثالثًا: هذه الرسالة الثانية على التوالي (بالبريد المسجل) فضلاً عن الرسائل التي قبلها (بالبريد العادي) الذي لم أدر ما مصيرها، لهذا نرجو نشر عنواني للمراسلة، ونشر رسالتي هذه أو التي قبلها في باب «رسائلكم»، وسأكون لكم من الشاكرين.. ودمتم في خدمة الثقافة.

هادي علي هادي بن مغيث
اليمن ـ حضرموت
سيؤن ـ حي السحيل ـ ص.ب ٩٤٩٩

التحرير:

استطعنا حل مشكلة تأخر وصول المجلة إلى منافذ التوزيع في كثير من الدول، ولكن تظل الظروف تفرض نفسها، وتحول دون حل المشكلة جذريًا، ولكننا سنظل نحاول على قدر الإمكان إيصال المجلة إلى قرائها في أي مكان بأسرع ما يمكن. أما الحديث عن الفائزين من هنا أو هناك، فهو مكرور، وسبق أن أشرنا أكثر من مرة إلى أن الأمر يخضع للقرعة من دون أي تدخل من جهتنا، بل إن الإخوة اليمنيين من أكثر الذين يفوزون بجوائز المسابقة، ولعل ذلك لكثرة ما يرد من اليمن من مشاركات في المسابقة، وبالطبع منهم من هم من المحافظات التي أشرت إليها. ومن المصادفة أن يكون اثنان من الفائزين في هذا العدد من اليمن أحدهما من مكلا والآخر من صنعاء.

حرّة أم مرّة؟

يسرني أن أراسل القائمين على هذا الصرح الثقافي الرائع والمتميز، شاكرًا لهم المجهودات، ومشجعًا إياهم.

لدي رغبة في نيل إحدى الجوائز المخصصة من طرف المجلة، نتتبع

باهتمام أسئلة المسابقة التي نراها في ثوب جديد.

ومعلوم أن التعقيب والاستفسار يحققان الفائدة، فقد لفت انتباهي في مسابقة العدد (٣٠٦) بيت الشعر الذي بحثت عنه في لامية العرب للشنفري الأزدي وتحديداً في باب شكوى الزمان والحال فوجدت حسب كتاب جواهر الأدب للسيد أحمد الهاشمي أن الشاعر يصف النفس بالحرّة لا بالمرّة كما جاء في السؤال ومستعملاً الشطر الثاني الضيم لا الذل، فالرجاء، أي الكلمات أصح استعمالاً لصاحب البيت لأن في كلتا الحالتين وزن البيت لا يتغير، لكن ما هو معلوم أن لامية العرب مترجمة إلى عدة لغات.

يحيى زيوش
شارع عسو شناف
بوسعادة ـ الجزائر

التحرير:

البيت حسب ما هو موجود في المسابقة مأخوذ من كتاب تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ، علماً بأن رواية الأبيات الجاهلية يوجد فيها كثير من الخلاف في المصادر، ولا ضير في ذلك.

إشراقة

مـجلةُ الـفـيـصل إشـراقـة
يـبـدو لهـا مـن اسـمـهـا شـاهـدُ

آثارهـا مــشــهــورةٌ لـم تزلْ
يـرتادهـا الـشــــارد والـواردُ

وقـد رعـتـهـا أسـرةٌ قـد سـمتْ
بهـــا وهذا عـــزُّهـا التَّــالدُ

وكـيـف لا يسـمـو بكم مـجـدُها
وأرضكم يسـعـى لهـا القـاصـدُ

وأنـتمُ جــــاورتُـم أعظـمًـــا
لفـضلهـا باهى بهـا الواحـدُ

هذي ظنونـي فـيكمُ فـاعلمـوا
بأنـنـي مـن طيــبكم ناشـــدُ

حسين عبدالعال اللهيبي
ص.ب ٣٤٩ ـ النجف الأشرف ـ العراق

التحرير:

نشكر لك إطراءك، وأبياتك، ونتمنى أن تكون عند حسن ظن جميع الإخوة القراء.

ردود سريعة

الأخ عمر كمال شبارة ـ كفر الزيات ـ مصر:

نعرف أن البحث عن بيت الشعر في المسابقة قد يكون صعباً إلى حد ما، ولكن لا بد من وجود أسئلة تشحذ ذهن القارئ، وتدفعه إلى البحث والتقصي.

الأخ عنايت الله عادل ـ الباكستان:

نشكر لك هذه المشاعر الفياضة، ولا حاجة لنا في الوقت الحالي إلى مندوبين متفرغين، ولكن نرحب بتلقي المقالات والاستطلاعات من الإخوة الكتاب المنتشرين في كل أرجاء العالم.

الأخ زين الدين مصطفى ـ الجلفة ـ الجزائر:

هناك طلبات نعجز عن تلبيتها، فلتعذرنا، وليعذرنا القراء الذين نعجز عن تلبية رغباتهم.

الأخ محمد العبودي ـ الرباط ـ المغرب:

نشكر لك مشاعرك تجاه إخوانك في المملكة، وإنه لجميل أن تكون متابعًا لمسيرة الدولة السعودية، وأعمال قياداتها، وأدام الله ما بين دولنا وشعوبنا من حب، ومشاعر أخوية صادقة.

الأخ أبو ذر الغفاري ـ حلب ـ سورية:

نشكر لك تهنئتك، وأعاد الله على الأمة العربية والإسلامية رمضان وعيدالفطر بالخير والبركة والسؤدد، وكل عام والجميع بصحة وسعادة وهناء.

الأخ عبدالعزيز محمد السيد عمر سماحه ـ الدقهلية ـ مصر:

اقتراحك بأن توزع قيمة جوائز المسابقة بالتساوي على الفائزين لا يمكن الأخذ به على الأقل في الوقت الحالي، لأن وجود التفاوت في القيمة الواحدة نوع من التنافس والتطلع إلى الفوز بالجائزة الأكبر.

البلخش الذي أصبح ياقوتًا

أحمد محمد الصالح
الرياض - السعودية

لعل مما يصيب قارئ التراث العربي بالضجر كثرة ما يرد أحيانًا، حتى في الكتب الأدبية البحتة، من مصطلحات علمية قديمة تقدم للقارئ من دون شرح ولو مقتضب لما غمض منها. في أقل الأحوال يفوت هذا بعض المتعة على القارئ، ولكن في كثير من الأحيان يؤدي إغفال شرح مثل تلك المفردات إلى عدم فهم النص بكامله، أو عدم تقدير ما احتوى عليه من قيمة علمية.

بين يدينا في هذا المقال نص تراثي فريد في بابه يبين بجلاء ما كان عليه المسلمون من معرفة وحذق لا مزيد عليهما في تقويم الجوهر والأحجار الكريمة وتمييزها ممّا يشتبه بها حتى فاقوا في ذلك أهل الصناعة الأقدمين والمعدنيين من أهل الأطراف. هذا النص أورده القاضي أبو علي المحسن بن على التنوخي في كتابه «نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة»، راوياً له عن محمد بن أحمد العسكري، فقال: «كان عندنا بعسكر مكرم(١) شيخ أصبهاني مشهور يعرف بالكافوري يتجر في الجوهر وكان حسن البصيرة بها، فأخبرني أنه اشترى فصين، وباعهما مالكهما على أنهما بجاذيان ولم يعرفهما، قال: فعرفتهما أنا، وعلمت أنهما بلخش، وهو جنس يشبه الياقوت الأحمر فاشتريتهما منه بثلاثمئة درهم وجلوتهما بالبصرة فخرج لهما من الماء أمر عظيم».



السبينل الخام قبل صقله

في هذه الفقرة الأولى من القصة نجد أن هذا الجوهري الفذ المعروف بالكافوري قد ابتاع فصين من معدن السبينل Spinel وهو ما كان يعرفه الأوائل باسم البلخش (نسبه إلى بدخشان في أفغانستان) ويسمونه أيضاً اللعل، وهو حجر كريم ذو لون أحمر قان وتركيبه الكيميائي هو أكسيد الألمونيوم والمغنيسيوم، فإذا حل عنصر الكروميوم محل المغنيسيوم


يتخذ معدن الكوروندوم ألواناً متعددة أعلاها قيمة هو الأحمر (الياقوت) والأزرق (السفير)

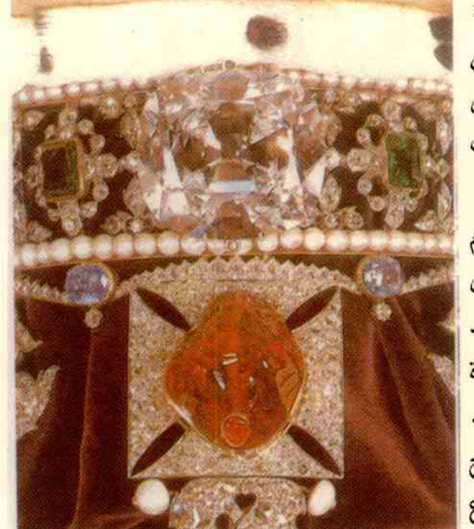
فإنه يكسبه اللون الأحمر، أما إذا كان به بعض الحديد فإنه يضفي عليه اللون الأخضر، أما اللون الأزرق فمرده إلى وجود قليل من الزنك، اشترى الكافوري هذا البلخش على أنه بجاذي، وهو حجر شبه كريم سماه الأقدمون أيضاً البجادي (بالدال) والبنفش أما اسمه العلمي الحديث فهو الجارنت Garnet أثمنه ما كان ذا لون أحمر كميت(٢)، وإن وجدت أنواع أخرى ذات ألوان خضراء أو برتقالية فهي أقل قدراً.

لقد التبس الأمر على البائع المسكين وبخس قيمة بضاعته فباع البلخش أو (السبينل) العالي الثمن على أنه بجاذي (أو جارنت) وهو كما أسلفنا حجر شبه كريم مبذول بكثرة لا تصل قيمته بحال من الأحوال حتى إلى ثمن البلخش الرديء، وهو هنا معذور في هذا الخلط بين المعدنين لأن كلاً منهما له اللون نفسه الأحمر القاني. ويكفينا أن نعرف أن اسم الجارنت اشتق من لفظه لاتينية تعني الرمان نسبة إلى لون حب الرمان المشبع بالحمرة. يضاف إلى هذا أن الحجرين متشابهان في الصلابة، فعلى مقياس موه ذي الدرجات العشر يحتل معدن الطلق المرتبة الأولى كأكثر المعادن الطبيعية رخاوة ويحتل الألماس المركز العاشر كأكثرها صلابة، نجد أن البلخش (السبينل) ذو درجة صلابة تصل إلى ٨ بينما البجادي يصل إلى نحو ٧.٥ على المقياس نفسه.

أما هذا الجوهري الحاذق فيخبرنا أنه قد جلا أي صقل هذين الحجرين، وهذا غالباً ما يكون بالمرقشيثا، وهو المعروف الآن بمعدن البايرايت ذي اللمعان الفلزي واللون الذهبي، إذ إن صلابته التي لا تتعدى ٦ على مقياس موه تتيح صقل سطح المعدن من دون إحداث خدوش غائرة فيه. أما قوله فخرج لهما من الماء أمر عظيم، فالمقصود هنا بالماء هو الشفافية، وليس السائل المعروف، فهذان الحجران إذن قد بانت شفافيتهما وخلوهما من الشوائب بعد الصقل وتلك صفة في الجوهر لا تقل أهمية عن اللون أو الحجم. أعانت هذه الصفة الكافوري على إتمام صفقته التالية إذ يقول: «واتفق أن خرجت إلى عمان وهما معي

فعرضتهما على يوسف بن وجيه الأمير وادعيت أنهما ياقوت أحمر فعرضهما لكل جوهري فكانوا يصدقونني. فابتاعهما مني بعد خطوب طويلة ومراوضات بخمسين ألف درهم، وقبضت الثمن، ثم شك فيهما، فأحضرني وطالبني بالمال، فقلت: إن كنت تريد أخذ المال باليد والقدرة فأنت السلطان ما لي بك قوة، وإن كنت تريد أخذه بحجة فبيني وبينك أهل الصنعة، فقال: ليس بعمان من أثق بعلمه، فقلت له: فسرنديب قريبة منك، وهي المعدن، فأنفذهما إلى هناك، فإن قيل: إنهما ليسا بياقوت رددت المال».

كان يوسف بن وجيه حاكم عمان المستقل في الشطر الأول من القرن الرابع الهجري، وقد امتدّ سلطانه حتى غزا البصرة مرتين، وكاد يستولي عليها. تعرض هذا الأمير الطموح لعملية نصب متقنة حيث ابتاع الحجرين بمال جليل على أنهما من الياقوت الأحمر الشفاف.



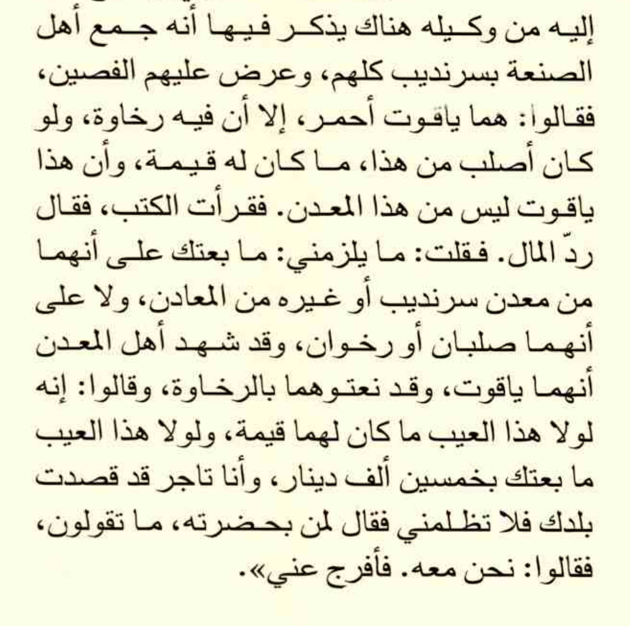
ياقوتة الأمير الأسود التي تزين التاج الملكي البريطاني

وقد كان الياقوت في تلك العصور هو المقدم بين الأحجار الكريمة، وأكثرها نفاسة من دون منازع إذ يزيد ثمنه على ضعف ثمن اللؤلؤ والألماس.

لم يكن هذا الأمير هو الوحيد الذي جازت عليه مثل تلك الحيلة، فقد كان أغلب الجوهريين في القرون الوسطى لا يرون كبير فرق بين البلخش والياقوت، ويكفينا أن نعرف أن ياقوتة الأمير الأسود الضخمة التي تزين التاج الملكي البريطاني ما هي إلا حجر بلخش أحمر شفاف وجد طريقه إلى الخزانة الإمبراطورية عن طريق جوهري أخرق لم يبلغ من إتقان حرفته ما بلغه صاحبنا الكافوري.

لكن فطنة الأمير ابن وجيه أوردت في نفسه الشكوك من هذين الحجرين، فاستدعي الكافوري الذي لم يجد من وسيلة للمراوغة وكسب الوقت سوى طلب إنفاذ الحجرين إلى سرنديب، وهي الجزيرة المعروفة في زماننا هذا بسيلان(سريلانكا) وقد كانت في العصور الوسطى هي المورد الرئيس لأحجار الزينة، فمن جبالها يؤتى بالياقوت والسفير(٣) Sapphire والتوباز وغيرها من الأحجار الكريمة بما فيها السبينل (البلخش) والجارنت (البجاذي).

كانت تلك محاولة يائسة من الكافوري لكسب بعض الوقت لتيقنه أن خبرة أهل سرنديب بمثل هذه الأمور لا تجارى، فنجده يصف حاله بعد ما جرى من الاتفاق على التحكيم: «ووضعت في نفسي أن أتّجر في المال، إلى أن ينكشف الأمر، فأربح فيه مالاً، ثم أرد عليه أصل ماله. قال: فضمنني المال على الشرط والمقام، وأنفذ الفصين. فلما كان بعد سنة، أو قريباً منها أحضرني وأخرج كتباً



إليه من وكيله هناك يذكر فيها أنه جمع أهل الصنعة بسرنديب كلهم، وعرض عليهم الفصين، فقالوا: هما ياقوت أحمر، إلا أن فيه رخاوة، ولو كان أصلب من هذا، ما كان له قيمة، وأن هذا ياقوت ليس من هذا المعدن. فقرأت الكتب، فقال ردّ المال. فقلت: ما يلزمني: ما بعتك على أنهما من معدن سرنديب أو غيره من المعادن، ولا على أنهما صلبان أو رخوان، وقد شهد أهل المعدن أنهما ياقوت، وقد نعتوهما بالرخاوة، وقالوا: إنه لولا هذا العيب ما كان لهما قيمة، ولولا هذا العيب ما بعتك بخمسين ألف دينار، وأنا تاجر قد قصدت بلدك فلا تظلمني فقال لمن بحضرته، ما تقولون، فقالوا: نحن معه. فأفرج عني».

سقط في يد الكافوري بعد أن استقر الرأي على طلب مشورة «الخبراء الأجانب» وهم أهل الصنعة بسرنديب، جزيرة المعادن (المعدن في العربية هو المنجم)، فلم يعد له ما يرجوه سوى الحصول على بعض الربح من رأس المال قبل أن يلزم برده حين يأتي الحكم الذي لن يكون في مصلحته طبعاً. ولكن كم كانت المفاجأة حين ورد خطاب وكيل الأمير برأي النخبة من الجوهريين بسرنديب، حين قرروا أن هذين الحجرين هما فعلاً من الياقوت الأحمر، وإن لم يكن بطبيعة الحال من إنتاج معادنهم المحلية !.

كيف حدث هذا؟ واضح جداً أن خبراء سرنديب لا يكادون يعرفون الفرق بين البلخش الجيد والياقوت، فقد وصفوا الحجرين بالرخاوة، وهذا صحيح، فصلابة البلخش على مقياس موه الحديث هي ٨، بينما صلابة معدن الكورندوم Corundum، الذي من أنواعه الشفافة الياقوت والسفير، تصل إلى ٩ على المقياس نفسه(٤)، وفاتهم أن نقص الصلابة هذا يخرج هذين الحجرين من طائفة اليواقيت إلى ما هو أدنى منها مثل البلخش والبجاذي وغيرهما.

إذن كان أهل سرنديب لا يعرفون الفرق بين هذه الأحجار المتشابهة اللون، فأما ما كان منها شديد الصلابة (أي ياقوتاً حقيقياً) فهو عندهم الأعلى ثمناً، وعبروا عن ذلك بقولهم: إن هذين الفصين لو لم يكن بهما تلك الرخاوة لكانا لا يقدران بثمن. يغلب على الظن أن أهل شبه القارة الهندية كافة (وهي المورد الرئيس للأحجار الكريمة منذ العصور القديمة حتى قرابة القرن الثامن عشر) لا يكادون أيضاً يميزون الياقوت من البلخش، ودليل ذلك كثرة الأحجار التي جلبت قديماً من الهند على أنها من الياقوت الأحمر الجيد، ثم تبيّن أخيراً أنها من البلخش. ومن أكبر هذه الأحجار وأشهرها ياقوتة تيمور (نسبة إلى تيمورلنك المغولي) المحفوظة في المجموعة الملكية البريطانية الخاصة. إن هذا الفص الضخم الذي يزيد وزنه على ٣٥٢ قيراطاً ليس في الحقيقة سوى بلخش شديد الشفافية جلب مع غيره من الأحجار المشابهة من خزائن بعض أباطرة المغول في الهند بعد سقوط دولتهم.



الأحجار الجذابة ذات الألوان المتفاوتة هي من الجرانت المصقول. في الخلفية قطعة كبيرة من بلورات الجرانت الخام ذات اللون الكميت

هذه القصة قد لا يجد أكثرنا فيها سوى حكاية أخرى مسلية مما تزخر به كتب الأخبار من العصر العباسي المتأخر، ولكن لنقف لحظة لنتفكر في ما فعله صاحبنا الكافوري، لقد تعرف إلى حجرين خشنين عبر مصقولين بالنظر المجرد من دون إجراء أي اختبارات مفصلة فيما يبدو من ظاهر القصة، ثم باعهما بعد الصقل على أنهما من الياقوت الأحمر النفيس(٥). إلى هذا الحد لا يبدو أن هناك مزيد مهارة أو علم لدى هذا الكافوري، ولكن انظر إلى هذه

النخبة من حذاق الجوهريين بسرنديب كيف استعصى عليهم تمييز حجرين مصقولين مع أنهم أجروا عليهما ما اشتمل عليه علمهم من اختبارات، ومنها اختبار الصلابة، وجل ما كان من أمرهم أن وصفوهما بالرخاوة، وهذا وحده دليل على جهل عميق، فمتى كان الياقوت رخواً وهو لا يخدشه معدن أو حجر آخر سوى الألماس؟ وإذا كان هذا حال أهل تلك البلاد التي يجلب منها الجوهر فما الظن بغيرهم؟ لا نملك جواباً عن هذا السؤال سوى ما لابد أن يكون القارئ الكريم قد استشفه من هذه الحكاية القصيرة وتفسيرها، ولكنّ سؤالاً آخر أكثر إلحاحاً يطرق أذهاننا في هذه الخاتمة، ألا وهو كم من كافوري مغمور في عالمنا العربي هذا حجب نور عبقريته العجيب افتتاناً ببيوت الخبرة الأجنبية؟

ياقوتة تيمور، التي ليست في الواقع سوى حجر كبير من السبينل الشفاف

الملاحظات

- عسكر مكرم بلده بالأهواز، وهو ما يعرف اليوم بإقليم خوزستان في جنوب غرب إيران.

- اللون الكميت هو اللون الأحمر الأدكن جداً، وهو ما يعرف لدى عامة الناس في يومنا هذا بالعنابي، ويسمى أيضاً اللون الأشقر، وإن كان غلب في الفصحى الحديثة استخدام هذا اللفظ الأخير على خلاف معناه الأصلي.

- السفير هو الياقوت الأزرق، ويخطئ بعضهم فيسميه الزفير، و إنما هو السفير، اشتق اسمه من الجذر السامي «سفر» بمعنى أضاء كناية عن شدة بريقه.

- أصلب المعادن هو الألماس وصلابته ١٠ على مقياس موه النسبي، أما صلابته المطلقة على مقياس كنوب Knoop فهي تنوف عن الثمانية آلاف، بينما لا يزيد الكوروندوم عن الألفين، ليكون بذلك الألماس أصلب من الياقوت بأربعة أضعاف على الأقل.

- عرف الفرق بين البلخش الصافي والياقوت بشكل قاطع بين الجوهريين في بلاد المشرق العربي خلال عهد بني بويه، وذلك هو العصر الذي عاش فيه الكافوري، وأصبح الجيد منه يباع بنصف قيمة الياقوت كما ذكر ذلك البيروني وابن الأكفاني في كتبهم.

المراجع

- التنوخي، أبو علي المحسن بن علي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، دار صادر، بيروت، ١٩٧١م.
- التيفاشي، أحمد بن يوسف، أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م.
- ابن الأكفاني، محمد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري السنجاري، نخب الذخائر في أحوال الجواهر، عالم الكتب، بيروت، ١٩٣٩م.
- البيهقي، علاء بن الحسين بن علي، معدن النوادر في معرفة الجواهر، مكتبة دار العروبة، الكويت، ١٩٨٥م.
- البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد، الجماهر في معرفة الجواهر، مكتبة المتنبي، القاهرة، دون تاريخ.

تحقيق

بين الحَرْمليَّة والعاذِريَّة

عبدالله بن محمد الشايع
الرياض - السعودية

ركم العاذرية بمنزلة دلالة على وجود ماء الغدير بجانبه في بطن الوادي

الحرملية: مورد ماء قديم جاءت تسميته من نوع النبات الغالب على أرضه، وهو شجر «الحرمل» الذي ينتشر وجوده في كثير من مناطق المملكة، وهو معروف عند الناس بهذا الاسم حتى يومنا هذا. وقد تعددت الأماكن المنسوبة الى هذا النبات مثل: «حريملاء» المدينة المعروفة، والحرملية الواقعة شمال مدينة «القويعية» والحرمليّة الواقعة ناحية «المزاحمية»، وماء الحرملية شمال شرق حرض بالمنطقة الشرقية، وهذه الحرملية الواقعة بالقرب من مدينة «الرياض»، وتعرف مكانها هو مدار بحثنا هنا.

لقد حاولت مراراً الوقوف على هذا الماء الذي ورد في نص قديم أنه يبعد ما يقارب ثلاثين كيلاً شمال شرق وسط مدينة الرياض.

وكلما حاولت تحقيق موقع هذا الماء اضطررت إلى طي وريقاتي إلى حين؛ وذلك لعدم توافر نص واضح يحدد لنا مكانه بدقة، أو يربطه بمكان آخر قريب منه، فلم يذكره سوى صاحب كتاب «بلاد العرب» الذي كلما ألقيت عليه نظرة زادني حيرة وذلك لغموضه؛ وهذا الغموض هو ما شجعني على معاودة النظر في منطوق النص.

وبعد لأي أدركت أن هناك خلطًا بين وصفين لطريقين مختلفين كل منهما متجه من «حَجْر اليمامة» إلى «البصرة»

وعلى هذا المفهوم كان بحثي عن موضوع ماء «الحرملية».

وقد ذكر واصف الطريق في كتاب «بلاد العرب» أن أول مورد له هو ماء «الحرملية»، وأنه لا يبعد عن وسط «الرياض» (حَجْر قديماً) سوى نحو خمسة فراسخ، وأن من يصدر من هذا الماء يركب القُفَّ، ثم يجتاز وادي «بنبان» تاركاً رياض السُّلَيّ ذات اليمين.

هذا القول يعطينا دليلاً على أن ماء «الحرملية» واقع بين مدينة الرياض ومجرى وادي بنبان.

وإذا بحثنا عن مورد ماء قديم يقع في هذا الحيِّز من الأرض فإنه لا يوجد إلا ماءان: أحدهما يسمى «المُونَسِيَّة»، والآخر يسمى «العُقْلَة»، وقد يكون أحد هذين الماءين هو (الحرملية قديماً) تغير اسمه. فدعونا نلقي الضوء على هذين الماءين.

المُونَسِّية

قال مؤلف «معجم اليمامة» عن «المونسية»: «... منهل شمال «الرياض» شرق مغرزات يميل إلى نحو الشمال، في القف الذي يقبل من «بنبان» ويسيل منه «وادي العُقلة» فوادي المونسية يسيل من قمة هذا القف شرقًا، وإذا تكاملت روافده العليا فهنالك ماءة المونسية؛ عدة أفواه، وماؤها طيب. وهي أشبه بماء المُشاش يتوفر ماؤها مع كثرة السيول ويقل مع عدمها، وتقرن دائمًا مع «عقلة بَطيَّة» بحكم قربها منها، فيقال: العقلة والمونسية أو بالعكس»(١).

أقول وصف الأستاذ عبدالله بن خميس للمونسية واضح كل الوضوح؛ إلاَّ أني بعد الشخوص إلى المكان الذي وصفها فيه لم أعثر لها على أثر.

وبما أن هذا الماء مُوَقَّع على الخريطة فقد سجلت إحداثية المكان، وكررت البحث في الحيز نفسه فلم أجد شيئًا؛ مما اضطرني إلى الاستعانة بأحد أصحاب الاستراحات القريبة من مجرى الوادي، وقد تطوع مشكوراً بمرافقتي وإيقافي على المكان الذي كنت أتحرى عنها فيه، وقال مشيراً إلى حجارة متناثرة : هنا كانت بئر المونسية، ولكنها طمرت. فشكرت الرجل لأنه أكد لي الموقع.

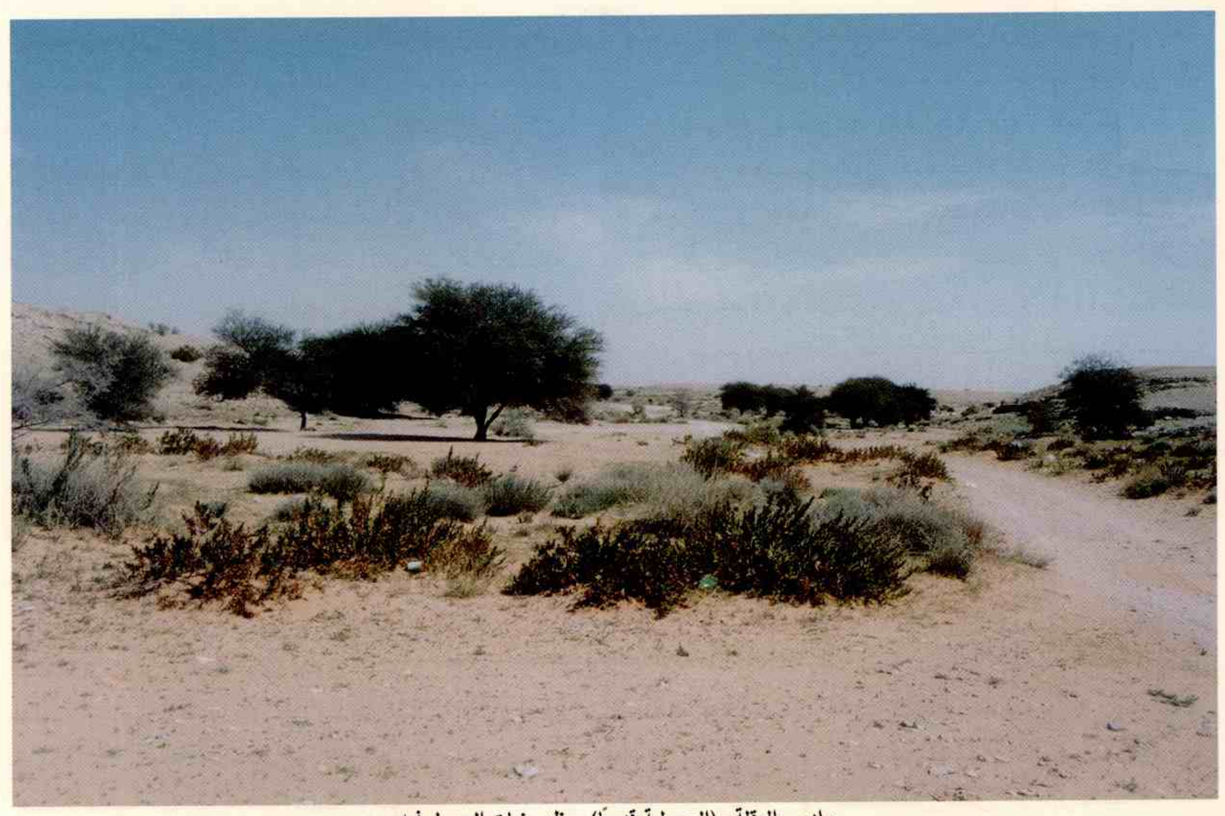
ومما يدل دلالة واضحة على أن البئر كانت في هذا المكان وجود عدد من القبور بجوارها من جهة الجنوب في مرتفع من الأرض. وقد لاحظت وجود لوحة في الموقع كتب عليها (على صاحب هذه الأرض مراجعة الأمانة) وعندما زرت الموقع بعد مدة وجدت هذه اللوحة منزوعة ومبعدة عن المكان.

تقع بئر أو آبار «المونسية» على خط العرض ٣٠َ ٥١ً ٢٤ْ وخط الطول ٥٠ً ٣٩َ ٤٦ْ وتبعد عن وسط مدينة الرياض خمسة وعشرين كيلاً، وعن «بنبان» سبعة عشر كيلاً. وهي واقعة في بطن مجرى واد بين مرتفعات جبلية، والمكان الذي تقع فيه واسع لا ينطبق عليه وصف «الشعبة» الذي ورد في تحديد «الحرملية» أنها واقعة في «شُعْبَة» ولهذا استبعدت أن تكون هي ماء «الحرملية» يضاف إلى هذا عدم وجود أعلام الطريق فوق المرتفعات المطلة عليها، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن بعدها عن «حجر اليمامة» وهو وسط مدينة «الرياض» خمسة وعشرين كيلاً بينما المسافة المطلوبة تقارب الثلاثين كيلاً، وهذا يعني أن الحرملية ما زالت أبعد من هذا الموقع.

يبدو أن اسم العاذرية نسبة إلى نبات العاذر، وهذا النبات يتشابه مع نبات الحرمل من حيث شكل الشجرة ودوام الخضرة صيفًا وشتاءً، إلا أن أغصان «العاذر» تكون واقفة، أما أغصان الحرمل فتنثني عند ارتفاعها عن الأرض

وقبل أن أترك «المونسية» التي أصبحت أثراً بعد عين فإن لي رجاء إلى الجهات المختصة باعتماد مخططات الأراضي أن تشترط المحافظة على موارد المياه وما هو على شاكلتها مما له علاقة بتاريخ هذه البلاد. وأقترح أن تحدد مثل هذه الأماكن «كمرفق عام» حديقة مثلاً مع إصلاح هذا الأثر والتعريف به وبماضيه. وكم آلمني حقًا أن أرى المعدات الحديثة تُعملُ أسنانها طوال أكثر من عام في جبل صغير منفرد على أحد شوارع عاصمتنا الحبيبة ليقام على موقعه مساكن.

هل ضاقت الأرض عندنا حتى نلجأ إلى إزالة مثل هذا الجبل الذي خلقه الله؟! كان بودي لو أن هذا الجبل عند اعتماد المخطط حدد كمرفق وتم إصلاح مدرجات له ومن ثم تشجيره على غرار جبل «أبي مخروق» الذي أصبح معلماً



وادي «العقلة» (الحرملية قديمًا) ويظهر نبات الحرمل فيه

من معالم الرياض وهو الذي كان يسمى قديماً «الخُرْبة» وقد ورد له ذكر في وصف هذا الطريق الذي نتتبع مساره. أملي أن يجد اقتراحي هذا أذناً صاغية حتى لا نكون بمنزلة من يبني قصراً ويهدم مصراً!!!

الحَرْمَلِيَّةُ هي ماء «العُقْلة»

وصف الحرملية الوارد في النص يقول: «هي ماءة في قُفٍّ في شُعبة عليه نخيلات. يكون فيه موال لبني مسلمة، يقال لهم أحْمَرُ، وهو على نحو من خمسة فراسخ، ثم تركب القفَّ وهو أرض خشنة شبه الظاهرة»(٢).

هذه أوصاف لابد من تطبيقها على الماء الذي سنرشحه لأن يكون هو (الحرملية قديماً).

لم يبق أمامنا إلا ماء «العقلة» وقد تكلم عليها مؤلف «معجم اليمامة» بقوله: (عُقْلَة بَطِيَّة: لا نعلم ما هي بَطيَّة هذه التي تضاف إليها، وهذه منهل يقع جنوب «بنبان» قريباً منها عذب قريب المنزع في أعلى وادٍ ويسمى باسمها «وادي العقلة» ينحدر من القفاف المتداخلة هنالك، ويفضي إلى براح وروِيضة صغيرة تضاف إلى «العقلة» (روضة العقلة) ثم يفضي إلى وادي بنبان.

والعقلة كان الأمير محمد بن عبدالرحمن يتخذها متنزهاً له، وكان يحمي أرضها لبعض ماشيته التي تكون معه في هذا المتنزه، وهي التي عناها الشاعر بقوله:

الله على من شاف سود البراشيع

وشاف العريق وشاف عقلة بطية(٣)

أقول: بما أن ماء «العقلة» موضح على الخريطة مقاس (١: ٥٠٫٠٠٠) فقد سجلت موقعها وذهبت إليها، وعندما بقي على وصولي إلى الموقع بضعة أمتار اعترضني شبك «مطار الملك خالد» مما اضطررت معه إلى العودة ودخول حرم المطار، وبعد الوصول إلى الآبار ألفيتها في واد ضيق المجرى لكونه محصوراً بين مرتفعات جبلية وقد وقفت على ثلاث آبار مغطاة؛ هذا الوادي تكثر فيه أشجار الطلح الكبيرة كما تكثر فيه أشجار الحرمل، وكثافة أشجار الحرمل تجعلني أرشح هذه الآبار لأن تكون هي ماء «الحرملية قديماً»

فالوصف ينطبق عليها تمام الانطباق. وقد استرعى انتباهي وجود شجرة طلح كبيرة على جانب الوادي من جهة الشمال بجوار البئر الغربية؛ هذه الشجرة بني حولها مما يلي مجرى الوادي حاجز حجري حجارته ضخمة جداً قد تكون انتزعت من جانب الجبل، وسحبت لاستخدامها لهذا الغرض. ولا أستبعد أن يكون هذا العمل قديماً، والغرض منه حماية النخيلات التي ورد ذكرها في النص، والتي لا أثر لها الآن.

تقع آبار «العقلة» أو لنقل «الحرملية قديماً» على خط العرض ٣٨ً ٥٦ َ ٢٤ْ، وخط طول .. ٣٨ً ٣٨ َ ٤٦ْ. انظر إلى صورة الوادي ونبات الحرمل فيه والحاجز الحجري، في المنظرين صفحة (١٣، ١٥). ومن يقف عند الآبار يشاهد أعلام الطريق على المرتفع الجبلي. انظر إلى الصورة ص(١٧).

تبعد هذه الآبار عن وسط «حَجر اليمامة» قصر المصمك وما جاوره حالياً خمسة وثلاثين كيلاً؛ أي بزيادة ما يقارب خمسة أكيال. وبما أننا لم نكن متأكدين من امتداد مدينة «حَجْر» على ضفة وادي «الوتر» وادي «البطحاء حالياً» إلا أنه من المؤكد أن يكون هناك بعض النخيل، مما يقلل معنا هذه الزيادة في المسافة، ثم إن واصف الطريق لم يكن متيقناً من المسافة بدقة ولذا قال عن «الحرملية»: بأنها تبعد «نحو» خمسة فراسخ، فكلمة «نحو» تدل على هذا. وانطباق الأوصاف يجعلني أقول: إن «العقلة» هي (الحرملية قديماً) والله أعلم.

رَكَمُ مزارع «العَاذِرِيَّة» المُحَيِّر

لا يظن ظان بأن تحقيقي لهذه الأماكن التاريخية والجغرافية جاء عشوائياً، فأنا أبحث عن هذه الأماكن على مسارات طرق موصوفة وأعلامها مازالت ماثلة للعيان، خاصة ما سلم منها من أسنان الجرَّافات. ومع أني أدركت مسبقاً أن هذا الاتجاه الذي أسير معه متتبعاً أعلام طريق من أقدم الطرق ليس هو بالطريق الموصوف من «حجر اليمامة» إلى «البصرة» الذي يمر بروضة الجرداء ثم ماء «الجرباء» كما هو مذكور في وصف الطريق؛ وإنما كان قصدي التأكد من أن هذا الطريق القديم الذي يقطع وادي «بنبان» مشملاً ما هو إلا الطريق من «اليمامة - يمامة الخرج - إلى «البصرة»»، ويلتقي معه بعد اجتياز ماء «الحرملية» طريق آخر من «حَجْر» إلى «البصرة» أيضاً. ومن هذا جاء التداخل بين النصوص عند صاحب كتاب «بلاد العرب».

أقول: في أول رحلة قمت بها متتبعاً أعلام هذا الطريق المتجه شمالاً، واجتزت مجرى وادي «بنبان»، وركبت القُفَّ من جديد وصلت إلى مجرى شعيب شاهدت على ضفته الشرقية ركمين كبيرين من الحجارة على نمط أعلام الطريق. وبعد تفحصهما تولد عندي أكثر من سؤال، وفي أثناء إعمال الفكر قال لي مرافقي في هذه الرحلة الأستاذ سعد بن عبدالعزيز السالم: إذا سلمت لك بأن ما شاهدناه ووقفنا عليه فوق الأماكن المرتفعة أعلام للطريق، فما الفائدة من وضع هذه الركامات الكبيرة التي نقف أمامها الآن لكونها في مكان منخفض لا يراها السائر إلا إذا كان يعرف مكانها؟! (انظر إلى الصورة ص ١١)، وكانت هذه التساؤلات التي طرحها علي هي ما يعتمل في نفسي، فقلت: إن هذا شيء مُحيِّر لم أجد له إجابة حتى الآن.

إن مورد ماء «الحرملية» الذي ذكر صاحب كتاب «بلاد العرب» أنه أول ماء يرده من يسلك الطريق من «حَجْر» إلى «البصرة» ما هو إلا آبار «العقلة» الواقعة الآن داخل حرم مطار الملك خالد لانطباق الوصف الوارد عليها

كان يوجد على ضفة الشعيب من جهة الغرب نخل مازال في المراحل الأولى لركزه، وبجواره من جهة الجنوب أكمة بني فوقها حجرة صغيرة من عندها تطلعت إلى الركامات الحجرية المحيرة، وكذا شاهدت شمالاً من الموقع عدداً من المقاصير التي لم أسمع عنها من قبل. وبما أن الوقت متأخر، فقد قررت إنهاء الرحلة لئلا تختلط الحقيقة بالخيال. ركامات حجرية محيرة، ومقاصير منتشرة هنا وهناك لم يسبق لي مشاهدتها أو السماع عنها، وغادرت المكان أحمل الحيرة معي. (كانت هذه الرحلة وقت إنشاء مزارع العاذرية).

وخلال تلك الفترة كنت منشغلاً بتحقيق «الطريق الأيمن لحاج حَجْر اليمامة» وعندما أوصلته إلى السفح الشرقي لجبل «ثَهْلان» في وسط «عالية نجد» وفي أثناء تتبعي لأعلام

الطريق فوق القمم وقرب سفح الجبل شاهدت ركامات حجرية منزوية عن الطريق موضوعة في مداخل بعض القلاع، وبعد الوقوف عليها وتفحصها جوبهت بأسئلة متلاحقة من رفيقي هذه الرحلة الأستاذين «سعد بن عبدالعزيز اليحيان» و«سعد بن علي الشعيلان» حول الهدف من وضع هذه الركامات في أفواه بعض القلاع مع تنحيها عن جادة الطريق. كان رأي الأستاذ اليحيان - وتخصصه في علم التاريخ - أنها آثار مساكن تعود إلى عصور متقدمة.



منظر الحاجز الحجري كمانع لماء السيل من جرف هذه البقعة التي فيها شجرة طلح كبيرة. هل كانت النخيلات في هذا المكان؟!

أما الأستاذ الشعيلان وتخصصه جغرافياً فلم يجزم بشيء وإنما اكتفى برفع يديه وتقليبها أحياناً كمن يضرب أخماساً بأسداس.

وإذا رغبت فيما جرى بيننا من حوار بهذا الشأن فارجع إلى كتابي «بين اليمامة وحجر اليمامة» الذي حققت فيه طريق حاج حجر اليمامة من صفحة ٢٣٨ - ٢٤٦ تحت عنوان «الصُّوَى المحيِّرة». ومما قلته في نهاية هذا النقاش هناك:

(بما أنني لم أجد تفسيراً لهذه الظواهر الآثارية غير ما كنت تصورته، فيبدو لي أن هذه الصوى بمنزلة اللوحات الإرشادية لوجود الماء العذب في هذه القلاع.

قد يكون لأحد تصور غير هذا، ولكن يجب دعم أي تصور بحقائق ملموسة ومجال البحث لم توصد أبوابه، ولعل علماء الآثار يقولون كلمتهم في مثل هذه الظواهر الآثارية؛ فمنهم ننتظر القول الفصل في حقائق مثل هذه الأمور الغامضة. وما قلته هنا مجرد اجتهاد، ولا يلام المرء بعد اجتهاده...) انتهى ماقلته هناك.

ركامات العاذرية مفتاح لدلالات المياه

بالنسبة إليّ أعدّ الركامات الحجرية الموجودة بجوار «العاذرية» من جهة الجنوب بمنزلة المفتاح لتعرف أنماط دلالات المياه مثلما كانت الصوى الموجودة في مدخل «دارة المَرْدَمَة» شمال شرق مدينة «عفيف» في وسط نجد مفتاحاً لتعرف أعلام الطرق. وأملي ألا يكون مصير ركامات «العاذرية» مثل مصير ركامات «المردمة» فقد تم العبث فيها مؤخراً.

فعندما شاهدت الركامات في مداخل قلاع جبل ثهلان قفز إلى ذهني مشهد ركامات «العاذرية» مما اضطرني إلى القيام بزيارة ثانية إلى جهة العاذرية للتأكد من وجود بئر ماء أو غدير يتجمع فيه الماء بعد سيله في الشعيب بالقرب منها .

وعند الوقوف على الركم الكبير سلكت مجرى الوادي مسافة نصف كيل تقريباً فلم أعثر على شيء يذكر فعدت أدراجي مع مجرى الوادي، وعند اقترابي من الركم شاهدت بجواره من الغرب شجيرات خضراء فقلت في نفسي: زيادة خضرة هذه الأشجار عن غيرها تدل على أنها قرب مجمع ماء مما تخلفه سيول الأمطار؛ وقد صدق حدسي حيث وجدت بجوارها وجوار الركم مكاناً منخفضاً تبقى فيه المياه لمدة طويلة؛ يدل على ذلك تشقق أرضه الطينية وحفر المياه في الصخر عندما يجري الوادي. ومن يدري فلعله في زمن مضى كان هذا الوادي تسيل فيه المياه بعد توقف الأمطار فترة طويلة؛ ولهذا وضعت هذه الركامات للدلالة على مكان تجمع الماء.

إذاً لابد أن على أحد المرتفعات علامة تقود إلى هذه

الركامات الحجرية لتدل من ثم على الماء.

إن أفضل مكان لهذا العلم هو تلك القويرة المجاورة للمزرعة من جهة الجنوب والتي قلت آنفًا: إنه قد بني فوقها غرفة صغيرة حيطانها من الحجارة العادية. بعد تفحصي لحجارة الغرفة اتضح لي أن بعضها معاد استخدامه لتغير لونه فعللت أنه كان علماً من الأعلام في مكان الغرفة فأزيل واستخدمت حجارته في بناء الغرفة.

في هذه الزيارة لاحظت أنه بني في الأسفل بجانب المزرعة غرف جديدة فسألت العمال الموجودين عن الغرفة المبنية فوق المرتفع، فقالوا لا نعرف عنها شيئًا لأنها بنيت قبل مجيئنا إلى هنا.

وقالوا: إذا أردت أي معلومات فلن يفيدك إلاّ «عبدالعزيز بن سليمان آل سليمان» لأنه معاصر للمشروع منذ بدايته.

في يوم الأربعاء ١٤٢١/١١/٢٧هـ، قابلت الأخ عبدالعزيز بن سليمان في مكتبه بـ «العاذرية» وسألته عن أشياء كثيرة تتعلق بالأماكن الواقعة على مسار الطريق الذي أتتبع مساره، ومن ضمنها تلك الركامات والغرفة.

وقد تفضل مشكورًا بمصاحبتي إلى المزرعة الجنوبية، وعندما أوقفته على الركم الحجري قال: إنه لم يشاهده إلا الآن.

أما عن الغرفة المبنية فوق المكان المرتفع فقد أكد لي أنه كان كوم من الحجارة في مكانها فأزيل وبنيت الحجرة في مكانه. وهكذا صدق حدسي.

ولهذا أسميت ركم العاذرية مفتاح دلالات المياه؛ لأنه أكد لي ظني بركامات قلاع جبل «ثهلان» ودلالاتها على القلات والأوشال.

قد يقول قائل: ما الذي يثبت لنا قولك هذا؟

فأقول: لن أقول مثلما قال جحا لمن أنكر مقولته بأن عدد نجوم السماء بعدد شعر ظهر حماره: فقال له تعجيزًا: إذا أردت أن تتأكد فاعدد نجوم السماء ثم اعدد شعر الحمار!!

ولكن أقول مثلما قال من روى عنه صاحب كتاب (الدرر المنظمة)، إذ قال وهو يعدد منازل «درب زبيدة»: (... والمنصف «تُوزُ» وهو منهل وراء «فَيْد » بثمانية عشر ميلاً مكتوب على بابه: هذا المنصف، فإن لم تقبل فارجع وعُدَّ)(٤).

وهذا قول مقبول يمكن القيام به وتنفيذه.

وبالنسبة إليّ أقول: من يشك في قولي حول دلالات المياه على مسارات الطرق فليشمر عن ساعديه وينقض حجارة هذا الركم الهائل المُصْمت حجرًا حجرًا؛ فإن وجد ما يدل على أنه بني لغرض آخر غير ما قلت فشكه في محله، أما إذا آثر العافية فما عليه إلا أن يصحبني في الرحلات الميدانية على مسار أكثر من طريق لأثبت له أن ما قلته هو الصواب إن شاء الله.

ولي وقفة قبل مغادرة العاذرية وركمها الذي أعدّه مفتاحاً لدلالات مصادر المياه على مسارات طرق القوافل القديمة.

رجاء إلى الجهات المختصة باعتماد مخططات الأراضي أن تشترط المحافظة على موارد المياه وما هو على شاكلتها مما له علاقة بتاريخ هذه البلاد. وأقترح أن تحدد مثل هذه الأماكن «كمرفق عام» حديقة مثلاً مع إصلاح هذا الأثر والتعريف به وبماضيه

هذه الوقفة ليست للتعريف بالعاذرية؛ فهذه أصبحت معلمًا من المعالم، وهي أشهر من أن تعرف، ولكن وقفتي حول نسبة الاسم.

ويبدو لي أن من سماها بالعاذرية نسبها إلى نبات العاذر، وهذا النبات يتشابه مع نبات الحرمل من حيث شكل الشجرة ودوام الخضرة صيفًا وشتاءً، إلا أن أغصان «العاذر» تكون واقفة، أما أغصان الحرمل فتنثني عند ارتفاعها عن الأرض.

ولم أجد للعاذر ذكرًا في المراجع القديمة؛ مما يدل على أن تسميته هذه مستحدثة، وهذا ما حملني على التحري عن اسمه القديم عند القدماء.

وبعد البحث والتحري ظهر لي أن اسمه القديم هو «الألاءُ».

قال ابن منظور في «لسان العرب» مادة «ألا»:

الألاء، بالفتح: شجر حَسَنُ المنظر، مُرّ الطعم، قال بشر بن أبي خازم:

فإنكمْ ومدحكمْ بُجَيْرًا
أبا لَجَأ كما امْتُدحَ الألاءُ



إحدى آبار «العقلة» (الحرملية قديمًا) ويرى شجر الطلح الكبير المنتشر بكثافة قرب الآبار، كما يرى أحد أعلام الطريق فوق المرتفع كما هو ظاهر في الصورة بين الشجرة والسيارة

وأرض مَأْلاةٌ: كثيرة الألاء. والأَلاء: شجر من شجر الرمل دائم الخضرة أبدًا يؤكل مادام رطبًا فإذا عسا امتنع ودُبغ به، واحدته ألاءة... وسقاءٌ مألِيٌّ ومألوٌّ: دُبغ بالألاء.

وفي مادة (حسن) قال ابن منظور:

«حكى الأزهري عن علي بن حمزة: الحسن شجر الألاء مصطفًا بكثيب رمل، فالحسن هو الشجر سمي بذلك لحسنه، ونسب الكثيب إليه فقيل: نقا الحَسَن».

وذكره «ابن سيده» في مخصصه ضمن ما ينبت من الشجر في الرمل حيث قال: «الألاء يمد ويقصر، واحده كذلك ألاءَة وألاةٌ، وهو شديد المرارة يعظم ويطول وهو أبدًا شديد الخضرة طيب الريح لا تأكله الإبل ولا الغنم إلا أن المِعْزَى ربما أصابت منه يسيرًا فإذا كثر بأرض فهي مألأة...».

وانظر مادتي (الحسنان) و(الحسن) في معجم البلدان لياقوت الحموي. وانظر كلام أبي عبيدة وما قاله في كتابه «النقائض» عن خبر «يوم نقا الحسن».

- الطبعة الأوربية - ص ١٩٠. والمجال لا يتسع لإيراد أكثر من هذا مما قيل عن «الألاء» الذي أرى أنه هو شجر «العاذر» وهو لا يعرف في زمننا هذا إلا بهذا الاسم الأخير.

وخلاصة القول أنّ مورد ماء «الحرملية» الذي ذكر صاحب كتاب «بلاد العرب» أنه أول ماء يرده من يسلك الطريق من «حَجْر» إلى «البصرة» ما هو إلا آبار «العقلة» الواقعة الآن داخل حرم مطار الملك خالد لانطباق الوصف الوارد عليها وهذه الآبار واقعة في شعيب على خط العرض ٣٨ً ٥٦َ ٢٤ْ وخط الطول ٠٠ً ٣٨َ ٤٦ْ.

أما الركامات الحجرية الواقعة في شعيب في الجهة الجنوبية من العاذرية والتي أعده مفتاحًا للدلالة على مجمعات المياه فهي واقعة على خط العرض ٠٠ً ٠٣َ ٢٥ْ وخط الطول ٠٠ً ٣٤َ ٤٦ْ.

ودع عنك مقولة الرحالين الأجانب ومن أخذ برأيهم من أن هذه الركامات الحجرية وما شابهها ما هي إلا مدافن للموتى تعود إلى عصور حجرية أو زمن ما قبل التاريخ. والله أعلم بالصواب.

المراجع

١- عبدالله بن محمد بن خميس، معجم اليمامة: الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٢/٤٠٤.

٢- الحسن بن عبدالله الأصفهاني، بلاد العرب: تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي، داراليمامة - الرياض، ص٣٠٢.

٣- معجم اليمامة: ص ٢/١٦٩.

٤- عبدالقادر بن محمد الجزيري، الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة: دار اليمامة - الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص ٢/١٢٩٠.

جهود العلماء العرب في روسيا في القرن التاسع عشر

فاطمة حسن العبدالفتاح
جازان - السعودية

لئن كان الاستشراق في أساسه مهمة ذات جوانب متعددة ابتدأ بتكليف رسمي من الحكومات الأوربية، ثم انتقل ليصبح اهتمامًا ذا طابع فردي، لقد كانت أوربا ذاتًا دارسة والشرق موضوعًا للدراسة، وأقصد هنا الشرق العربي المسلم، فجعل المستشرقون أنفسهم في موقع المتميز معرفيًا، ثم قيمين في الحكم على الشخصية الشرقية من خلال رؤيتهم ومعرفتهم لا من خلال واقع هذه الشخصية وظروفها التاريخية، فأباحوا لأنفسهم أن يمارسوا طغيان إنشاء صورة محددة عن الشرقي وترسيخ هذه الصورة في ذهن المجتمع الأوربي، ومن ثم تم التعامل مع العربي المسلم من خلال هذا الإنشاء الاستشراقي.

وطبعًا هذا ينسحب على كل ما أنتجته الشخصية الشرقية فكريًا. أقول ، لئن كان كل هذا، هل قام العرب الذين ذهبوا إلى أوربا بدراسة المجتمع الأوربي، وهل حاولوا تكوين صورة عنه! وما الخدمات التي قدموها للعرب ولغتهم وآدابهم. مع ملاحظة أنه لكي نكون منصفين وموفقين في أحكامنا على الآخر، يجب ألاّ ننطلق من فكرة كَوّناها مسبقًا دون معرفته مباشرة، بل يجب أن نتدرج في تكوين الفكرة من خلال التدرج المعرفي لهذا الآخر، ومن خلال واقعه هو، وضمن الظروف التاريخية والموضوعية المحيطة به، وليس من خلال الفائدة التي يمكن أن تتحقق من إنشاء هذه المعرفة وفقًا لأغراض معينة، ثم تعميم هذا الإنشاء المعرفي والتعامل مع مجتمعات بأسرها والحكم عليها من خلال معرفة بنيت على أسس خاطئة. وعلى هذا، هل نستطيع أن نعدّ الدور الذي قام به أوائل العلماء العرب الذين رحلوا إلى أوربا دورًا منصفًا في تكوين فكرة عن الآخر من خلال معاينته مباشرة؟ وهل نستطيع أن نعدّ هؤلاء العلماء طليعة «المستغربين» إن جاز التعبير؟.

ولا أتحدث هنا عن الاغتراب بقصد البحث عن لقمة العيش التي دفعت الضائقة الاقتصادية التي عاشها العرب في أواسط القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين الكثيرين إلى الهجرة إلى أماكن مختلفة من

العالم، وإنما أقصد هؤلاء العلماء العرب الذين قصدوا أوربا، وعاشوا فيها، ومارسوا أدواراً ثقافية فكرية أو تعليمية من خلال تكوينهم المعرفي، وكونهم نتاج الحضارة العربية الإسلامية.

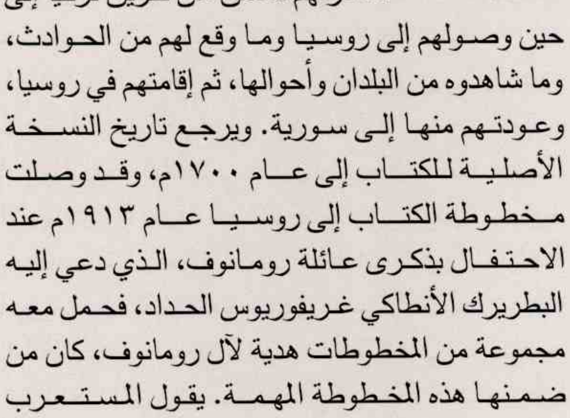
وفي هذا المجال سوف أحاول إلقاء الضوء على جهود علماء عرب رحلوا إلى روسيا، سواء بدافع ذاتي أو باستقدام من الحكومة الروسية القيصرية، ولم يعد قسم كبير منهم إلى أوطانهم. وإن كانت دراسة الشرق العربي المسلم فعلاً أنيط بالعلماء وغير العلماء من الأوربيين، فأظن أنه من الممكن الحديث عن فعل، وليس عن رد فعل قام به علماء عرب في وقت مبكر في ما يمكن أن يكون بدايات ينطلق منها الباحثون في دراسة أوربا شرقًا وغربًا، وتحليل ثقافة المجتمع الأوربي وشخصيته لكونه كيانًا مشكلاً. ويجب أن نأخذ في الحسبان أن هذه النظرات المبكرة لهؤلاء العلماء إلى روسيا قد لا ينطبق عليها تمامًا الشرط الذي طرحه عبدالله بونفور عبر تعريفه للاستغراب على أنه دراسة الآخر، بقوله: «إني أعتقد أن الشرط الأول لهذا الاستغراب هو المعرفة الدقيقة للعلوم الغربية، وبشكل خاص تلك التي هي موضوع فعل في الاستشراق، هذا بالنسبة إلى الذين يهتمون بهذا الملف، ويجب أن يكون هناك بعض هؤلاء»(١). ولكن هؤلاء العلماء قاموا عن وعي بدور مضاد للجهود الاستشراقية الغربية، وعطلوا فعلها في الاستغراب الروسي إلى حد كبير، من خلال وجودهم في بيئة هذا الاستغراب، وكونهم من المصادر الأساسية له، كما أنهم من خلال معرفتهم بلغة روسيا ومعاينة مجتمعاتها عن قرب استطاعوا أن يقدموا بدايات لدراسة آداب روسيا ومجتمعاتها.

رحلة مكاريوس

فمن أدوات البحث المعرفي التي يمكن أن تتيح معرفة متبصرة لروسيا كتب الرحلات التي قام العلماء العرب ورجال الدين الإسلامي والمسيحي. ومن ذلك كتاب «رحلة مكاريوس الأنطاكي إلى روسيا» وهي الرحلة التي قام بها مكاريوس الأنطاكي بطريرك أنطاكية في دمشق إلى روسيا عام ١٦٥٢م، وعنها ألّف ابنه بولص الذي كان رفيقًا له في هذه الرحلة الكتاب الذي أشرت إليه. يقول بولص عن هذه الرحلة وعن صحبته لأبيه عندما عزم على السفر، وعن دواعي سفره مع أبيه وتأليفه هذا الكتاب «فرأيت وقتئذ أن أكون له رفيق، لأساهمه في تعب ومشقة الطريق، وتجهزنا بعون الله وهممنا بالسفر، فساعتئذ رغّب إليَّ إذ ذاك من كان حظر(٢)، وهو أحد خلاني وأحبتي، الصادق يقينًا في وديّ ومحبتي، وهو الأخ المكرم، والأديب الفاضل المقحم، فريد عصره وأوانه، ووحيد قرنه وزمانه.. أن أجمع تاريخًا يتضمن حال سيرنا وذهابنا، يوم فيوم كافة مدة غيابنا، واصف محرر جملة أمور البلاد التي نجوزها، ليتحقق عند الكافة ما يسمع عنها من إشارات الحديث ورموزها»(٣).


الشيخ محمد عياد الطنطاوي

وتقع مخطوطة الكتاب في (٣٦٦) ورقة، ومقسمة إلى (٣٧) كراسًا، مكتوبة بخط واضح جميل. ويتحدث بولص بالتفصيل عن هذه الرحلة منذ مغادرتهم دمشق عن طريق تركيا إلى


حين وصولهم إلى روسيا وما وقع لهم من الحوادث، وما شاهدوه من البلدان وأحوالها، ثم إقامتهم في روسيا، وعودتهم منها إلى سورية. ويرجع تاريخ النسخة الأصلية للكتاب إلى عام ١٧٠٠م، وقد وصلت مخطوطة الكتاب إلى روسيا عام ١٩١٣م عند الاحتفال بذكرى عائلة رومانوف، الذي دعي إليه البطريرك الأنطاكي غريفوريوس الحداد، فحمل معه مجموعة من المخطوطات هدية لآل رومانوف، كان من ضمنها هذه المخطوطة المهمة. يقول المستعرب

كراتشكوفسكي عن ذلك: «وعرفت أنه بعد الاحتفال وبعد رحيل البطريرك، قد سلمت - فعلاً - مخطوطات شرقية ما إلى المكتبة الخاصة لجلالته في القصر الشتوي»(٤). وقد قام بترجمة هذه المخطوطة من اللغة العربية إلى الروسية العالم العربي مرقص الدمشقي. وإن كان الروس يعدّون هذا الكتاب «مصدراً مهماً من مصادر التاريخ الداخلي لدولة روسيا الموسكوبية»(٥)؛ فالأحرى أن نعدّه نحن مصدراً مهماً من مصادر دراسة روسيا في تلك الفترة، وبداية توصيف الشرق لروسيا.

الطنطاوي في روسيا

ولا يأتي القرن التاسع عشر، حتى نرى مسيرة المسافرين باتجاه روسيا تتنامى. ليمارس العلماء العرب هناك دوراً أكثر أهمية من وصف البلاد والعباد من خلال الرحلات، وإنما ليكونوا مصادر مهمة وعناصر أساسية في تكوين الاستعراب الروسي، ثم ليؤدوا خدمات كبيرة للعرب واللغة العربية، سواء من حيث ترسيخ صورة إيجابية وأقرب ما تكون إلى الواقعية عن العربي المسلم أو من خلال تعليم اللغة العربية وآدابها، أو من حيث دراسة المجتمع الروسي والكتابة عنه. ويأتي في طليعة هؤلاء العلماء من حيث عمق التأثير، وغزارة التأليف سواء عن العربية وآدابها وعلومها أو عن المجتمع الروسي، الشيخ العالم محمد عياد الطنطاوي (١٢٢٥ - ١٢٧٨هـ/ ١٨١٠ - ١٨٦١م). لقد كان اتصال الطنطاوي بروسيا عن طريق المستعرب فرين، وها هو ذا يوجه رسالة إلى أمين المتحف الآسيوي، الذي أصبح فيما بعد معهد الاستشراق، يعرّفه فيها إثر قدومه إلى روسيا بمسيرة حياته، فيقول: «إلى حضرة الجناب الوقور الخواجة فرين، يقول الفقير محمد بن سعد بن سليمان عياد الطنطاوي: ولدت بقرية بقرب طنطا تسمى نجريد سنة ١٢٢٥هـ»(٦). ثم يتحدث في الرسالة نفسها عن تعليمه وثقافته التي تكونت في مساجد مصر ومعاهدها، فيقول عن طنطا: «وبها علماء وفقهاء وقرّاء، وتعليم القرآن بها أحسن من مصر بخلاف العلم، ولذلك يقال في المثل: ما قرآن إلا أحمدي ولا علم إلا أزهري، أحمدي نسبة إلى جامع سيد أحمد البدوي، وأزهري نسبة إلى الأزهر»(٧) ثم يقول: «وذهبت إلى المكتب وعمري نحو ست سنين، فحفظت القرآن مرتين بداية وعيادة كما هي العادة، ثم بعد حفظي القرآن لم أخرج من المكتب، بل حفظت فيه متوناً كثيرة كمتن المنهج في علم الفقه، وهو قدر القرآن، وكمتن ألفية ابن مالك في النحو... إلخ. ثم لما كان عمري عشر سنين ابتدأت في تعلم العلم، فحضرت على المرحوم الشيخ محمد الكومي شرح ابن قاسم في الفقه مدة سنة، ثم مرة ثانية على المرحوم الشيخ محمد أبي النجا»(٨)، وعن قراءاته يقول: «وقرأت شرح الشفا، وهو آخر ما قرأت في الأزهر، فإني ختمته قبل السفر بأربعة أيام، وقرأت المقامات الحريرية في الأزهر، وشرح الزوزني على المعلقات، وما علمت أحداً قرأهما فيه، وقرأت البردة وبانت سعاد»(٩)، ثم يتابع قائلاً: «وألجأني الدهر إلى الكسب فعاشرت بعض الإفرنج المقيمين بمصر، وأول ما عاشرته الخواجة فرينل، وهو يحب العربية بالطبع فكان يحثني على الاشتغال، وهو الآن قنصل جدة.. ثم رغبني في الفرنساوية وعلمني.. ثم من جملة من قرأ علي من الفرنج الخواجة نقوله موخن المسكوبي، ثم الخواجة فرين المسكوبي، ثم سألاني الذهاب إلى بيتربورغ فأجبت، ثم بعد انقضاء الزمان اللازم لتوفية هذا الأمر حضرت إلى بيتربورغ في ذراكم وتحت حماكم»(١٠).

كان الطنطاوي ذا تكوين فكري عربي إسلامي. وقد اعتز بثقافته وهويته وبقي أمينًا عليهما في تعليمه وكتاباته وطريقة حياته، ومن ذلك حرصه على ارتداء الزي الشرقي طوال حياته في روسيا

ويتضح لنا من فقرات هذه الرسالة الثقافة العربية الإسلامية التي نهلها الطنطاوي من الأزهر، إضافة إلى تعلمه اللغة الفرنسية. وكان الطنطاوي تلميذاً



منظر عام لمدينة سان بطرسبورغ

لعبدالرحمن الصفتي الشرقاوي المتوفى سنة ١٢٦٤هـ/١٨٤٨م، وقد جمع الطنطاوي شعر أستاذه الصفتي في ديوان سماه «تلاقي الأرب في مراقي الأدب» وكان المستعرب موخلينسكي (١٨٠٨ - ١٨٧٧) من تلاميذ الصفتي في عام ١٨٣٥م في القاهرة. إذن كان الطنطاوي ذا تكوين فكري عربي إسلامي. وقد اعتز بثقافته وهويته وبقي أميناً عليهما في تعليمه وكتاباته وطريقة حياته، ومن ذلك حرصه على ارتداء الزي الشرقي طوال حياته في روسيا، التي احتفت به لدى قدومه إلى سانت بطرسبورغ عام ١٨٤٠م فكتب المستعرب سافيليف في صحيفة «أخبار سانت بطرسبورغ» مقالة يعرّف فيها بالطنطاوي فيقول: «تسألني عن هذا الرجل الوسيم في حلته الشرقية وعمامته البيضاء، ولحيته السوداء، كالقطران، وعيونه الحية المتقدة شرراً، ووجهه المعبر الذكي المحترق لا بشمسنا الشمالية الباهتة، لقد قابلته مرتين من قبل، يسير مختالاً على الجانب المشمس من شارع نيفسكي الرئيس، وكعنصر دائم في النيفسكي سرعان ما تراه، ولا بد أنك تريد أن تعرف من هو»(١١). ويبين الكاتب أنه الشيخ محمد عياد الطنطاوي الذي رحل من «شاطئ النيل» ليشغل الكرسي الخالي للغة العربية في معهد اللغات الشرقية التابع لوزارة الخارجية، ويقول سافيليف: «الآن تستطيعون تماماً أن تتعلموا الحديث بالعربية دون أن تسافروا من بطرسبورغ»(١٢). إن اعتزاز الطنطاوي بشخصيته وهويته العربية الإسلامية لم يجعله يفغر فاه دهشة أمام المجتمع الجديد الذي وجد فيه، فحرص على الحفاظ على مظهره الذي يعكس هويته الإسلامية، مما جعل الحكم عليه من معاصريه ومن الأجيال التالية بأنه «كان شخصية محبوبة، وقد وصلتْ عبر هؤلاء الصورةُ الإيجابية للعربي المسلم»(١٣).

وقد حفظت صورة الطنطاوي هذه في أذهان من

يعرفونه من خلال الصورة التي رسمها له الفنان المعروف مارتينوف بيده، ويبدو في هذه الصورة على ثياب الطنطاوي الشرقية، وسام القديسة «أنا» (حنة) الذي علق عليه بقوله:

إني رأيت عجبًا في بطرسبورغ وأنّه

شيخ من المسلمين يضم في الصدر حنّه

شغل الطنطاوي كرسي اللغة العربية في جامعة سانت بطرسبورغ من عام (١٨٤٧ ـ ١٨٦١م) وكان ثالث شخصية أجنبية تشغل كرسيًا في الجامعة. توفي الطنطاوي في بطرسبورغ بعد أن عانى شللاً في أطرافه عام ١٨٦١م وله من العمر (٥٠) عامًا، ودفن في المقبرة الإسلامية التترية قرب قرية فولكفو في بطرسبورغ.

تأتي أهمية الطنطاوي من خلال عدة أمور، أولها: تعليمه اللغة العربية بجامعة سانت بطرسبورغ، وشغله كرسي الأستاذية فيها، وقد نتج من ذلك تخرج جيل من المستعربين تلمذوا له، فنهلوا الثقافة العربية الإسلامية مباشرة من شخصية عالمة بهذه الثقافة، بعيدًا عن الوقوع في شرَك الاستشراق الأوربي الغربي. والأمر الثاني: هذه المؤلفات الكثيرة التي تركها ومازالت مخطوطة. (وقد جمع الطنطاوي بنفسه مجموعة من المخطوطات تقارب المئة والخمسين مجلدًا)(١٤)، آلت كلها إلى مكتبة جامعة بطرسبورغ، وكان بين هذه المجموعة عدد ليس قليلاً من الآثار الأدبية، وأنّ جزءًا منها قد دخل في نطاق الاستخدام العلمي. وكان جزء من هذه المجموعة من تأليف الطنطاوي وجزء آخر لمؤلفين آخرين، ومخطوطات فيها ملاحظات وإضافات ومواد تجيب عن استفسارات أصدقائه وطلبته الأوربيين. ونحن إذا استعرضنا قائمة مؤلفات الطنطاوي التي وردت في فهرس مخطوطات جامعة بطرسبورغ لوجدناها تتجاوز ثلاثة وعشرين عنوانًا، وإن قسمًا منها كتب لغايات تعليم طلبته العربية وآدابها وتاريخها، فمن ذلك: «نظم تصريف الزنجاني»، و«نبذة من تاريخ العرب»، و«الأمثال العربية»، و «القاموس التتري ـ العربي»، وغير ذلك. ولعل الأثر الأكثر قيمة وأهمية الذي خلفه الطنطاوي، ويشكل منطلقًا لدراسة روسيا في تلك الفترة، هو كتابه المسمى «تحفة أولي الألباب في أخبار بلاد الروسيا» الذي كتبه سنة ١٢٦٦هـ/١٨٥٠م، وأهداه للسلطان عبد المجيد. والكتاب ليس وصفًا جغرافيًا لروسيا، وإنما وصف تفصيلي لرحلته من القاهرة إلى بطرسبورغ، وأيضًا «تحدث بالتفصيل عن انطباعاته عن روسيا والروسيين مدة عشرة الأعوام الأولى من إقامته في روسيا، وتحدث عن أسفاره في العطلات إلى بلاد بحر البلطيق وفنلندا. وقد شرح لأهل وطنه بالتفصيل تاريخ روسيا في العصر الحديث، ورسم خريطة لمدينة بطرسبورغ في عصره. كل هذا بإشارات حية ناصعة هي الآن بالنسبة إلينا لا تقدر بثمن كما في السابق»(١٥).

العلماء العرب الذين ذهبوا إلى روسيا في القرن التاسع عشر قد مارسوا دورًا فكريًا حضاريًا في التلاقح بين ثقافتين مختلفتين، وذلك من خلال ما قدموه من جهود لتعليم اللغة العربية وآدابها، والتعريف بالحضارة العربية الإسلامية

مرجع أساسي

إذن كتب الطنطاوي لأهل وطنه توصيفًا كاملاً لروسيا خلال مدة عشرة أعوام عايش فيها المجتمع الروسي، وكذلك تحدث عن بلاد أخرى زارها هي: فنلندا، وبلاد بحر البلطيق، فأي عمل أفضل قادر على أن يقدم لنا ما نحتاج إليه لتحليل هذا الجزء من المجتمع الأوربي في تلك الفترة من الزمن! فإذا أضفنا إلى هذا الكتاب الثمين الكتب الأخرى التي قام الطنطاوي بتأليفها عن المناسبات المختلفة التي تخص روسيا، وجدنا بالتأكيد مرجعًا أساسيًا في تحليل هذا المجتمع من قبَل عالم عارف هو نتاج المعرفة العربية الإسلامية. فمن الكتب الأخرى للطنطاوي نجد الكتب الآتية التي تعكس عناوينها مضموناتها، مثل كتاب «تاريخ جلوس أبهة القيصر إسكندر الثاني على تخت الروسيا»،

و«تاريخ خمس وعشرين سنة من تتويج أبهة قيصر الروسيا نقولا الأول»، و«تاريخ رجوع الدوقة مكسميليان لهتنبرغ من مصر إلى بتربورغ»، و«تاريخ قدوم سعادة ولي عهد روسيا الأمير إسكندر مع خطيبته الأميرة مارية وتزوجه بها»، و«تاريخ وفاة أبهة قيصر الروسيا نيقولا الأول». إن هذه المؤلفات وغيرها مع كتابه في وصف روسيا تعطينا فكرة واضحة عن أهمية العمل الذي قام به الشيخ محمد عياد الطنطاوي. هذا العمل الذي ينتظر من يدرسه دراسة متأنية تفيه حقه؛ لأن «ما يعرفه العرب والروس حتى الآن عن مخطوط «وصف الروسيا» هو فقط من مقالات صغيرة عن الملخص العربي»(١٦).

إن الطنطاوي لم يؤسس لجيل من المستعربين الروس الذين تلمذوا له فقط، وإنما أيضًا المستعربين الفنلنديين والألمان والمجريين، ولعل أهم طلابه المستشرق الفنلندي جورج وليم ١٨١١ - ١٨٥٢م(١٧)، وكذلك مارس الطنطاوي دور صلة الوصل الثقافية بين المستعربين الروس في بطرسبورغ والكتاب والأدباء المصريين.

الطنطاوي لم يؤسس لجيل من المستعربين الروس الذين تلمذوا له فقط، وإنما أيضًا المستعربين الفنلنديين والألمان والمجريين، كما مارس دور صلة الوصل الثقافية بين المستعربين الروس في بطرسبورغ والكتاب والأدباء المصريين

عرب في روسيا

في الفترة نفسها، كان في روسيا إضافة إلى الطنطاوي علماء آخرون، فكان هناك العربي السوري المعروف بمرقص الدمشقي (١٨٤٦ - ١٩١١م) الذي كان أول مدرس للغة العربية في معهد لازارييف في موسكو، وأول عربي يصبح رئيسًا لقسم اللغة العربية في هذا المعهد، وقد حصل مرقص عندما كان في جامعة بطرسبورغ (١٨٦٧ - ١٨٦٨م) على الميدالية الفضية عن بحثه الذي قدمه عن الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد بقي مرقص أستاذًا للغة العربية في معهد لازارييف حتى عام ١٩٠٠م، ثم عاد إلى سورية، وعاش في صيدنايا بالقرب من دمشق إلى أن توفي فيها. وأهم عمل قام به مرقص هو ترجمته

- «رحلة مكاريوس الأنطاكي إلى روسيا» من اللغة العربية إلى الروسية.

كذلك علّم اللغة العربية في روسيا م. عطايا (١٨٥٢ - ١٩٢٤م)، وهو دمشقي الأصل، وقد نشأ في بيروت، ولم يكن ذا تربية أوربية، «وكان مساعدًا لمرقص في تدريس اللغة العربية، وقام بتدريسها في معهد لازارييف أكثر من خمسين سنة»(١٨)، ولعطايا كتاب مدرسي لتعليم اللغة العربية أعيدت طباعته ثلاث مرات، مرة في قازان عام ١٨٨٤م، ومرتين في موسكو عامي ١٩٠٠ و ١٩١٠م. وقاموس عربي - روسي طبع عام ١٩١٣م (وكان عطايا مشهورًا جدًا في بيئة الاستعراب الروسي)(١٩).

كما ذهب إلى روسيا وعلّم فيها، العربي الفلسطيني بندلي جوزي (١٨٧١ - ١٩٤٤م) وهو من القدس، ولد وتعلم فيها، وحصل على دبلوم الدراسات العليا من قازان، والدكتوراه عام ١٨٩٩م عن رسالته في «فكر المعتزلة»، وقد ترك جوزي عددًا من المؤلفات، مثل: «الأمومة عند العرب»، و«من الحركات الفكرية في الإسلام»، و«أصل الكتابة عند العرب»، وله قاموس روسي - عربي، كما ترجم من العربية إلى الروسية «مقتطفات من تاريخ أذربيجان» من كتب اليعقوبي والبلاذري. وقد درّس جوزي اللغة العربية وآدابها في جامعة قازان حتى عام ١٩٢٠م ثم انتقل إلى باكوليكون أستاذًا في جامعتها التي أنشئت في العام نفسه، ويرى الروس أن (جوزي) كان مرجعًا خصبًا من مراجعهم.

كما قام بتدريس اللغة العربية في روسيا أحمد بن حسين المكي الذي كان أستاذًا في جامعة قازان منذ عام ١٨٥٢م حتى عام ١٨٥٦م إذ انتقل إلى بطرسبورغ وبقي أستاذًا في جامعتها حتى عام ١٨٥٨م. وعبدالله كلزي (١٨١٩ - ١٩١٢م)، وهو من حلب بسورية، وقد

ابتدأ تدريس اللغة العربية في أوديسا ابتداءً من عام ١٨٥٦م، ولكنه لم يمكث بها طويلاً، فانتقل إلى بطرسبورغ حيث أمضى بقية حياته، وله كتاب مدرسي لتعليم اللغة العربية سماه «المحادثة الروسية - العربية» طبع عام ١٨٦٨م.

كما ترجم بعض أشعار الشاعر الروسي كريلوف إلى اللغة العربية. كذلك درست اللغة العربية في روسيا كلثوم عودة، وهي عربية من الناصرة، أنهت دراستها في مدرسة المعلمين في بيت جالة قرب بيت لحم، وسافرت في عام ١٩١٤م إلى روسيا. ثم حالت الحرب العالمية الأولى دون عودتها إلى بلدها فتزوجت وبقيت في روسيا، وصارت تدرس اللغة العربية في معهد اللغات الشرقية في بطرسبورغ. وكان هناك أيضًا سليم عبدالله جرجس نوفل (١٢٤٣ - ١٣٢٠هـ / ١٨٢٨ - ١٩٠٢م) وهو عربي من طرابلس الشام. وكان عارفًا باللغات الفرنسية والروسية والإنجليزية والتركية، وقد تلقى دراسته بمدرسة عينطورة بلبنان، وانتخب عضواً في الجمعية العلمية ببيروت، ثم سافر إلى بطرسبورغ، ودرّس اللغة العربية في القسم التعليمي للغات الشرقية التابع لوزارة الخارجية. ومثّل روسيا في عدد من مؤتمرات الاستشراق.

إن كان الروس يعدّون كتاب «رحلة مكاريوس» مصدرًا مهمًا من مصادر التاريخ الداخلي لدولة روسيا الموسكوبية؛ فالأحرى أن نعدّه نحن مصدرًا مهمًا من مصادر دراسة روسيا في تلك الفترة، وبداية توصيف الشرق لروسيا

من خلال ما سبق، وفي هذه العجالة من البحث نرى أن العلماء العرب الذين ذهبوا إلى روسيا في القرن التاسع عشر قد مارسوا دوراً فكرياً حضارياً في التلاقح بين ثقافتين مختلفتين، وذلك من خلال ما قدموه من جهود لتعليم اللغة العربية وآدابها، والتعريف بالحضارة العربية الإسلامية، وتقديم صورة واقعية عن الشرق العربي المسلم، فألفوا الكتب التعليمية وغير التعليمية، وترجموا من وإلى اللغة العربية، فأخذ المستعربون الروس علوم العربية وثقافتها من هؤلاء العلماء مباشرة، دون أن يمر ذلك عبر مصفاة الغرب الأوربي، كما أنهم ساهموا في تكوين جيل من المستعربين الذين لم يقعوا في فخ الاستشراق الغربي. وقاموا، من خلال مؤلفاتهم، بدراسة المجتمع الروسي وتوصيفه، دراسة لم تكن مبنية على دوافع إنشاء الآخر وفق نظرة سلبية أحادية، وإنما كان هدفها معرفياً إنسانياً. وإن هذه المؤلفات التي تركها هؤلاء العلماء الأوائل لم تحظ بالاهتمام الكافي، ولم تدرس الدراسة التي يمكن أن تقدم لنا وجهة نظر عربية مبكرة لدراسة جزء مهم من أوربا. وتنطلق أهمية هذه المؤلفات من أنها لم تكن من باب رد الفعل على الفعل الاستشراقي، وإنما كانت فعلاً عربياً مبكراً لوصف الآخر وصفاً معرفياً إنسانياً.

الهوامش والمراجع

١- عبدالله بونفور، مجلة الفكر العربي، العدد (٣١)، ١٩٨٣م، ص٢٨.
٢- كذا في أصل مخطوطة «حلة مكاريوس الأنطاكي إلى روسيا»، بطرسبورغ - روسيا.
٣- الورقة الثانية من المخطوطة الأصلية.
٤-٥ - مع المخطوطات العربية، لكراتشكوفسكي، تعريب د. محمد منير مرسي، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٩م، ص ٥٩، ٥٣.
٦- تاريخ الاستعراب الروسي، لكراتشكوفسكي، ص٨٩.
٧-٩ - المصدر السابق، ص٩٠.
١٠ - ١١ - المصدر السابق، ص ٩٣.
١٢- مع المخطوطات العربية، ص١٤٣.
١٣- لقاء مع المستعربة المتدربة أولفا فرالوفا، بطرسبورغ، روسيا، ١٩٨٨.
١٤-١٦ - مع المخطوطات العربية ص١٤٥، ١٤٨، ١٤٩.
١٧- مجلة الفكر العربي، عدد (٣١)، ص٢٤٤، مقالة د. سهيل فرح، الاستشراق الروسي نشأته ومراحله التاريخية.
١٨-١٩- تاريخ الاستعراب الروسي، لكراتشكوفسكي ص١٦٣، ١٦٤.

سقف الكفاية

رواية كبيرة لأصغر روائي سعودي

عبدالله السمطي
الرياض ـ السعودية

تنبسط شعرية الخطاب السردي حين تؤدي بفاعلية قصوى إلى الدلالات الداخلية للغة هذا الخطاب، بمعنى أن هذه اللغة تصبح أكثر اكتنازًا وقابلية للتأويل، والكشف، وتضحي خصائصها أكثر طواعية للتساؤل، إذ إن اندماج هذه اللغة مع العناصر الشعرية سيفسح المجال حيال القارئ ليستبطن أكثر، وليعيد إنتاج الخطاب السردي بشكل أكثر دقة ورهافة.

وفي رواية الكاتب محمد حسن علوان الصادرة عن دار الفارابي ببيروت ـ الطبعة الأولى ٢٠٠٢م نحن إزاء شعرية سردية متميزة، مرتكزة على جملة من العناصر فوق السردية المزدحمة بالدلالات. إن السرد في هذه الرواية يتأدى عبر خاصتين جوهريتين:

ـ الأولى: أنه يقوم بنقل أحداث الرواية، عبر أزمنتها المختلفة، ونقل ملامح الشخصيات وأحوالها.

ـ الثانية: أنه يشير إلى ذاته، وإلى سماته الداخلية اللغوية. مغزى ذلك أن الروائي لا يكتفي بأن يصبح السرد حاملاً للأحداث، ناقلاً لها، بل إنه يعطيه طاقة أخرى داخلية عبر اللغة هي الطاقة الشعرية.

ورواية: «سقف الكفاية» هي الرواية الأولى للكاتب، الذي هو شاعر أيضًا، عمره (٢٣) عامًا، ويوصف بذلك أنه أصغر روائي سعودي، وهي رواية على طولها البالغ ٤٠٤ صفحات، لم تصب بالترهل، أو بالسقوط في دوائر الاستطراد غير المسوغ، بل إنها رواية متماسكة فنيًا ودلاليًا، وتنم على موهبة روائية فذة تمسك بالخيوط. وتحرك الأحداث والشخصيات والتقنيات بشكل طبيعي، سهل، ممتنع، وممتع في آن.





يستثمر المؤلف هذا الوعي بتكنيك «الشعرية»، التي تضفي على السرد عمقًا آخر، وتحول السرد إلى عنصر نشيط وفعال من وجهة ترميزية تفضي من لدن القارئ إلى إثارة التأويل والتحليل، بالإضافة إلى كون هذا السرد ـ كما قلنا سابقًا ـ ناقلاً للأحداث.

إن الرواية بمنزلة متحف للغة الشعرية التي تتأدى عبر عدة مستويات وأشكال، فيجري فيها السرد الفني العالي، جنبًا إلى جنب مع القصيدة النثرية، والقصائد الشعرية والنصوص الشعبية، والتناصات التي تتمثل في تضمين الخطاب عبارات من رواية «فوضى الحواس» لأحلام مستغانمي، ومقاطع شعرية من محمود درويش ومظفر النواب، وأمل دنقل.

تشعير اللغة

إن سؤال شعرية الخطاب السردي في الرواية يفرض على القارئ البحث عما يميز هذا الخطاب من انفعالية اللغة وعاطفيتها ـ بتعبير فاليري ـ بيد أن هذا البحث يحتاج إلى قدر كبير من التأمل التحليلي الذي لن تفي به هذه المساحة الكتابية، لكن عل الأرجح أن هذه اللغة ملموسة بشكل حقيقي منذ بداية الرواية إلى نهايتها، فهذه المستويات الكثيفة من تشعير اللغة المشار إليها سالفًا، هي مستويات تدفع بالسرد إلى مناطق قصية من الكتابة الجمالية، المؤلف لايتوقف عند جعل السرد مجرد ناقل، بلغة خاملة، بل يعدّه درجة من درجات الإبداع الفني، من هنا لا نعجب كثيراً حين نرى أن هذا السرد قد تحول إلى قصائد نثر في عدة مشاهد من الرواية، وحين نراه لا ينزل هنا ويصعد هناك، بل هو يتأدى في شكل متصاعد أبدًا بمستوى متقارب من أول الرواية، حتى نهايتها.

إن السرد الفاتن الذي يقدمه المؤلف، والذي يؤديه بمهارة شعرية عالية، خاصة في احتشاده بالتفاصيل الصغيرة، واستطراده الممتع في تأملها وتقليبها على أوجهها كافة، خاصة تلك التفاصيل المتعلقة برصد تجربة «ناصر» العاطفية، واهتمامه بالكتابة، والحب، والحزن، والائتلاف مع «مها» حتى المبيت في غرفة نومها، وسرده لمكان إقامته بالخارج، وحوارياته الشعرية مع «مس تنغل» ومع «ديار».

هذا السرد سيظل يطرح أمامنا مسألة : الوظيفة، داخل العمل الروائي .. ماوظيفة هذا السرد الشعري، وهل أدى غاياته، وهل أبرز التفاوت الفكري والنفسي بين الشخصيات؟ إن المؤلف يجعل السرد بمنزلة أفكار مجنونة وخلاقة في الوقت نفسه خاصة مع الأفكار التي تطرحها شخصية «ديار» الشخصية الدرامية القلقة في الرواية. إذ يصفه المؤلف بقوله على لسان ناصر: «أعرف أنه يستغل لذة الفوضى، وشهوة الجموح والتكسير في حروبه الكلامية، ولكن أفكاره دائما تخرج محصنة ضد الدحض، ومغلفة ضد الرد، ومحقونة بحزنه السري، ومتجمدة، كأنها ظلت سنوات في داخله» ص٢٣٢.

محمد حسن علوان

إن وظيفية الشعرية في السرد في هذه الرواية تجعل نقل الحدث الدرامي مؤثرًا، وبالغ الدلالة، ومن هذه الأحداث ـ وهي كثيرة في الرواية ـ مشهد تأثر «ناصر» بغناء «ديار» وهما في الغربة، حتى إنه انفعل بشكل مأساوي جعله يبكي ويتقيأ دمًا، فحين كان ديار يغني بلهجته العراقية: «أصد عنك .. أحبنك .. تشذب من قال .. أمل منك، بدمع عيني لطفيها .. واشوفنك» كان ناصر يهيم حزنًا في واد آخر ينقله إلينا المؤلف بشكل سردي درامي مثير:

«ما أوقف ديار عن غنائه إلا شهقاتي، تمددت على أرضية شقته أبكي كطفل مضروب، وألقى هو عوده جانبًا، وقام إليّ جزعًا لهذا الانهيار العنيف، كان كل مافي جسدي يبكي جميعًا، وأنا أنتحب بشدة، وأعض على شفاهي مثل مدمن، ويداي ترتجفان كأنه الموت أقرفني الدمع في أنفي، مسحته بيدي فعادت حمراء، دماء غزيرة قطرها أنفي، لوثت بساط ديار، ويديه، وثوبه البيتي، وهو يحملني من الأرض كطفل، ويقعدني على الأريكة، ويصب على أنفي الماء البارد، صرخت في وجه

ديار بهذيان لا أتذكره وهو يحاول تهدئتي، كنت لا أحاول أن أتمالك نفسي شعرت أني أدفع شيئًا ثقيلا جدًا في فتحات صدري، أحاول أن أخرجه من ثقوب الرئة، كان كل انتحاب أشد من الذي قبله، وكل صرخة أعلى من التي سبقتها، أحاول أن أفلت من يدي ديار لأرمي بنفسي على الأرض، لأضرب بقبضتي على الجدار، وهو يحاصر اندفاعي وفي عينه نظرة خوف هائلة، أخيرًا ثبت أكتافي بيديه القويتين، وأخذ يمسح بيديه وحدهما دم أنفي، ويحشر قطعة من المنديل في فتحة النزيف، ثم يناولني كوب الماء وأنا أشهق مثل أواخر المطر» ص ٣٠١.

نضج إبداعي

فهذا المشهد الدرامي الحافل بالحركة، واللقطات المتتابعة السريعة يؤكد وظيفية السرد الذي تؤدي فيه درجات الشعرية دورًا مهمًا، خاصة حين يصبح هذا السرد بمنزلة قصائد نثر كما في هذا المشهد:

« ودقت الساعة الثالثة فجرًا
حان وقت الرحيل، ولم تعد الأشياء الأخيرة تجدي نفعًا
لا العناق الأخير ولا القبلة الأخيرة
لا دفؤك ولا سريرك
ولا دموعك ولا ارتجافك
ولا رعشات أصابعك على ظهري
ولا حركة شفاهك خلف أذني

فقدت كل العادات الحبيبة لذتها في ساعة الفاجعة، وانحصرت كل لذائذ الدنيا في موت يبقيني معك الآن، أو يمنعك من الذهاب إلى غيري، لم يبق إلا أن معجزة كونية تحدث الآن، تغير هذا القدر القاتل» ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠.، ومن الأشياء المسعدة في الرواية الأولى للكاتب محمد حسن علوان، أنه يجري بعض العبارات التي يمكن أن تصلح مثلاً روائيًا بحد ذاته، إن هذه العبارات لا تصدر في الحقيقة إلا من كتاب لهم تجربتهم الحياتية المديدة، وإذا كان علينا ألا نربط بين المؤلف وعمله الإبداعي بشكل متطابق، فإنه تكفي الإشارة إلى أن تضمين السرد بهذه العبارات يوحي بأن الكاتب بلغ سن النضج الإبداعي، فهي عبارات لها دلالتها داخل النسيج السردي ككل، و تشير إلى أن بطل الرواية له تأملاته الخاصة التي تعلل أن يكون هذا العمل بهذا الحجم، ومن هذه العبارات:

ـ النساء دائمًا أوراق قابلة لإعادة الكتابة ـ ص٨٠.

ـ منذ آلاف السنين المنفى هو مكان آمن للحزن. ص ٨٠.

ـ الجرح يكون أكثر وجعًا عندما يكون بقية الجسم سليمًا. ص ٨٣.

ـ قال صادقًا: يئست فأمنت فنمت لا ينام هكذا إلا العادلون أو اليائسون. ص٩٥.

ـ شعرت أن الكتابة في غابة الشوك هذه قضية المرأة، تتطلب دقة كبيرة.

ـ كل المدن تتساوى إذا دخلناها بتأشيرة حزن ص ١١٧.

سؤال شعرية الخطاب السردي في الرواية يفرض على القارئ البحث عما يميز هذا الخطاب من انفعالية اللغة وعاطفيتها

إن شعرية الخطاب السردي تحتاج إلى قدر من التحليل في رواية «سقف الكفاية»، فالمؤلف لا يسعى إلى تحديد جوهري لمسألة الوظيفية، بل إن جمالية الرواية وأسلوبها الفاتن يجعلان القارئ هو من يبحث عن الوظيفية لا المؤلف.

رواية سقف الكفاية رواية تحتفي بإبداعية اللغة وجمالياتها، وهي تجرى على ألسنة الشخوص قدرًا كبيرًا من الأفكار، والأسئلة، والآلام، والتأملات هي رواية موت، وليست بموت، وهي رواية عشق كامن تحيا فيه عواطف، وتكسرات، وطموحات. والسرد يأتي محتشدًا بذلك كله طامحًا إلى فض شفرات الكتابة الروائية التي يختتمها البطل برصد مجموع ماكتبه من أسطر وحروف وكلمات.

هندسة الإذعان

من صور الإلهاء في القرن العشرين

محمد سيف حيدر
صنعاء - اليمن

كان «الإلهاء» فيما مضى فنًا في ذاته، بحيث حُصِر في ممارسات فردية اعتمدت على براعة مصدر الإلهاء الذي تميز بسطوة اجتماعية/ سياسية هائلة على جمهور الملتهين، الذين كان يجمعهم - غالبًا - نطاق مكاني ضيق ومحدود ... إلاَّ أن عملية الإلهاء في القرن العشرين اكتسبت طابعًا ثوريًا واضحاً خاصة مع هذه الطفرة الإعلامية التي تعيشها المجتمعات المعاصرة حاليًا، وبذا تحول فن «الإلهاء» إلى علم حقيقي له مرتكزاته /أسسه النظرية وتطبيقاته العملية المفعمة بالإبهار.

وقد تجلت تلك التطبيقات في معظم جوانب حياتنا اليومية ومحيطنا الاجتماعي، فهي أحياناً سياسية، أو هي اقتصادية وتقنية وفنية وثقافية ولغوية أيضاً في أحايين أخرى، وكل ذلك قد يتجلى - بدوره - إما في صورة مفردة وإما في صورة جماعية في ممارسات الطبقات النخبوية في المجتمع على تباين توجهاتها ونوازعها بينما الهدف واحد في كل الأحوال، ألا وهو «الجماهير الغفيرة» في سياقها القومي أو العالمي على السواء!. أما وسيلة «الإلهاء» وقوته الضاربة فتتمثل بالوسائل الإعلامية المختلفة، فهي التي تصنع الوعي، وهي التي تقوم بتعليبه كذلك، وهي تفعل كل هذا بسلاسة مدهشة، إذ إن واقع الذرية الفردية، والطابع اللاشخصي للعلاقات، واضمحلال الروابط الجمعية، يخلق استعدادات في الوعي التلقائي للاستغراق في اللحظة، والتركيز في العناصر البصرية الطارئة، والانطباعات الانفعالية السريعة، بعيداً عن التصورات الشاملة للواقع، كما يقول آرنولد هاوزر. وتلتقي هذه الاستعدادات الموضوعية مع إمكانات وسائل الاتصال وأهدافها لتجعل لهذه الوسائل الإعلامية ركائز قوية وتأثيرات ضخمة في بناء الواقع داخل وعي الأفراد والجماعات.

مراحل الإلهاء

يشير دانييل يانكلوفيتش في كتابه المهم: «الديمقراطية .. وقرار الجماهير» إلى مراحل ثلاث تؤدي إلى صناعة «القرار العام»- حسب تعبيره - لكنها تتضمن - حسب تقديرنا- مراحل «إلهاء» الجماهير عن تشكيل «رأيها الخاص والحقيقي» بحيث تتشكل / تتبلور آراؤها في مصلحة صاحب القرارات العليا والمستفيد الأوَّل من عملية الإلهاء «أيًا كان اسمه، وأيًّا كان موقعه».. هذه المراحل هي كالآتي:

- **زيادة الوعي**: وهي المرحلة التي يُعلَم فيها الجمهور بقضية ما، ويصبح واعياً بوجودها وبمعناها، ولقد تعمد يانكلوفيتش أن يسمي هذه المرحلة «زيادة الوعي»؛ لأنها أكثر دقة من «خلق وعي أكبر»، وزيادة الوعي تعني أكثر من مجرد الوعي؛ فالإنسان يمكن أن يكون واعياً بقضية ما من دون أن يحس أنها مهمة، أو أن هناك شيئًا ما يجب أن نفعله إزاءها.

- **شق الطريق**: عندما تتم مرحلة زيادة الوعي فإن على الفرد مواجهة الحاجة إلى التغيير، والتغيير قد يكون بسيطاً أو كبيراً، ويكون دور الوسائط الإعلامية مهماً في هذه المرحلة، فإذا ما


براعة اختيار الصورة لصناعة الرغبات

قدمت هذه الوسائط/ الوسائل حلاً موثوقًا به، أو مجموعة من الخيارات، فإن المسرح يكون معداً «لإلهاء» الجمهور!.

- **التصميم**: ويأتي نتيجة لنجاح زيادة الوعي والمضي قدماً في مرحلة «شق الطريق»، قبل الانتهاء إلى تكوين أحكام أو قرارات ثابتة ومتماسكة ومسؤولة حول القضايا التي تتمحور فيها وحولها عمليات الإلهاء!!.

سطوة الإلهاء

وفي سياق مراحل عملية إلهاء الجماهير الآنفة الذكر، نورد هنا مثالاً وصورةً شديدة التكامل لظاهرة الإلهاء بحيث تحمل إفصاحاً حقيقياً يحمل دلائل وإيحاءات شديدة الوضوح عن هذه الظاهرة، وبحيث يلحظ كل من يدقق في تفاصيلها: كيف تحولت الحياة في المجتمع المعاصر «مجتمع الحداثة ومابعدها» إلى ظاهر كثيف من الصور والسلع والأشياء، فتصبح الصور العاكسة للواقع بديلاً من الواقع نفسه، يتم استنساخها لتكتسب حضوراً كلياً في أرجاء العالم، بينما يتم في الوقت نفسه الإلهاء عن غياب المعنى وإزاحة القيم الإنسانية لمصلحة العلاقات الاستهلاكية... كما أن الصورة المختارة تثبت - في دقة غريبة - إلى أي مدى من القوة والسطوة وصلت آليات الإلهاء وطرائقه في أوساط مجتمعاتنا المعاصرة التي لايبحث الناس فيها- حسب اعتدال عثمان - عن الصدق والكذب وراء الإعلان «أهم وسائل الإلهاء الحديثة وأشهرها»، بل ترى رغباتها معروضة مصورة، فتقبل على شراء الأوهام، ومن الطبيعي في هذه الحالة أن يتصرف الجميع وفقًا لعقد غير مكتوب، يتولى طرفه الأول صناعة الرغبات، بينما يؤدي الطرف الثاني دوره بالتحول إلى آلات راغبة، تحركها الصور المختارة بذكاء لا يقل عن براعة العبارات «والأجواء» المصاحبة وقدرتها على الاستهواء والتحريض .. ومن الطبيعي أيضاً أن تمزج الصور والألاعيب اللغوية شيئًا من القيمة الاستعمالية الحقيقية للسلعة بأنماط المتعة والتسلية، واستخدام رموز التفوق والنجاح والجمال كمشهيات إضافية جاذبة للمستهلكين. وهكذا يقبل الناس على اختيار أشياء مختارة سلفًا، توهمهم بالحرية، وتأسرهم في الوقت نفسه بنوع من «العبودية» المختارة للسلع والأشياء التي تحيط بهم من كل جانب أينما توجهوا بأبصارهم، فيصبح عالمهم الوحيد عالمًا من الأوهام.

الثورة الخضراء!

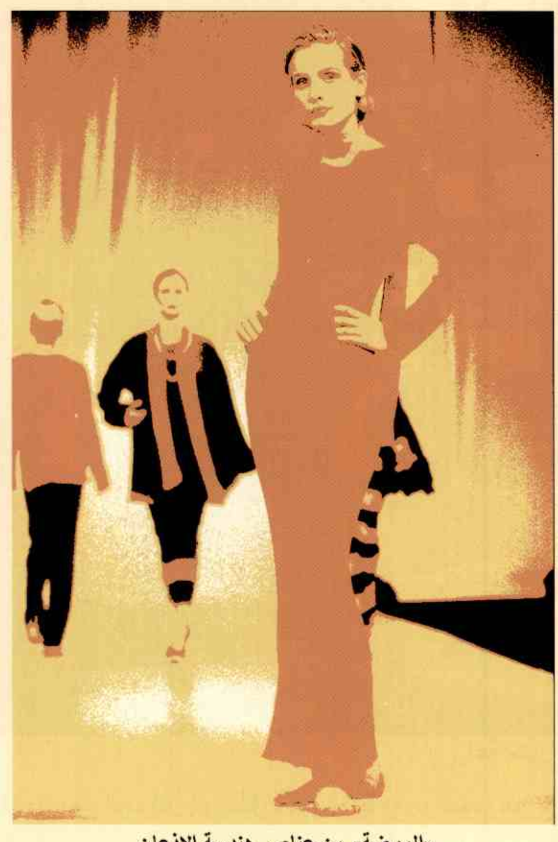
والصورة المختارة يرويها واحدٌ من أساطين الإلهاء في الربع الثاني من القرن العشرين، وهو خبير العلاقات العامة والإعلان الأميركي إدوارد ل بيرنيز Edward L. Bernays، وقد نقلها لنا المؤرخ الأميركي كافين رايلي Kevin Reilly في كتابه «الغرب والعالم» على النحو الآتي:

« يشرح بيرنيز في مذكراته «المنشورة عام ١٩٦٥م» كيف ساعد جورج واشنطن هلّ، بشركة الدخان الأمريكية، على حث النساء على الجهر بالتدْخين، وبناء على مشورة محلل نفساني كان يرى، أن النساء يتصورن أن اللفافات «السجائر» تمثل «مشاعل للحرية» قام بيرنيز بالإعداد لموكب تسير فيه المدخنات في عيد الفصح في نيويورك عام ١٩٢٩م، «لاحظوا أنه العام الذي بدأت فيه رياح الكساد الاقتصادي العالمي-Global De-pression بالهبوب على الولايات المتحدة»، وجعل مديرة مكتبه ترسل برقيات لثلاثين من الفتيات من علية القوم في المدينة، وهذا نصه:

«من أجل المساواة بين الجنسين، ومن أجل مناهضة تحريم آخر مفروض على بنات جنسنا قررت مع غيري من الشابات أن نوقد مشعلاً آخر للحرية، بتدخين السجائر في أثناء مسيرتنا بالشارع الخامس يوم عيد الفصح».

وقد أثار الحدث ضجة قومية، فنشرت صور النساء بالصحف في أرجاء البلاد. واستجابت النساء من نيويورك إلى سان فرانسيسكو ودخَّنّ جهاراً، وأدرك بيرنيز:«أن العادات القديمة المتأصلة يمكن القضاء عليها عن طريق إصدار نداء مثير، تنشره شبكة من وسائل الإعلام» وهكذا تمت مرحلة «زيادة الوعي» بنجاح، سنلحظ فيما يأتي كيف تمت المرحلتان الباقيتان، أي «شق الطريق» و«التصميم».

لكن هذا لم يكن إلا البداية لشركة جورج واشنطن هل، شركة الدخان الأمريكية. فالنساء لم يدخّنّ «السيجارة» التي تنتجها الشركة، سيجارة اللكي سترايك؛ لأن غلاف العلبة الخضراء الذي رسمت عليه عين الثور الحمراء يتنافر مع ألوان ملابسهن. ولذا دعا هلّ بيرنيز إلى مكتبه في ربيع عام ١٩٣٤م، ليسأله عما يمكن عمله، فاقترح الأخير تغيير الغلاف إلى لون أكثر حياداً، فرفض هلّ بكل شدة: فهو لم ينفق ملايين الدولارات في الإعلان على غلاف ليغيره بعد ذلك، فاقترح بيرنيز : إذن غير لون



«الموضة» من عناصر هندسة الإذعان

الموضة إلى الأخضر، وكانت مثل هذه الفكرة هي التي تلقى قبولاً لدى جورج واشنطن هلّ، فاعتمد مبلغ ٢٥ ألف دولار:

«وكان هذا بالنسبة الي هو بداية ستة أشهر من النشاط الرائع والمثير أعني أن أجعل الأخضر لون الموضة. وكنت قبل بضع سنوات قد سألت ألفرد ديفيز من الرابطة الأمريكية لمنتجي السيارات عن الطريقة التي خلق بها سوقًا في إنجلترا للسيارات الأمريكية على ضيق طرقها وتعرجها.

فأجابني: «لم أعمل على بيع السيارات، بل قمت بحملة في سبيل إيجاد طرق أوسع، وأكثر استقامة، وتلا ذلك بيع السيارات الأمريكية».

وكان هذا تطبيقًا للمبدأ العام الذي أطلقت عليه فيما بعد اسم هندسة الإذعان أو الموافقة، فكما يفعل المهندس المعماري، أعددت تصميمًا شاملاً، ومخططًا إجرائيًا كاملاً، وحددت أهدافه التفصيلية، ونوع البحث والإستراتيجية. والموضوعات والتوقيت اللازم للأنشطة المخططة».

«إذن فبعد الدفقة الأولى من مرحلة «زيادة الوعي» الخاصة بدفع النساء إلى التدخين، جاءت الدفقة الثانية من المرحلة نفسها لتقضي إشهارَ اللون الأخضر وتثويره كلون جديد للموضة، وكل هذا امتزج ضمن مرحلتي «شق الطريق» والتصميم ... فتأمَّل!»

ويالها من أنشطة! لقد أعدّت دراسات نفسية «سيكولوجية» عن تداعيات اللون الأخضر، وقام مشجع مجهول بإرسال المبلغ المرصود في الميزانية كله. قدره ٢٥٠٠٠ دولار لمنظم أهم حفل راقص للمجتمع الراقي آنذاك، وكان حفلاً أخضر، وتم تشجيع أحد منتجي الحرير على «الرهان على اللون الأخضر»، فأقام مأدبة لمحرري الموضة، كانت قائمة الطعام فيها خضراء، وكل الطعام أخضر، وقام أحد علماء النفس فحدثهم عن اللون الأخضر ثم حاضرهم رئيس قسم الفن بكلية هنتر عن اللون الأخضر، في «أعمال أعلام الفنانين»:

«وقد دهشت لسرعة إقبال العلماء والأكاديميين وأهل الخبرة على المشاركة في هذه الأمور. وعلمت أنهم رحبوا بهذه الفرصة السانحة لبحث موضوعهم الأثير، وتمتعوا بالدعاية الناجمة عن ذلك، فإن فعاليتهم، في عصر وسائل الاتصال، كثيراً ماتعتمد على ظهورهم على الملأ».

ولما بشرت الصحف «بخريف أخضر» و«شتاء أخضر» أنشئ مكتب «لموضة» اللون «قام بتنبيه العاملين في حقل الموضة على أن اللون الأخضر هو سيد الألوان»؛ وفي القطع الكمالية «الإكسسوارات» وحتى في تزيين المنازل من الداخل وأرسلت ١٥٠٠رسالة إلى مصممي «الديكور» وتجار الأثاث تدور حول سيادة اللون الأخضر، وذلك حتى يضمنوا انضمامهم إلى الاتجاه الجديد، وتم إغراء رئيس حفلة «الموضة» الخضراء بالسفر إلى فرنسا ليضمن تعاون صناعة الموضة الفرنسية والحكومة الفرنسية التي تعاونت اعترافاً منها بالقوة الشرائية للمرأة الأمريكية.

وتكونت لجنة ضيافة لفريق الموضة الخضراء ضمّت بعض ألمع الأسماء في المجتمع الأمريكي، كالسيدة حرم جيمس روزفلت، والسيدة حرم ولتر كريزلر، والسيدة حرم أرفينج برلين، والسيدة حرم أفريل هاريمان. وأقامت اللجنة سلسلة من حفلات العشاء دعت إليها ممثلي صناعات القطع الكمالية لتشجيعهم على توفير القطع الكمالية الخضراء التي تتمشى مع الأزياء الخضراء الواردة من باريس.

فلما اشتدت الحملة ركب سائر المنتجين الموجة، فأعلن أحدهم عن طلاء أظافر جديد أخضر زمردي، وأدخل آخر الجوارب الخضراء، وبدأ ظهور المعروضات الخضراء في الواجهات في فيلا دلفيا أول الأمر، وأخيراً في سبتمبر/أيلول ظهرت في محل أولتمان بالشارع الخامس في نيويورك، وهو الشارع نفسه الذي انطلقت إليه مسيرة النساء المدخنات في عيد الفصح عام ١٩٢٩م !!. وقامت مجلتا فوج وهاربرز بازار بتقديم الموضة الخضراء على أغلفتها. وأخيراً انضمَّت المعارض البريئة إلى الحملة فعرضت سجاير كامل Camel فتاة ترتدي زياً أخضر مقلّماً بالأحمر- وهي ألوان سجائر لكي سترايك نفسها.

وهكذا اعترف المنافسون ذاتهم بأن لكي سترايك هي قمة الموضة !! وهكذا أعلن مارد «الإلهاء» عن سطوته، في زمن التلهية والغباء، وسجل التاريخ حماقاتنا المعاصرة بكل الألوان الممكنة .. ومنها الأخضر بالطبع !!.

الهوامش والمراجع

- المصدر : إلْهَاء....

«لهَا» لَهْوًا لَعِبَ كالتَّلَهِّي وألْهاه ذلكَ. والمَلاهِيْ آلاتُهُ وتَلاهَى بذاك والأُلْهُوَّةُ والأُلْهِيَّةُ والتَّلْهِيَةُ مايَتَلاهَى به. ولَهَتِ المَرأةُ إلى حَدِيْثِه لَهْوًا ولُهُوًّا: أنِسَتْ به وأعْجَبَها، واللَّهوَةَ واللُّهْوَةَ: المَرْأةَ المَلْهُوُّ بها.

- الغرب والعالم - تاريخ الحضارة من خلال موضوعات - القسم الثاني - كافين رايلي - ترجمة: د. عبدالوهاب محمد المسيري، ود. هدى عبدالسميع حجازي، سلسلة عالم المعرفة، العدد ٩٧. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، يناير/كانون الثاني ١٩٨٦م».
- المتلاعبون بالعقول - هربرت أ. شيللر- ترجمة: عبدالسلام رضوان سلسلة عالم المعرفة، العدد ٢٤٣، «الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الإصدار الثاني، مارس/آذار ١٩٩٩م».
- الإلهاء وتوابعه - اعتدال عثمان - في مجلة «سطور»، العدد ٤٤، يوليو/ تموز ٢٠٠٠م، القاهرة.
- إلهاء الرأي العام - منتصر حمادة - في مجلة «سطور»، العدد ٤٤، يوليو/ تموز ٢٠٠٠م، القاهرة.
- الديمقراطية .. وقرار الجماهير- دانييل يانكلوفيتش - القاهرة: الجمعية المصرية لنشر المعرفة و الثقافة العالمية، الطبعة العربية الأولى،١٩٩٣م.
- غواية الصورة: فلسفة التضليل الإعلاني - محمد سيف حيدر النقيد - غواية الصورة: فلسفة التضليل الإعلاني» الفيصل ، العدد ٣٠٠.
- المعجم الفيصل - معجم لغة عربية أواخر- أحمد قَبِّشْ - «دمشق: دار الحكمة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٨٥.
- تصنيع الواقع - إبراهيم فتحي - في مجلة «سطور»، العدد ٢٥، ديسمبر/ كانون الأول ١٩٩٨، القاهرة.

ثقافة الترجمة في الولايات المتحدة الأمريكية

لورنس فينوتي

ترجمة: **وليد بليهش العمري**

المدينة المنورة - السعودية

أدّت الترجمة، ومازالت تؤدي دورًا مهمًا في تأسيس الولايات المتحدة الأمريكية وتطورها، وذلك بسبب التنوع الثقافي واللغوي الكبير في هذه الدولة التي يقطنها أكثر من ٢٥٥ مليون نسمة، ومع أن الإنجليزية هي اللغة السائدة إلا أنها واحدة من عدة لغات يتم التخاطب بها يوميا في الولايات المتحدة.

وكان أول ما عرفت لغة القبائل الهندية الأصلية في القرن السادس عشر الميلادي من قبل المكتشفين الفرنسيين والإسبان في المناطق التي يطلق عليها اليوم فلوريدا ولويزيانا؛ إذ بدأت الرحلات الاستكشافية الإنجليزية في فرجينيا وماساتشوستس بشكل مكثف خلال العقود المبكرة من القرن السابع عشر الميلادي، وتطلبت هذه الرحلات معرفة على قدر ما باللغات الهندية مما ساعد على زيادة النفوذ الثقافي والاقتصادي للمستعمرين القادمين من إنجلترا .

وأحدث الحس القومي العالي الذي عززته الثورة وعياً جديداً بالذات، وكوّن بيئة خصبة لترجمة آداب من لغات أجنبية من أجل دفع عجلة التطوير في الثقافة الأمريكية. والموجات الكبيرة من المهاجرين الأوروبيين التي بدأت في منتصف القرن التاسع عشر خلقت حاجة ملحة إلى الترجمة الفورية والتحريرية إلى اللغة الإنجليزية ولا تزال منذ ذلك الوقت مع توسع دائرة جنسيات المهاجرين لتشمل مجموعات عرقية وجنسيات متعددة من أمريكا اللاتينية، وآسيا، والشرق الأوسط وجزر الكاريبي. واليوم يتحدث أكثر من ٣١ مليون شخص لغات خلاف الإنجليزية في منازلهم يؤكدون بذلك أن الترجمة حقيقة يومية يعيشها كثير من الأمريكيين.

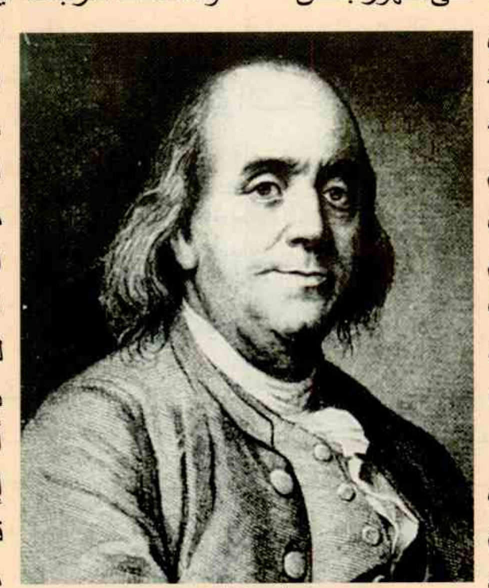
وعبر التاريخ الأمريكي كانت الترجمة سلاحًا ذا حدين في وظائفها وأبعادها الاجتماعية لخدمة مصالح اللغة الإنجليزية من خلال الاتصال الانتهازي مع الثقافات واللغات الأخرى، إذ مكنت الترجمة الولايات المتحدة من النمو في حجمها وقوتها بتأديتها دورًا في الاستعمار والتشريد والاستحواذ الثقافي الأمريكي على شعوب لم تكن اللغة الإنجليزية لغتهم الأصلية، وما زالت تدعم السيطرة الثقافية والاقتصادية التي تتمتع بها الولايات المتحدة منذ الحرب العالمية الثانية. ومن ناحية أخرى ساهمت الترجمة في بلورة هوية أمريكية محددة المعالم؛ إذ إنها كانت فاعلة في تكوين إرث ثقافي وسياسي قومي في الوقت نفسه الذي عملت فيه على

تنويع الثقافة الأمريكية وأسهمت في التحديث الثقافي، التغيير الاجتماعي.

- الاستعمار والتوسع والهجرة (١٦٠٧ - ١٩٢٠م)

ائتلف في صفوف رواد الترجمة الأمريكيين الهنود الأصوليون الذين عملوا مترجمين فوريين ومستشارين للمستعمرين الإنجليز الذين كانوا يواجهون مشكلات في تأسيس كيان قادر على البقاء في البراري الأمريكية.

وصف وليام برادفورد، أحد أوائل عمداء مستعمرة ماساتشوستس باي، هندياً من قبيلة ماين يدعى ساموست بأنه تعلم اللغة الإنجليزية على ظهور بعض السفن الإنجليزية. وعلى الرغم من أن ساموست تحدث «لغة إنجليزية مكسرة»، فقد لاحظ برادفورد «أنه اصبح ذا قيمة كبيرة لهم لتعريفهم بعدة أمور تخص البلاد». وأحس برادفورد أن سكوانتو، وهو مترجم فوري هندي آخر، كان يتحدث الإنجليزية أفضل منه؛ لأنه كان قد خُطف من قبل قبطان إنجليزي، ودُرّب على يدي تاجر في لندن.

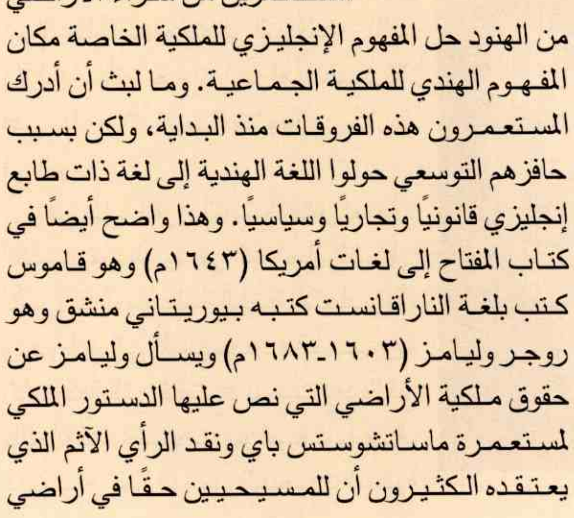


بنجامين فرانكلين

وكان سكوانتو بالنسبة إلى الحجاج الذين رسوا في بليموث عام ١٦٢٠م عاملاً أساسياً في بقائهم على قيد الحياة؛ فقد علمهم كيف يزرعون الذرة، وأين يصطادون الأسماك، وقام بالإضافة إلى هذا بالتفاوض في معاهدة سلام بين المستعمرين وهنود قبيلة وامبانواغ التي أقروا بموجبها الدفاع بعضهم عن بعض في وجه القبائل الغازية.

وعلى الرغم من أن هذه العلاقات استفاد منها كلّ من الهنود والمستعمرين إلا أنها كادت تكون متساوية بين الطرفين، وأصبحت الترجمة بعد مدة قصيرة ممارسة سعى بها الإنجليز إلى تغيير ثقافة هندية حكموا عليها بأنها أقل قيمة من ثقافتهم؛ لأنها كانت ثقافة وثنية. ويؤكد الدستور الملكي الذي أرسل إلى شركة ماساتشوستس باي عام ١٦٢٩م أن «الغاية القصوى لهذه المستعمرة الفوز بسكان البلاد الأصليين، و تعليمهم طاعة الإله الحقيقي الأوحد، ومنقذ البشرية، وتعليمهم الديانة المسيحية». ولهذا كان من ضمن أوائل المترجمين الأمريكيين قساوسة بيوريتانيون تعلموا اللغة الهندية لدعوة السكان الأصليين، وبمساعدة متعاونين هنود تمكن القسيس جون إيليوت (١٦٠٤ - ١٦٩٠م) من كتابة كتابه «مقدمة في اللغة الهندية» عام ١٦٣٥م، ومن ثم ترجمة الإنجيل إلى عدة لهجات هندية.

سار التحول يداً بيد مع الاكتساح العسكري، وساهمت الترجمة أيضاً في وضع اليد على الأراضي الهندية وهنا جسر المترجمون الفوريون والتحريريون على مساحات اختلافات ثقافية واسعة اشتملت عليها اللغتان المترجم منها وإليها، فمثلاً معظم أسماء الأماكن في لغة قبائل الألكونقونين كانت ذات علاقة ليس بالملكية ولكن بالاستخدام، بينما خلقت إنجليزية المستعمرين أسماء عشوائية للأماكن استدعت إلى الذهن مدنا في البلاد التي قدموا منها أو سمت المكان باسم مالكه، وفي الترجمة التي مكنت المستعمرين من شراء الأراضي من الهنود حل المفهوم الإنجليزي للملكية الخاصة مكان المفهوم الهندي للملكية الجماعية. وما لبث أن أدرك المستعمرون هذه الفروقات منذ البداية، ولكن بسبب حافزهم التوسعي حولوا اللغة الهندية إلى لغة ذات طابع إنجليزي قانونياً وتجارياً وسياسياً. وهذا واضح أيضاً في كتاب المفتاح إلى لغات أمريكا (١٦٤٣م) وهو قاموس كتب بلغة النار اقانست كتبه بيوريتاني منشق وهو روجر وليامز (١٦٠٣-١٦٨٣م) ويسأل وليامز عن حقوق ملكية الأراضي التي نص عليها الدستور الملكي لمستعمرة ماساتشوستس باي ونقد الرأي الآثم الذي يعتقده الكثيرون أن للمسيحيين حقاً في أراضي



«الكفار». وعلى الرغم من ذلك فإن كتابه هدف إلى ترجمة مفردات وتعابير لغة الناراقانست إلى مرادفاتها الإنجليزية لمساعدة المستعمر على السفر والتخاطب والتجارة وما إلى ذلك.

وخلال القرن الثامن عشر استمرت الترجمة في تأدية دورها بوصفها ممارسة ثقافية بالغة الأهمية في إخضاع الهنود لمصالح المستعمرين. وعمل كونراد وايزر (١٦٩٦ - ١٧٦٠م)، وهو ابن مهاجر ألماني عاش مع أفراد قبيلة الموهاوكس، خمسة عشر عاماً مترجماً فورياً رسمياً في بنسلفينيا، وقام بتنظيم المؤتمرات التي تم فيها نقل ملكية الأراضي الهندية إلى الحكومة الإقليمية، وتوسعت بها التجارة الهندية لتصل إلى نهر المسيسبي. ومن مترجمي تلك الفترة سايمن قرتي (١٧٤١ - ١٨١٨م) وهو ابن مهاجر إيرلندي اختطف صغيراً، وتبنته قبيلة السينيكاز، وتعلم عدة لغات هندية سخرها في خدمة البريطانيين خلال حرب التمرد. ولمدة زادت على ٤٠ عاماً ترجم قرتي للقادة العسكريين البريطانيين، ومكنهم من تجنيد قبائل هندية في الهجمات على المستوطنات الهندية في بنسلفينيا، وأوهايو، وكنتاكي، وترويت مما أكسبه سمعة على أنه خارج عن القانون و«سفاح أبيض». ودفع لقرتي أموال طائلة لخدماته في الترجمة؛ وذلك - ولاشك - لأنها خدمت أغراضاً عسكرية. ففي عام ١٧٧٨م تم استئجاره بدولارين في اليوم.

وفي بداية القرن التاسع عشر تم تعليم الكثير من الهنود في الساحل الشرقي لأمريكا الشمالية اللغة الإنجليزية، وتحويلهم إلى المسيحية. فالجمهورية الأمريكية التي كانت قد أسست حديثاً في ذلك الوقت انتهجت سياسة توسعية، فالأرباح المتزايدة من التجارة الهندية والهدف السياسي الساعي إلى منع المستعمرين الفرنسيين والإسبان من وضع أقدامهم بشكل متزايد في القارة حفزا إعادة رسم الحدود الغربية للبلاد، وخلقا حاجة جديدة إلى مترجمين فوريين للتعامل مع اللغات الهندية الأقل حضوراً. وفي عام ١٨٠٣ كلف ثوماس جفرسون، الرئيس الثاني للولايات المتحدة، ميريوذر لويس، ووليام كلارك باستكشاف المنطقة الممتدة من نهر المسيسبي حتى المحيط الهادي في محاولة للوصول إلى الممرات المائية المباشرة، والأكثر عملية للأغراض التجارية. واعتمد لويس وكلارك كثيراً على المترجمين الفوريين بوصفهم أدلاء في البراري، ولإلقاء خطب أكدت استقلالية البلاد الجديدة وسيادتها ومبدأي التعايش والاتجار بين القبائل. وكان من ضمن هؤلاء المترجمين الفوريين تجار غرباء وهنود المناطق الغربية. وتذكر مذكرات لويس وكلارك في غير موضع تويسانت تشاربينو (١٧٩٥ - ١٨٤٣م تقريباً)، وهو كندي كان يعمل لدى شركة الشمال الغربي، وزوجته ساكاجاوي (١٧٨٠ - ١٨١٢م تقريباً)، وهي فتاة سبية من قبيلة شوسون فاز بها تشاربينو في لعبة قمار، وأصبح تشاربينو فيما بعد المترجم الفوري الرسمي للمكتب الأمريكي للشؤون الهندية في منطقة ميسوري العليا، واضطلعت هذه الشركة بالسياسة الأمريكية حيال الهنود التي ساعدت المستوطنين ومغامري العقار الذين استولوا على الأراضي على تهجير القبائل الهندية إلى محميات في غرب المسيسبي، وكان وسطاؤهم مترجمين فوريين أقنعوا الهنود أحياناً بالتلاعب، وأحياناً بالإجبار على الدخول في اتفاقيات انتقلت بها الأراضي الى ملكية الولايات المتحدة. وبحلول عام ١٨٥٠م حققت السياسة الأمريكية نجاحاً باهراً بمساعدة البراعة

خدمت الترجمة الفورية والتحريرية المصالح السياسية والاقتصادية الأمريكية خلال العقود المتعددة الماضية، ومكنت الولايات المتحدة من إحراز مكانتها على الصعيد العالمي، والمحافظة عليها



بوريس باسترناك

اللغوية لهؤلاء المترجمين الفوريين، وكان لورنس تاليافيرو (١٧٩٤-١٨٧١م) وسيطًا في منطقة سينت بيترز في ولاية مينيسوتا يتحدث أكثر من ١٢ لغة هندية.

أدى تهجير الهنود ونزع أراضيهم إلى صدامات حتمية بين القبائل الهندية بعضها مع بعض، وبينها وبين الولايات المتحدة الأمريكية، وفي خضم هذه الصراعات مكنت المهارات اللغوية للمترجمين من العمل وسطاء، وأحيانًا محامين للهنود، واستدعي تاليافيرو في إحدى المرات للتدخل في صراع طالت مدته بين قبيلتي السو المحالفة للبيض والتشيبيوا، ولكن انحيازه إلى التشيبيوا أدى إلى اعتراض التجار البيض على وساطته خاصة من قبل تجار شركة ألفرو الأمريكية الذين سعوا إلى فصله من الوكالة. وساعدت سارا وينيميوكا (١٨٤٤ ـ ١٨٩١م)، وهي من قبيلة بايوتي، وتعلمت اللغة الإنجليزية عندما عملت في منزل ضابط أمريكي، على المفاوضات بين القبائل المتناحرة، وأصبحت فيما بعد مترجمة فورية لمحمية مالهيور في أوريتون تتقاضى ٤٠ دولارًا شهريًا، إضافة الى السكن. ولكن أبلغ ترجماتها الفورية أثرًا كانت تلك التي ألقتها خلال العقد الثامن من عام (١٨٨٠م) في المدن الشرقية والتي نقلت فيها إجحافات الحكومة في حق شعبها، وجمعت فيها التبرعات لإنشاء مدرسة هندية في نيفادا.

وبينما كان يتم تدجين القبائل الهندية وترويضها في المحميات دخلت أعداد متزايدة من الأوربيين إلى الولايات المتحدة مما جعل ترجمة اللغة الإنجليزية الفورية والتحريرية على قدر كبير من الأهمية لتسهيل احتواء هؤلاء في المجتمع الأمريكي. وبين عامي

سعى الإنجليز من خلال الترجمة إلى تغيير ثقافة هندية حكموا عليها بأنها أقل قيمة من ثقافتهم؛ لأنها كانت ثقافة وثنية، وكانت غايتهم تعليم سكان البلاد الأصليين الديانة المسيحية



برتولد بريخت

١٨٥١ و١٩٢٠م، وهي فترة بلغت فيها الهجرة ذروتها، بلغ عدد الأجانب القادمين أكثر بكثير من ٣١ مليون شخص غالبيتهم من إيرلندا وإيطاليا وبولندا وروسيا والدول الإسكندنافية وبريطانيا. وكان يمر زهاء خمسة آلاف مهاجر يوميًا من جزيرة أليس الواقعة في مرسى نيويورك التي كانت تطبع فيها الأوراق الرسمية بتسع لغات مختلفة. وللتعامل مع أوراق هذا الزخم الهائل من المهاجرين وظفت الحكومة الأمريكية مترجمين فوريين اجتازوا اختبارات في الخدمة المدنية، ومجيدين لست لغات في المتوسط. وفي عام ١٩٠٧م، عندما كانت تعالج أوراق أكثر من ١١ألف شخص يوميًا، كان من ضمن المترجمين الفوريين فيورللو لاقارديا (١٨٨٢ ـ ١٩٤٧م) وهو ابن مهاجر إيطالي كان يعمل في الممثليات الأمريكية في أوربا، ومن ثم تم انتخابه عمدة لنيويورك، ودفع للاقارديا ١٢٠٠دولار يوميًا على خدماته في مجال الترجمة في جزيرة أليس. وبما أن أغلبية المهاجرين كانوا يعملون في مجالي الزراعة والصناعة فإن التنوع الشديد في أنواع الترجمة التي تطلبوها ومارسها المترجمون ساهم في النمو الاقتصادي الكبير الذي شهدته الولايات المتحدة خلال القرن العشرين.

ـ بناء ثقافة قومية (١٦٤٠ ـ ١٩٥٤م)

كانت الترجمة حجر أساس مكين في تشكل ثقافة أمريكية ذات طابع خاص حتى ولو ضمن التنوع اللغوي والعرقي لدولة تتكون من مجموعات ثقافية متنوعة لكل منها لهجتها وطريقة تخاطبها وقيمها ومعتقداتها الخاصة.

وكان أول كتاب كتب وطبع باللغة الإنجليزية في الولايات المتحدة هو كتاب الترانيم الكامل الذي ترجم

بأمانة إلى الإنجليزية شعراً والذي اشتهر باسم «ترانيم البحيرة»، وهو عمل مشترك قامت به مجموعة من القساوسة البيوريتانيين. وقدم الكتاب ترجمة حرفية تشبثت بأسبال الأصل العبري، وبما أن الغرض منه كان الغناء فقد صُبت الترجمة في قالب من البحر الشعبي الإنجليزي. وفي توطئة الكتاب أوضح المترجم جون قطن (١٥٨٤ ـ ١٦٥٢م) أن الترجمة الحرفية تتوافق تماماً مع المعيار الجمالي البيوريتاني القائل: «إذا لم تكن الأبيات دائماً مناسبة وأنيقة كما يرغبها البعض و يتوقعها فليعلموا أن مذبح الإله لا يحتاج إلى تلميع». ولكن القيم الدينية وراء الترجمة لم تخل من تبعاتها السياسية؛ فقد عبر كتاب «ترانيم البحيرة» عن شذوذ البيوريتانيين عن طوق السياق الديني للكنيسة الأنجليكانية، ولغة البلاط الملكي، فقد كانت الحماسة الشديدة «للغة السهلة» في حقيقته رفضاً لـ «الرخصة الشعرية»، والتصرف الكبير اللذين امتازت بهما الترجمات الشعرية لتوماس سترنهولد، وجون هوبكنز. وقد خالفه بشدة كتاب «الصلاة العامة» منذ عام ١٥٦٢م، وعبر البحر الشعبي عن التوجهات الجديدة لثقافة الأغاني الشعبية المتمردة على الأوزان المصقولة للشعر الأرستقراطي بما فيها ترجمات الترانيم التي قام بها شعراء مرموقون كالسير فيليب سدني، وتوماس كارو.

وبالإضافة الى السرعة في الاستقلال الثقافي للمستعمرات الأمريكية عن إنجلترا ساهمت الترجمة في الانفصال السياسي الصارم بتوريدها أفكاراً سياسية من الخارج. وفي هذا السياق نحت الترجمة عدة مناح مختلفة، فأعمال مفكري التنوير الفرنسيين كانت

الثقافة الأمريكية لا تزال تسبح في تيار قوي مما يمكن وصفه بالعداء للغرباء، أي الخوف من أن الترجمة التي يمارسها بشكل يومي شعب متعدد اللغات تقوّض الوحدة الوطنية



شارل بودلير

متوافرة في أمريكا في القرن الثامن عشر الميلادي، ولكن في طبعاتها الفرنسية والطبعات الإنجليزية التي صدرت في لندن وأدنبرة، وكان السياسيون المثقفون من أمثال بنجامين فرانكلين وتوماس جفرسون قادرين على قراءة هذه الأعمال باللغة الفرنسية، وانتخبوا كثيراً من أفكارها في وثائق كإعلان الاستقلال (١٧٧٥ـ ١٧٧٦م) وخلال الأزمة السياسية التي أضرمت الحرب الثورية استخدم أصحاب المطويات (المنشورات) ترجماتهم وترجمات غيرهم لنشر ثقافة التنوير، ولتأجيج الرأي العام ضد إنجلترا، ففي كتاب «حقوق المستعمرات البريطانية مؤكدة ومدلل عليها (١٧٦٤م)» أعطى جيمس أوتس نقداً ديموقراطياً للملكية البريطانية، واقتبس فيه قولبته الشخصية لكتاب «العقد الاجتماعي» لروسو.

وعند بزوغ نجم أمريكا بصفتها قوة سياسية عالمية لجأت إلى الترجمة في المشروعات القومية لتشكيل ثقافة أمريكية قادرة على التنافس مع أوروبا وربما كان أكثر هذه المشروعات طموحاً عينة من الأدب المعياري الأجنبي، وهي أنثولوجيا من الترجمات طبعت في ١٤ مجلداً حررها جورج رايبلي (١٨٠٢ ـ ١٨٨٠م)، ويتكون المجلدان الأول والثاني من ترجمات رايبلي نفسه لعدة فلاسفة فرنسيين أمثال بنجامين كونستانت، وثيودور جيوفوري، وفيكتور كوزن، وفي المجلدات الأخرى اعتمد على مهارات الترجمة لأصحاب المذهب الاستعلائي من نيوانجلاند، أمثال: مارجريت فولر (١٨١٠ ـ ١٨٥٠م)، وجون سوليفان دوايت (١٨١٣ ـ ١٨٩٣م) الذين ألهمهم الأدبان

الفرنسي والإنجليزي وألهموا بدورهم آخرين، من أبرزهم الفيلسوف ذو الطابع الأمريكي جداً رالف والدو أمرسون.

أحس رايبلي أن الترجمة قد تسهم في خلق ثقافة قومية تحترم المبادئ الديموقراطية، فكان يقول: «إن أفضل الإنتاج الأجنبي العبقري وأبحاثه لا يجب أن تقتصر على الأقلية الملمة باللغة الأجنبية بل يجب أن تنتشر بين القراء المتنورين من جميع الطبقات والأحوال الاجتماعية». ومع ذلك فإن الأسس التي بنى عليها رايبلي اختياره للنصوص الأجنبية كانت متوافقة مع القيم الثقافية للأقلية الثقافية النخبوية التي تكونت منها طبقة قرائه الأساسية ومترجميه المعتادين! لقد كان هناك بالفعل جمهور كبير للترجمة خلال عقود القرن التاسع عشر ولكن ذوق هذا الجمهور فضل القصص والرومانسية على الشعر والفلسفة.

وليام دونلاب (١٧٦٦- ١٨٣٩م)، وهو كاتب مسرحي، ومدير مسرح من نيويورك، لم تستطع أعماله أن تحقق نجاحاً كبيراً في شباك التذاكر، نجح عند تحويله إلى مسرحيات عدداً من ترجمات الدراما العاطفية للألماني أوقست فان كوتزيبو. وهنري وليام هيربرت (١٨٠٧ - ١٨٥٨م)، و هو ابن مهاجر إنجليزي كان ينشر كتابات في القصص والتاريخ والرياضة، وصل الى شريحة أكبر من القراء عندما قام بترجمة عدد من الروايات العاطفية الفرنسية تضمنت ستاً من كتابات يوجين سوج. وخلال الأربعينيات من القرن التاسع عشر كان هربرت يتقاضى ٣ آلاف دولار في السنة.

وأنماط الترجمة لا تشير فقط إلى التنوع الذي هو أساس الفكر الثقافي القومي الأمريكي، ولكن أيضاً إلى اعتماد النمو الثقافي الأمريكي على اتصاله بالآداب الأجنبية. وحتى عندما ترجم الشعراء الأمريكيون المرموقون عيون الأدب الغربي عكست إستراتيجياتهم في الترجمة نظريات الترجمة التي ظهرت أولاً في التقليد الثقافي الأجنبي. وكتب وليام كولن براينت (١٧٩٤- ١٨٧٨م)، الذي أدت محاولاته الشعرية الأولى الى إحرازه سمعة قومية، نسخة من الإلياذة اتبعت وصفات ترجمة هومر التي وضعها الناقد البريطاني ماثيو آرنولد قبل نحو عشر سنوات. وأراد براينت أن ينقل بدقة متناهية تلك المميزات في شعر هومر التي عرّفها آرنولد بأنها القراءة العلمية الغالبة للنصوص الإغريقية، وهي تمتاز بالدقة والسلاسة والفخامة، وكانت النتيجة ترجمات شديدة التوطين اتبعت استخدامات اللغة الإنجليزية السائدة في تلك الفترة، وهي تحاشي التراكيب اللغوية والتعابير القديمة، ووظفت الأسماء اللاتينية لآلهة الإغريق إلا أنها، كما يقول برانبت، «تم استيعابها في لغتنا منذ زمن». والأصول الأجنبية لإستراتيجية براينت في الترجمة يمكن الوقوف عليها حتى في اختياره للبحر الشعري، فقد اختار الشعر المرسل مثل الشاعر البريطاني وليام كوبر، وهي «أداة بعض من أروع الشعر في لغتنا» ولكن براينت بخلاف كوبر كان واضعاً نصب عينيه شكسبير أكثر من ملتون.

بايارد تايلور (١٨٢٥- ١٨٧٨م)، وهو صحفي و كاتب رحلات أكسبه شعره ثناء معاصريه، ولكنه طواه النسيان فيما بعد، ترجم نسخة من رواية فاوست لقوته

ساهمت الترجمة في بلورة هوية أمريكية محددة المعالم؛ لأنها كانت فاعلة في تكوين إرث ثقافي وسياسي قومي في الوقت نفسه الذي عملت فيه على تنويع الثقافة الأمريكية، وأسهمت في التحديث الثقافي، والتغيير الاجتماعي

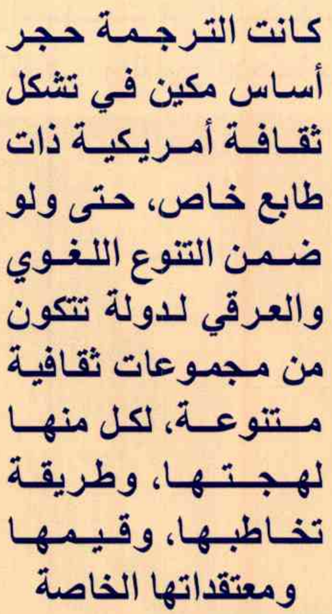


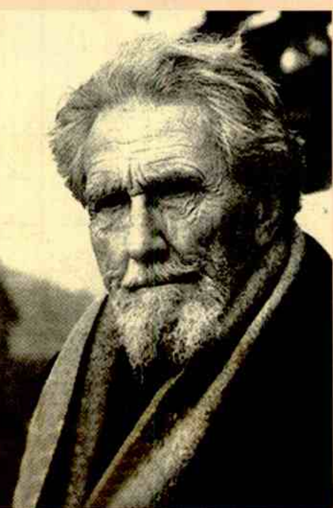
ديستويفسكي

تأثرت بتقليد الترجمة الألماني، واتباعاً لنظرة قوته أنه «في أفضل الترجمات يلصق المترجم نفسه بالأصل»، أنتج تايلور ترجمة شبه حرفية في البحر الأصلي. وكما أحس قوته أن «ذوق العامة يجب أن يشكل ليقبل الترجمة الحرفية» رأى تايلور أن في ترجمته تحدياً للقارئ الأمريكي الذي يقول عنه: إن «توجهاته الثقافية كانت دائما تميل إلى المحافظة» مما يجعلهم «لا يميلون إلى البحور الجديدة، وأساليب التعبير التي لم يعتادوها». وإستراتيجية تايلور في الترجمة المستوحاة من الألمان عملت بلا شك على استحداث تغيير باقي الأثر في الذوق الأدبي الأمريكي على أقل تقدير فيما يخص أعمال قوته، واستمر طبع نسخته حتى عام ١٩٥٠م عندما نشرتها دار النشر التجارية راندوم هاوس في السلسلة المحققة من الأعمال الكلاسيكية المسماة المكتبة الحديثة.

ومع ظهور الحداثة دخلت ثقافة الترجمة الأمريكية مرحلة من الإبداع المبهر ركزت في ترجمة الشعر، وأهم من أثروا هذا التطور كان إزرا باوند (١٨٨٥-١٩٧٢م).

رأى باوند في الترجمة وسيلة لتعزيز القيم الحداثية للشعر شريطة أن يختار المترجم أشعاراً أجنبية معينة تؤكد هذه القيم. وأعماله الأكثر إبهاراً هي: المرثية الأنجلوسكسونية البحار The Seafarer (١٩١٢م) وشاعر القرن الثالث عشر الإيطالي قوديو كافلانتي (١٩١٢، ١٩٣٢م) والشاعر لي بو (١٩١٥م) وشاعر الغزل أرناوت دانيال (١٩٢٠م). ووظف باوند عدداً من اللهجات وأساليب الخطاب لتطويع النصوص الأجنبية للأنماط الكتابية الثقافية السائدة، وهي أنماط النطق والسجع الأنجلوسكسونية




إيزراء باوند

وإنجليزية ما قبل عهد الملكة اليزابيث، ومذهب ما قبل الرفائيلية والدقة الحداثية، واللهجة الأمريكية الدارجة، وتعتمد هذه الإستراتيجية على عملية توطين واضحة ولكن الأثر النهائي كان تغريبياً، أي أن الترجمة الناتجة أظهرت التباين الثقافي والتاريخي للنصوص الأجنبية؛ لأن أنماط اللغة الإنجليزية التي وظفها باوند كانت متنوعة بشكل كبير وانتزعت من فترات مختلفة من الثقافتين البريطانية والإنجليزية.

وبعد باوند أعدّ المترجمون الأمريكيون ترجماتهم أعمالاً ثقافية مستقلة، ولكن القلة القليلة منهم كانت راغبة في إعادة تجاربها الجريئة بإستراتيجيات الترجمة. وبحلول منتصف القرن العشرين كانت ترجمة الشعر والنثر الأمريكية حديثة أكثر منها حداثية، فقد تملصت من نزعة باوند التجريبية و تبنت التجانس اللغوي الذي نتج منه أثر سرابي بالشفافية لا تبدو فيه الترجمة ترجمة، ولكنها تبدو أصلاً أجنبياً، ولكن الشفافية الحقيقية تخفي توطيناً مؤطراً يكتب فيه النص الأجنبي وفقا للقيم الثقافية السائدة في أمريكا ذلك الوقت، ولذلك اعترف ددلي فتس (١٩٠٣-١٩٦٨م)، الذي اشتهر بكونه رائداً مختصاً بترجمة الشعر والمسرحية الإغريقية القديمة، أن ترجماته الحديثة من القصائد الإغريقية «خاطرت بخلق انطباع كاذب من الوحدانية بكتابة الرب بدلا من زيوس» (سيد آلهة الإغريق) (المترجم).

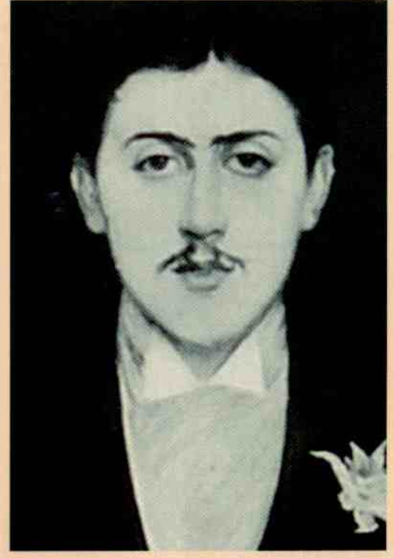
- السيطرة العالمية الأمريكية منذ الحرب العالمية الثانية

خدمت الترجمة الفورية والتحريرية المصالح السياسية و الاقتصادية الأمريكية خلال العقود المتعددة الماضية، ومكنت الولايات المتحدة من إحراز مكانتها على الصعيد العالمي

والمحافظة عليها، وتحتوي الخدمة الأجنبية في وزارة الخارجية منذ مدة ليست بالقصيرة على شعبة للغات لمراجعة ترجمات الوثائق الدبلوماسية، وتوفير المترجمين الفوريين في المؤتمرات العالمية، و بحلول منتصف الثمانينيات حصدت شعبة خدمة اللغات هذه ما قدره ٨ ملايين دولار لخدمات الترجمة الفورية والتحريرية التي قدمتها لعدة جهات حكومية، و في وزارة الخارجية أدت الترجمة وظائف أيديولوجية ظاهرة للعيان، فخلال الحرب الباردة أدارت وكالة المعلومات (الإعلام) الأمريكية إذاعة صوت أمريكا التي بثت بخمس وثلاثين لغة في الوقت الذي نشرت فيه مواد مطبوعة وإلكترونية ذات طبيعة دعائية.

ولجأت الشركات الأمريكية بتزايد إلى الترجمة كأداة لاختراق الأسواق العالمية، واعتمدت على الشركات المختصة بترجمة العقود التجارية وكتيبات الإرشادات والمعلومات التقنية المختصة، وبدورها نمت وتعددت هذه الشركات لتجعل من الترجمة صناعة قدرت مؤخراً بعشرة بلايين دولار أمريكي، وعلى سبيل المثال، فشركة آل لانقوجز سرفسس (خدمات جميع اللغات)، وهي شركة خاصة أسست عام ١٩٤٦م، وكان يعمل فيها وقتئذ خمسة مترجمين، توظف اليوم ٩٠ مترجماً يعملون في ٥٩ لغة. ومنذ الثمانينات من القرن الماضي استحوذ قسم الترجمة في شركة برلتز إنترناشونال المتفرعة من دار النشر ماكميلان على ست شركات ترجمة في الولايات المتحدة وأوربا وتحقق أرباحاً سنوية قدرها ٣٠ مليون دولار.

أدى تهجير الهنود، ونزع أراضيهم إلى صدامات حتمية بين القبائل الهندية بعضها مع بعض، وبينها وبين الولايات المتحدة الأمريكية، وفي خضم هذه الصراعات مكنت المهارات اللغوية للمترجمين من العمل وسطاء، وأحياناً محامين للهنود



مارسيل بروست

ولكن صناعة النشر كانت الى حد ما أقل اهتماماً بالاستثمار في الترجمة، فعلى الرغم من أن إنتاج الكتب زاد أربعة أضعاف منذ الأربعينيات من القرن الماضي إلا أن عدد الترجمات ظل في الغالب عند ٢ - ٤ ٪ من الإجمالى السنوي موازنة بالنسب العالية من الترجمات التي نشرت خارج أمريكا، ويبيع الناشرون الأمريكيون حقوق الترجمات للمزيد و المزيد من الكتب باللغة الإنجليزية بما فيها أكثر الكتب مبيعاً في العالم، ولكنهم في المقابل ينفقون مبالغ لا يمكن موازنتها بسابقتها على حقوق نشر كتب أجنبية بالإنجليزية، ونتيجة لهذا مارست الولايات المتحدة سيطرة على دول أجنبية، وهي ليست سيطرة ذات طابع اقتصادي فقط، كما هو الحال في بعض الدول، ولكنها ذات طابع ثقافي أيضاً، وربح الناشرون من نجاحهم بفرض القيم الثقافية الأمريكية على طبقة واسعة من القراء الأجانب في الوقت الذي خلقوا فيه ثقافة داخلية استحواذية ذات لغة واحدة تتقبل الأجنبي فقط عندما يتوافق مع التطلعات والتوقعات الأمريكية.

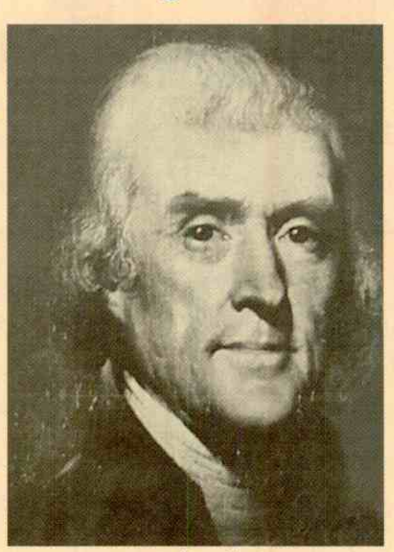
وتركت هذه التوقعات أثراً لا يمحى في ترشيح النصوص الأجنبية للترجمة. واستفاد الناشرون الأمريكيون من تشوق القراء إلى معرفة الأمم الأخرى سواء أكانوا أعداء أم حلفاء، وكذا تفاؤل القراء بأن التلاقح الثقافي سيساعد على تفاهم عالمي أفضل، وعلاقات سياسة سلمية متزايدة. ومنذ الحرب العالمية الثانية كانت أكثر اللغات ترجمة إلى الإنجليزية هي الفرنسية والألمانية والروسية والإيطالية والإسبانية. وفيما يخص الأدب الروسي

فقد خطب الناشرون ود النزعة المعادية للشيوعية عند الأمريكيين بالتركيز في الأعمال الناقدة للماركسية والحكومة السوفييتية، كرواية بوريس باسترناك «دكتور زيفاجو» ١٩٥٨م، ورواية ألكساندر سولجينيسن «يوم في حياة إيفان دينيسوفنش» ١٩٦٢م اللتين أصبحتا من أفضل الكتب المترجمة مبيعًا، وفي المقابل فترجمات النثر السوفييتي غير الانفصالي الناقد منذ خمسينيات القرن الماضي حتى سبعينياته كانت أقل مبيعاً ومتباعدة فيما بينها.

وحدثت حالات أخرى من الاحتواء والإقصاء مع الآداب الأقل ترجمة، ففي العقود التي تلت الحرب العالمية ركز الناشرون الأمريكيون في حفنة من الروائيين اليابانيين وهم جونيشيرو تانيزاكي، ويازوناكي كاباواتا، ويوكيو ميشيما. ونتيجة لهذا خلقوا صورة نمطية محددة المعالم للثقافة اليابانية: غامضة وأبوية قسرية، تحن إلى الماضي وتعبر عن توقها إلى اليابان أقل عدائية، وأكثر ارتباطاً بالموروث. والروايات التي اختيرت للترجمة نقلت بأمانة الصورة الحقيقية لليابان عندما كانت في مرحلة انتقال - قصيرة جداً إذا ما وضعت في سياقها التاريخي - من عدو مميت إبان حرب المحيط الهادي إلى حليف لا يمكن التخلي عنه خلال الحرب الباردة، وتم إرساء قانون لترجمة القصص الياباني إلى الإنجليزية، وهو قانون ليس فقط غير تمثيلي؛ إذ إنه لا يشمل الروايات الكوميدية والكادحة، إضافة إلى غيرهما من الأجناس الأدبية، ولكنه كان أيضاً ذا تأثير عميق تحكم في أذواق القراء مدة تبلغ نحو ٤٠ عاماً.

وخلافا للأغراض السياسية تبنى غالبية الناشرين الأمريكيين مشروعات ترجمات للأغراض الأدبية والتجارية. وأغلبية هذه الكتب كان لها أثر ضئيل، ولم تطبع بصمتها أصلاً على الثقافة الأمريكية، ولكن في إحدى هذه الترجمات كانت الآثار الثقافية ذات دلالة، فخلال الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي تبنى ما يسمى بالطفرة في الأدب الأمريكي اللاتيني روائيون ونقاد فضلوا نزعته التجريبية على الواقعية التي كانت مسيطرة على الأدب الأمريكي، وجلب الناشرون عدداً من الترجمات من أعمال مؤلفين، مثل الأرجنتيني جوليو كورتازار، والكولومبي غابرييل غارثيا ماركيز ليضعوا قواعد جديدة للأدب الأجنبي في اللغة الإنجليزية، وليخاطبوا مستوى أعلى من القراء الأمريكيين. واستمرت هذه النزعة لأسباب منها أن الترجمات كانت مربحة، فرواية غارثيا ماركيز «مئة عام من الوحدة، أحرزت نجاحًا لافتًا في ترجمة جورجي راباسا السلسة، فعندما ظهرت النسخة الورقية الأولى عام ١٩٧٠م ظلت متصدرة قائمة الكتب الأكثر مبيعاً في جريدة نيويورك تايمز عدة أسابيع. وفي الوقت نفسه غير المد الكبير من الكتابات الأمريكية اللاتينية من القواعد المعاصرة للأدب الأمريكي ليشجع كتّاباً مثل جون بارذز لتطوير عدة تجارب قصصية.

عند بزوغ نجم أمريكا بصفتها قوة سياسية عالمية لجأت إلى الترجمة في المشروعات القومية لتشكيل ثقافة أمريكية قادرة على التنافس مع أوربا



توماس جفرسون

مال الناشرون الأمريكيون إلى عدّ الترجمة مغامرة خطيرة دائمًا غير قابلة للخسارة، ولم يناسب هذا الوضع المترجمين الأحرار الذين كانوا يوقعون عقوداً بالأجرة تتطلب أن يتنازلوا عن أي حقوق لهم في الترجمة مقابل مبلغ محدد، وليس لهم أي حقوق في المبيعات فيما بعد. في عام ١٩٦٠م كان يتقاضى مترجم متعاقد بالأجرة

١٥دولاراً عن كل ألف كلمة إنجليزية أو نحو ١٢٠٠ دولار عن كتاب يبلغ عدد صفحاته ٣٠٠ صفحة، وفي عام ١٩٩٠م أصبح مقدار الأجور يراوح بين ٣٠٠٠ و٦٠٠٠دولار على مشروع ترجمة كتاب، وفي ظروف قلة عدد الترجمات التي تنشر في الولايات المتحدة أجبر المترجمون الأحرار على أن يتعاقدوا على عدة مشروعات كل عام ليكسبوا عيشهم، ويدعم أغلبيتهم عملهم كمترجمين بالعمل في مجالات أخرى كالتحرير والكتابة والتدريس.

ومن أبرز مترجمي هذه الفترة رالف مناحيم (١٩٠٧ ـ ١٩٩٢م) الذي شملت ترجماته من الألمانية والفرنسية أعمال فرويد، وبرتولت برخت، وهتلر، ولويس فردناند سلين، وفراس، وهاندكي. ومن أبرز مترجمي هذه الفترة أيضا هيلين آر لاين (١٩٢٢م ـ) التي قدمت ترجماتها من الفرنسية والبرتغالية والإسبانية إلى القراء الأمريكيين مجموعة واسعة من الأدب الأوربي والأمريكي اللاتيني. ومنهم أيضا رتشارد هاورد (١٩٢٩ـ) الذي ترجم لعدة شعراء وروائيين و فلاسفة ونقاد أدبيين فرنسيين، بما فيهم بودلير، وبروست، ورولاند بارذز، وروب ـ غريليت، ولم يكن هؤلاء المترجمون غزيري الإنتاج وحسب، ولكن كانوا أيضا متمكنين، وحازوا على جوائز؛ ولذلك لفتت سمعتهم المتميزة الانتباه للترجمة، وساعدت على تحسين ظروف عمل المترجمين عامة.

وعلى الرغم من ذلك لا تزال تلك الظروف تتشكل من خلال النمو الاقتصادي، فمنذ ثمانينيات القرن الماضي تغيرت صناعة النشر الأمريكية جذرياً بسبب ظهور الشركات المتعددة الجنسيات التي تبحث عن عائدات أكبر لاستثماراتها؛ ولذلك فضلت الكتب التي يرون أنها ذات حظوظ لتكون الأكثر مبيعًا على الكتب التي يصعب تسويقها، كالترجمات. فالناشرون ينجذبون أكثر من أي شيء آخر إلى النصوص الأجنبية التي حققت مبيعات كبيرة في الخارج أملاً في أن يحققوا المبيعات نفسها داخل الحدود الأمريكية، وخلافًا لذلك فهم يفضلون الاستثمار في الترجمات المرتبطة مع منتجات أخرى، وهي أعمال مقتبسة من الأفلام أو المسرح وتضمن إثارة اهتمام شريحة واسعة من القراء

نبذة من المؤلف

البروفسور لورنس فينوتي Lawrence Venuti أستاذ اللغة الإنجليزية بجامعة تمبل Temple Universityبالولايات المتحدة الأمريكية، له اهتمامات ببدايات الأدب الحديث، ونظرية الترجمة وتاريخها والترجمة الأدبية. وربما يكون أهم أعمال فينوتي كتابه الذي صدر عام ١٩٩٥ بعنوان «أفول المترجم: تاريخ للترجمة» The Translator's Invisibility: A History of Translation الذي أثار زوبعة شديدة في سماء نظرية الترجمة الحديثة، وأدى إلى ردة فعل تعد الأقوى في تاريخ النظرية الحديث بسبب سرده لتاريخ الترجمة الغربية والأمريكية خاصة، ونقده اللاذع لها؛ لكونها نتجت من ثقافة سيطرة استعلائية. ودرس فينوتي تاريخ الترجمة في الغرب في اتصالها مع الثقافات الأقل حضوراً لا يعني ذلك بالضرورة خارج النطاق الغربي بل بين الثقافات الغربية أيضًا متسلحًا بنظرية إستراتيجيات الترجمة التي قسمها الى توطين domesticating، وتغريب foreignizating. فالتوطين يعدّ الترجمة غزوًا للثقافة الأخرى، وهذا من شأنه أن يلغي أي علامات في النص يدل أنه مترجم، ويقدمه للقراء على أنه ناتج ثقافي محلي. ويرى فينوتي أن إستراتيجية التوطين خدمت على مر العصور الأجندات السياسية المحلية والإمبريالية. أما إستراتيجية التغريب فيعد فينوتي الفيلسوف الألماني شلايمخر أبًا لها، ودائمًا ما يقتبس قوله: «هناك احتمالان فقط: إما أن يترك المترجم المؤلف بسلام قدر الاستطاعة، وينقل القارئ اليه، وإما أن يترك القارئ بسلام قدر الاستطاعة، وينقل المؤلف اليه»، والتغريب يطمح إلى الاحتمال الأول. وتحلق حول فينوتي بنشره كتابه هذا أسراب من مريديه من مختلف أوساط الترجمة العالمية، بينما تكأكأ عليه شرذمة من منظري الوضع الراهن الغربيين الذين استفرغوا وسعهم لتنفيذ نظريته، و مع هذا و ذاك تبقى لكتابات فينوتي جاذبيتها لكونها ترضي النهم الفكري. والمقال الذي بين يديكم مثال على ذلك.

ورواجًا أكبر. ونجحت إستراتيجية النشر هذه مع الروايات الكلاسيكية الأجنبية التي تم اقتباسها من مسرحيات برودواي الموسيقية الاستعراضية. وبعد نجاح الملحن البريطاني أندرو لويد وبر في قولبة رواية «شبح الأوبرا» للمسرح الموسيقي هرع الناشرون الأمريكيون في النبش عن ترجمات للرواية الأصلية لقاستون ليرو (١٩١٠-) وعند عرض المسرحية في نيويورك خلال موسم عام ١٩٨٨م توفرت في السوق أربع نسخ إنجليزية في طبعات ورقية رخيصة.

والاعتبارات الاقتصادية تؤثر بالضرورة في إستراتيجيات الترجمة التي اتصفت بالتوطين منذ الأربعينيات من القرن الماضي، وقلصت إستراتيجية التوطين والشفافية التي تنتج منها دون شك فرص الاعتراف بالترجمة كممارسة ثقافية مؤثرة، كما همشت الترجمات التجريبية التي تسعى إلى توسيع نطاق المغامرات اللغوية للمترجم إلى ما هو أوسع من أساليب الإنجليزية المعتادة، وكلما كانت الترجمة جريئة عظم النقد والتجاهل.

وظهرت في التسعينيات من القرن الماضي مؤشرات تدل على أن منحى التوطين بدأ في التراجع، على الأقل بالنسبة إلى اللغات والآداب التي لها خصوصية لا تقبل التوطين، ففي ترجماتهما المبدعة لروايات ديستويفيسكي غيّر كلّ من رتشارد بيفر، ولاريسا فولوكنسكي فكرة جمهور القراء عن النصوص الروسية برفضهما تطويع ترجماتهما للغة الإنجليزية القياسية، أو الأسلوب القصصي السائد في اللغة الإنجليزية، فالترجمات الجديدة تحافظ على خصوصيات ديستويفيسكي ليستدعيا بذلك نفور الأصوات الذي يميز النصوص الروسية التي عرفها الدارسون منذ زمن. وهناك احتمال كبير أن هذا التراجع في التوطين قد يجلب احترامًا أكبر للفروق الثقافية، وانفتاحًا أمريكيًا جديدًا على اللغات والآداب الأجنبية وهذا من شأنه أن يمنح الترجمة حضورًا أكبر، ويحسن من وضع المترجم.

ولكن الثقافة الأمريكية لا تزال تسبح في تيار قوي مما يمكن وصفه بالعداء للغرباء، أي الخوف من أن الترجمة التي يمارسها بشكل يومي شعب متعدد اللغات تقوض الوحدة الوطنية، وشهدت الثمانينيات من القرن الماضي نشوء حركات سعت الى «قمع» الترجمة بنجاحها في جعل اللغة الإنجليزية اللغة الرسمية في الولايات التي يعيش فيها أعداد غفيرة من المهاجرين الجدد كأريزونا، وكاليفورنيا، وفلوريدا. ومع ذلك تظل الترجمة ذات حضور قوي في المجتمع الأمريكي المعاصر حتى لو كان الاستثمار فيها قليلاً، وعز فهمها، وشكك فيها. وربما تكون أكثر الدلائل وضوحًا على أهمية الترجمة الصرافات الآلية من المدن الأمريكية الحيوية، فستي بانك بنيويورك يقدم المعاملات البنكية بخمس لغات وهي الإسبانية واليونانية والصينية والكورية والإنجليزية.

الهوامش

بعض الألفاظ الأجنبية المترجمة خلال المقالة :

- الحداثة :Modernism: حركة ثقافية وأدبية انتعشت خلال العقود الأولى من القرن العشرين، ولا تزال، ولا يمكن إلصاق معنى واحد بهذه الحركة، ويمكن أن تطلق على شكل العمل ومضمونه أو أحدهما، وهمُ الحداثة الأول هو مساءلة الموروث، وتمتاز بنزعتها التجريبية خاصة بتحكمها بالشكل، وبتأكدها من أن المعرفة ليست مطلقة. - المترجم الحر Freelance Translator : ويطلق عليه أيضا مترجم متعاقد Contractorوالمترجم الحر، خلاف المترجم الموظف In-house Translator، لا يرتبط بالعمل في وكالة الترجمة إلا من خلال عقد تنقضي مدته بانقضاء العمل. المترجمون الأحرار عادة يعملون في منازلهم، ولحساب أكثر من جهة.
- المذهب الاستعلائي Transcendentalism: مصطلح أطلق على مذهب في الفلسفة والأدب معًا. ومضمون هذا المذهب رفض التعاليم الدينية، والإيمان بأن ضمير كل إنسان يشتمل على جزء من الروح الإلهية، وأنه كفيل بأن يكون أساسًا للأخلاق.
- مذهب ما قبل الرفائيلية Pre-Raphaelite movement : مذهب في الفن والأدب ظهر بإنجلترا عام ١٨٤٨م يرى تجنب الأسلوب السائد في التصوير والعودة إلى صفاء الأسلوب الإيطالي البدائي وبساطته اللذين كانا يميزان المصورين الإيطاليين قبل رفائيل سانزيو (١٨٤٣ - ١٥٢٠م).
- الشعر المرسل Blank verse : يطلق عامة على الشعر غير المقفى، ويراد به الشعر الإنجليزي خاصة الأبيات غير المقفاة ذات التفاعيل اليامبية الخمس (التي يكون فيها مقطع منبور وآخر غير منبور).
- البيوريتانية Puritanism: حركة نشأت في الكنيسة الإنجليزية في الجزء الأخير من القرن السادس عشر في محاولة لإيجاد أرض وسط بين الكاثوليكية وأفكار المصلحين البروتستانتيين. وفي الاستخدام الراهن البيوريتانية تساوي التشدد.

استطلاع

ملامح من النسيج الحرفي في تونس

المنجي محمد القردلي
الرياض - السعودية

إن مسألة طرح الثقافة التقليدية تقودنا بالأساس إلى معالجة إشكالية التثاقف وملابساتها سواء باستمرارية الهياكل القديمة أو بزوالها البطيء، ويبرز في هذا الطرح صراع بين الموروث والمبتكر على مستوى الإنتاج الثقافي والتواصل في مجال الحرف اليدوية والتنمية الحديثة، الثقافة والتكنولوجيا، التقليد والمتغير، القديم والحديث، أي صفة الازدواجية في العالم الإسلامي اليوم.



ولقد ظهرت منذ سنوات نزعة سوسيولوجية تحديثية على فكرة ذوبان الثقافة التقليدية وزاولها، كما تنبأت بنهاية المزارعين، ونهاية العائلة، ونهاية المعتقدات، إلا أنه على عكس ذلك نجد اليوم اتجاهاً جديداً يؤكد رجوع القداسة، وإحياء التقاليد والعادات على الرغم من أن العالم الإسلامي يتأرجح بين تلك المؤثرات المعارضة، حنين إلى الماضي، وحماسة نحو المستقبل. ويقف المرء أمام كم هائل من التحولات المتسارعة مرتبكاً بما تكوّن

لديه من شخصية مزدوجة وثقافة مضمونة. فمن جهة هناك القيم التقليدية، والموروث الثقافي الاجتماعي للحِرف التقليدية للمجتمعات الإسلامية، ومن جهة أخرى توحيد المتطلبات الاقتصادية المعاصرة لمجتمع مدني قائم على المنافسة الجديدة.

إنه صراع بين التقليد والتغيير، صراع بين الحِرف التقليدية والصناعة الحديثة. ولعل أول ما يستوقف أي باحث في مجال الصناعة التقليدية هو مسألة التعريف بحيث يجد نفسه أمام تسميات متعددة تختلف من بلد إلى آخر: الصناعات التقليدية، والصناعات الحرفية، والصناعات الخفيفة، والصناعات الشعبية، والصناعات الصغيرة، والحِرف اليدوية إلخ.. وتعدد هذه التسميات محاولة لترجمة معنى الكلمة الإنجليزية Handicraft والكلمة الفرنسية Artisanat من دون الخوض في المزيد من التعريفات التي لا يتسع المجال لها في هذا البحث.

الاحتكاك المتزايد بالثقافات الأجنبية، وآثار التوجه المتزايد نحو التصنيع والاتصالات والسفر، كلها جلبت وتجلب تغيرات في الملبس تبرز أولاً في المدن، ثم تصل في وقت لاحق إلى المناطق القروية

لمحة تاريخية عن الصناعة التقليدية

عندما جاء الإسلام، وجد العرب يحتقرون الصناعات وأهلها. فكراهية العرب، للصناعة واحتقارهم للصانع قللا من الصنّاع، وجعلا هذه الحِرف حكراً على أناس أرقاء أو مهاجرين. وكان العرب قبل الإسلام يحتقرون النجارة والحدادة حتى أنزلوا الحدادين منزلة العبيد الأرقاء، فلا يزوجونهم، ولا يتزوجون منهم، ومن ثم ابتعد أشراف العرب عن الصناعات الحرفية، وسيطر عليها الوافدون الأجانب. وقد يعود السبب إلى أن العربي كان يرى فيها تقييداً لحريته، وحدّاً من حركته. وقيل: إذا أراد العرب في الجاهلية تحقير إنسان وسبه قالوا له: يا ابن الصانع(١).

وقد استغل اليهود في الحجاز هذا الجانب عند العرب، وجمعوا الأموال الكثيرة. وحينما جاء الإسلام، حاول الرسول – صلى الله عليه وسلم – تغيير المفهوم الخاطئ لدى العرب عن الصناعات. ومن منطلق سلوكه دفع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ابنه إبراهيم إلى زوجة (أبي سيف)، وهو قين حداد في المدينة لكي ترضعه، وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يأتي إلى منزل أبي سيف وهو ينفخ في كيره وقد امتلأ البيت بالدخان(٢).

وقد وضعت معظم كتب الحديث أبواباً عن الكسب والعمل باليد وهو ما يمكن تلخيصه في قوله - صلى الله عليه وسلم: «ما كسب الرجل كسبًا أطيب من عمل يده»، وقال أيضًا: «ما أكل أحدٌ طعاماً خيراً من أن يأكل من عمل يده، وأن نبيّ الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده». وبهذا التوجيه النبوي الكريم تطورت الصناعة الحِرفية في فجر الإسلام، وأصبحت تلبي حاجات المسلم، كما تشهد على ذلك مآثر القصور والقلاع، والتحف النفيسة من فرائش وملابس وألوان تذكر بمهارة الصانع المسلم الذي استلهم جذور صناعته من الحضارات والثقافات.

قيمة العمل اليدوي في التنمية

بدأ الاهتمام بدراسة الصناعات التقليدية على أنه نمط من أنشطة القطاع غير الرسمي في أوائل الستينيات مع بداية الدراسات العلمية لقضايا التنمية خصوصًا في دول العالم الثالث. وخلال العقود

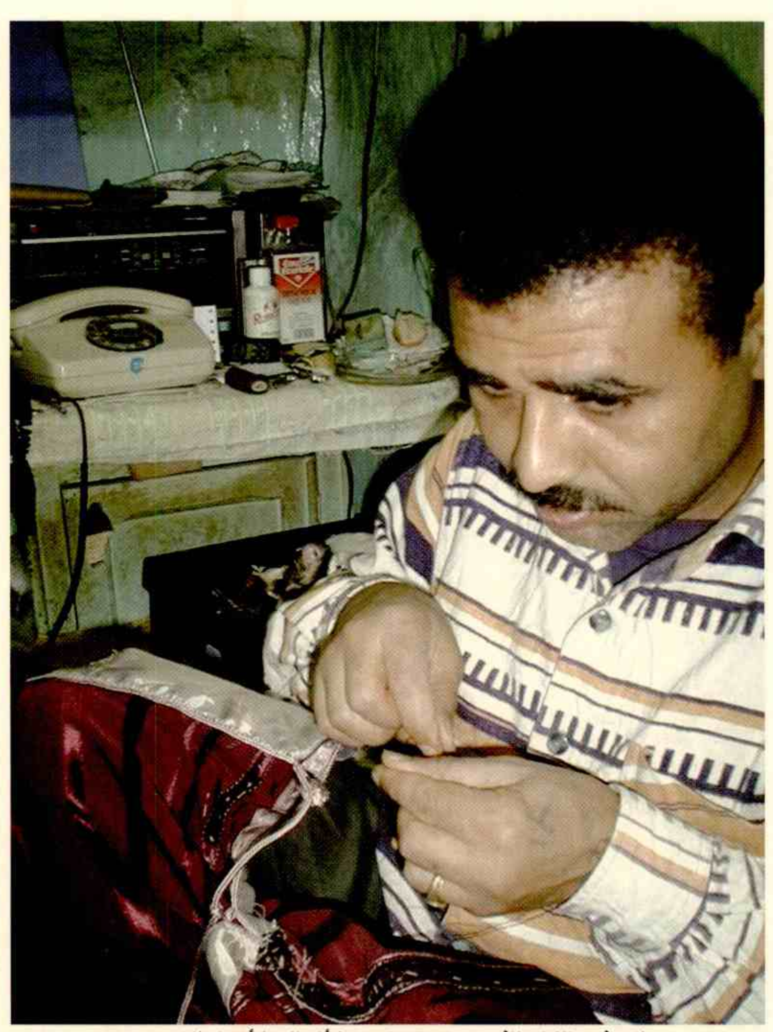
الثلاثة الماضية نال موضوع الصناعات التقليدية اهتمامًا كبيرًا لدى المشتغلين بالعلوم الاجتماعية في الدول الصناعية المتقدمة التي أصبحت فيها الدراسات المدنية تتخطى مجالات الوصف والمسوح الاجتماعية لكي تشمل مجالات أوسع عمقًا كدراسة الخصائص الحِرفية، ونوعية حياة الحرفيين. ولعل من أهم الإسهامات النظرية التي تناولت الخصائص الحرفية ما نجده عند س. رايت ميلز. وقد أخذت تظهر اليوم الصناعات التقليدية بشكل متميز للتوسط بين الإنسان وبيئته للوصول إلى نوع من رد القيمة للأصالة، وأصبحت ضرورة حياة تربط حاضرها بماضيها كعنصر حيوي للثقافة أعطته كبريات المنظمات الدولية كمنظمة «اليونسكو» - مثلاً - أهمية جديدة في برامجها التنموية. ولهذه الغاية بدأت الدول العربية تسعى إلى إبراز الدور الذي تؤديه الصناعات التقليدية في التنمية الاقتصادية والاجتماعية وتأكيد قيمة العمل اليدوي(٣)، كما سيتضمنه هذا البحث من خلال التجربة التونسية في مجال الصناعات التقليدية، وإبراز أهمية النسيج.



الزربية التونسية الحديثة تشق طريقها بين الزربية القيروانية الأصيلة والاقتباسات الفارسية

واقع الصناعات التقليدية في تونس

من المعروف أن الحِرف اليدوية نشأت تلبية للحاجات البشرية في المجتمعات الزراعية والرعوية ضمن الأطر الأسرية، وتطورت مع تطور المجتمع. ولتونس تقاليد عريقة في مجال النشاط الحرفي الذي تمتد جذوره إلى مراحل ضاربة في القدم. وتوارث التونسيون هذه التقاليد جيلاً عن جيل ضمن أسر امتهنت حرفًا متنوعة


الحرفي كالفنان الذي يرسم على لوحته الأشكال والأحجام التي يريد

في الدور التقليدي للحرف، أي الدور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

وعلى الرغم من انتماء الصناعات التقليدية إلى القطاع غير الهيكلي، ووصفها بالهشاشة والتهميش، يجمع الخبراء على الاعتراف بأن هذا القطاع هو الأكثر استجابة للأبعاد الآتية:

البعد الاقتصادي: يحتل الإنتاج جزءاً مهماً من المنتوج القومي، إذ يشكل مصدراً حيوياً للعملة الصعبة.

البعد الاجتماعي: يستوعب أعداداً مهمة من الطاقات التشغيلية، ويساهم في تقليص الهجره من الريف والقرية إلى المدن.

البعد الثقافي: يساهم في المحافظة على الهوية الحضارية والأصالة القومية بحيث تستوحي الصناعات التقليدية إلهامها من التراث الذي تمتاز به البلاد.

ويعد هذا الاعتراف حديث العهد، إذ تمر الحِرف التقليدية في تونس، كما في العالم العربي، بأزمة لإثبات وجودها في المجتمع بحكم عصرنة وسائل الإنتاج والتطوير الاقتصادي السريع الذي شهدته المنطقة في الربع الأخير من القرن الماضي حيث بدأ دور الحِرف اليدوية في الاقتصاد الوطني يتقلص في ظل سياسة التحول بالمجتمع من مرحلة الإنتاج اليدوي إلى التصنيع الآلي كما تقلص الدور الذي كانت تؤديه الحِرف في الحياة الاجتماعية من عادات وتقاليد. فماذا حصل للمنسوجات اليدوية في ظل التغيير الذي شهدته البيئة الاجتماعية والمصادر الاقتصادية في تونس؟

مثل صناعة الزربية والملابس والأغطية الصوفية والطين والحجارة والخشب والبلور، إلخ... تناقل أبجدياتها، وحفظ أسرارها الأبناء عن الآباء والأجداد. وبما أننا لسنا في هذا البحث بصدد التعمق في ماضي الحِرف اليدوية التونسية وتقاليدها، سنكتفي بالقول في هذا السياق بأن لهذه الحِرف أرضية خصبة يمكننا أن نلتمس أهم ملامحها في ضوء واقع المنسوجات على الرغم مما أصابها من تراجع وتدهور. وإن التحدي الرئيس للمشتغلين والمهتمين بالحرف في البلاد التونسية هو إيجاد الطريقة المثلى لوقف هذا التدني

المنسوجات الزربية القيروانية

إن حقل المنسوجات في تونس هو مثل غيره في المجتمعات التقليدية حقل واسع، ولغرض تبسيط البحث يتعين علينا من دون تردد الوقوف على مدينتين مهمّتين في هذا الموضوع تعدّان مرجعًا أساسيًا لكل باحث في هذا المجال: الأولى مدينة القيروان، والثانية مدينة قصر هلال.

عُرف المجتمع التونسي منذ القِدم بتفتّحه على المحيط الخارجي، وعلى مختلف الروافد الحضارية. واشتهرت تونس عبر التاريخ بمنسوجاتها؛ إذ كان الشاعر الأثيني (حرميب) ينوهٍ في أشعاره منذ القرن الخامس قبل الميلاد بمحاسن زرابي قرطاج ووساداتها(٤) المطرزة، وقد أخذ الأهالي عن الفينيقيين صناعة الزربية، وتعلموا منهم الزينة في أبسط أشكالها الموجودة إلى اليوم. ووُجد في كثير من القبور القرطاجنية التي تعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد أدوات النسيج والغزل مثل المكوك والمغزل(٥). ومن غير شك أن النساء كن يغزلن وينسجن ويصنعن الملابس العادية، ولكن إلى جانب ذلك، كان هناك نساجون يحترفون مهن الحياكة.

وفي أواخر القرن الثامن للميلاد كانت الإمارة الأغلبية بالقيروان تدفع ضمن خراجها إلى الخليفة العباسي في بغداد كميات مهمة من الزرابي(٦). وقد ذكرت أخبار الرحالين والمؤرخين استعمال أنواع كثيرة من المنسوجات والمفروشات في القصور والبيوت ولدى القبائل. كما أثبتت الوثائق القديمة وجود تجارة الزرابي من تونس إلى أوروبا حتى إن البرتغاليين كانوا يبعثون إلى مستعمراتهم الإفريقية زرابي من أصل تونسي. وتؤكد هذه الشواهد حيوية أنشطة النسيج في المدن والقرى التونسية عبر العصور.



عاملة على نول تقليدي

وقد أفرز تجذر هذه المهارات في العادات العريقة وتفتّحها على الإسهامات الخارجية في المنتصف الأول من القرن التاسع عشر بروز نسيج تونسي جديد مستوحى من المفروشات الشرقية ومتأثر بخصوصيات جهوية وقبلية؛ ويتمثل هذا النسيج في زربية صوفية ذات عقد وقص سويّ منسوجة على الوجه باستعمال نول عمودي.

وتعتمد هذه الصناعة على تقنيات عقدة (غرزة) غيرداس Noeud de Ghiordes نسبة إلى مدينة أناتولية في تركيا مستلهمة بذلك زخرفتها من النماذج الموجودة في تلك المدينة.

وقد كانت صناعة الزربية في البداية حكراً على مدينة القيروان إلى أن أصبحت تسمى باسمها. وحسب الأسطورة، عرفت المدينة هذا النسيج عام ١٨٣٠م على يد فتاة تدعى (كاملة) ابنة محمد شاوش من أصل تركي، وكان يعمل واليًا على القيروان في عام ١٨٦٦م في عهد أحمد باي.

زربية منسوبة إلى كاملة شاوش

ويروى أيضًا أنها وهبت أول نموذج فني استغرق سنتين في نسجه إلى مقام ولي القيروان الصالح، الصحابي الجليل أبي زمعة البلوي(٧).

ومنذ أن أحدث سحر الشرق الذي طبع القرن التاسع عشر بمنسوجاته الصوفية والحريرية ذات الزخارف الجذابة أسطورة وعادة وحِرفة يدوية بمدينة القيروان، انتشرت الزربية في عدد من المدن والقرى التونسية، وأصبحت نشاطًا نسائيًا في نقلة نوعية للنسيج من الترحال إلى التحضر. واشتهرت الزربية القيروانية بنسيجها الخشن من الصوف الطبيعي أو المصبوغ يتميز في مظهره بحاشية تتكون من أشرطة متوازية بحيث تنتشر زخارف زهرية أو هندسية وتتوسط هذه الحاشية مساحة مستطيلة ذات ركنيات ويتوسط هذا الحقل المسدس محراب محدد الشكل. وقد تتمتع الحرفيات بحرية كاملة في الإبداع لتوسع حاشية الزربية أو تهذيب رسم أو تنميق الحقل الأوسط بزخارف متنوعة.

وبمرور الزمن ذاعت شهرة الزربية القيروانية داخل البلاد وخارجها، وتم تقليدها في عدد من المناطق المحلية في تنوعاتها وزخارفها. وقد تواترت روايات كثيرة حول كيفية دخول هذه الحِرفة لتلك المناطق؛ إذ يتفق أغلبها على أن تقنية نسيج الزربية تمت بواسطة معلمة جاءت من القيروان ثم انتشرت شيئًا فشيئًا بين أهاليها. وقد صاغت التأثيرات الحِرفية الجهوية والمعتقدات الدينية والاستعارات المختلفة من زخارف الجليز والتطريز نماذج اندثرت، وأخرى ثبتت حسب


نموذج زربية مستوحى من الزخرفة الفارسية

متطلبات السوق والتأثير المطابق لذوق العصر. ولعل أهم المدن التي كان لها قصب السبق في محاكاة الزربية القيروانية مدينتا بنزرت بالشمال التونسي وقصيبة المديوني الواقعة على الشريط الساحلي؛ فقد حظيتا بتقليد متميز، وابتدعتا أنماطًا جديدة تغطي في معظمها زخارف منظمة ومنسقة مكان الحقل المستطيل أو بإعادة شكل مربع أو معين يعكس تماماً تفصيلاً من الركنيات القيروانية أو جزئيات أخرى من الحاشية.

وانطلاقًا من محاكاة النموذج القيرواني، أخذت الألوان تشكيلات جديدة دافئة وفاقعة مستوحاة من ذوق الحرفيات وخيالها، وتوافر الأصباغ الطبيعية كلها من نباتات معروفة توارثها الناس جيلاً عن جيل كـ«النيلة» التي كان يصبغ بها الصوف أو القطن أو الحرير للون الأزرق و«القرمز» للون الأحمر القاني.

كما كان اللون الأخضر يصبغ بنبات يعرف بـ «الرجاقنو» واللون الذهبي بقشور الرمّان. وهذه الألوان قد يبلى خامها ولا تبلى، وكلما قدمت ازدادت نصاعة وجمالاً، إلا أنه في أوائل القرن الماضي حتى عام ١٩١٣م، في فجر الحرب العالمية الأولى، بدأت تظهر في أسواق العاصمة التونسية مواد كيماوية لصباغة خيوط النسيج،

لكن على الطريقة التقليدية؛ مما كان لهذه الأصباغ الاصطناعية تأثير سلبي في جودة الزربية التونسية. هذا ما حدا بعائلة قيروانية إلى استنباط نموذج جديد يعرف بـ(العلوشة) قد أعاد لوحة الألوان الطبيعية لأصواف الغنم من الأبيض إلى الأسود مروراً بالرمادي والبُنّي. وقد لاقى هذا النموذج في بداية ظهوره معارضة قبل أن يفرض نفسه في النهاية على المستوى العالمي.

وتعد صناعة الزربية حاليًا أحد الأنشطة الحرفية الأساسية التي طرأت عليها تغييرات وتحولات مهمة على مستوى تنظيم العمل، وتقنيات الصنع في إطار هيكلي رسمي مراقب لهذا النشاط. ولعل أولى المراحل التي مرت بها صناعة الزربية تكمن في تطوير الأنوال البدائية، وإعادة النظر في مكوناتها وما لزم ذلك من تحسين في جودة الأصواف وتطويعها، ووضع مقاييس فنية للإنتاج وتقنين أساليب التدريب؛ مما أعطى للزربية التونسية نفسًا جديدًا جعلها ترتقي إلى جودة غير مسبوقة. فبينما كانت لا تتعدى ٤٠٠٠٠ عقدة في المتر المربع (دقة ٢٠×٢٠) تعددت الزربية التونسية إلى ٢٥٠٠٠٠ عقدة في المتر المربع (دقة ٥٠×٥٠). وبعد أن أصبحت الحرفية التونسية تتحكم في تقنيات الدقة الجيدة للزربية الصوفية تعدت إلى نسيج الزرابي الحريرية نتيجة شغف الحرفاء التونسيين والأجانب الذي كان وراء تشجيع هذا المنتج المضاهي للزرابي الشرقية. كما دفع هذا الاهتمام بالمنتجات الجديدة إلى إثراء نماذج وأشكال تقليدية وتنويعها بابتكارات حديثة مستوحاة من مخزون التراث التونسي، وفي توافق مع تطور أذواق المستهلكين. وقد مكنت استعادة الرموز البربرية في الزرابي وصياغة تشكيلات فنية وجمالية مطابقة لروح الزخرفة الحديثة من ظهور نمط جديد من الزرابي التونسية يتناغم بين التقليد والحداثة.

ومما لا شك فيه أن قصر الجهود على البحث والابتكار حقق نجاحًا لعدد من النماذج التي شهدت طلبًا متزايدًا. وهكذا بدأت الزربية التونسية الحديثة تسلك طريقها بين الزربية القيروانية الأصيلة والاقتباسات الفارسية، نحو شهرة عالمية بفضل طابعها الفريد وتجذرها في الأرض التونسية.

للمصنوعات الأوربية تأثير كبير في بعث حاجات استهلاكية جديدة وخاصة في المدن، فزاد ذلك من تقليص الاستهلاك المحلي وكساد السوق الداخلية بعد أن صُدت منافذ الأسواق الخارجية

فلا بأس أن ننتقل في هذا السياق إلى إبراز أهمية الموقع الذي يحتله النسيج اليدوي عموماً، وصناعة الزربية بوجه الخصوص على المستوى الوطني، موازنة ببقية الاختصاصات الحرفية الأخرى(٨).

كما أسلفنا سابقًا أن حرفة النسيج كان لها نصيب الأسد في استقطاب ١٦٢,٦٩٧ حرفيًا وحرفية على ٢٦٥ ألفًا من المجموع العام للحرفيين عبر مدن الجمهورية التونسية وقراها. هكذا تتصدّر القيروان الولايات الثلاث والعشرين بواقع ٢٣٠ ألفًا من العاملين في النسيج التقليدي، وبذلك يتجاوز عدد النساء والفتيات في صناعة الزربية أكثر من النصف. وتأتي ولاية المنستير في المرتبة الثانية بعدد ١٢ألفًا من العاملين. ومهما يكن من أمر، فإن هذه الأرقام، على الرغم من طابعها التقديري، تعدّ بالنسبة إلى الباحث عنصرًا رئيسًا لتحليل واقع الصناعات التقليدية



السياح واهتمام كبير بالصناعات التقليدية

ككل ومحاولة فهمه في ظل التطورات التي مرّت وما زالت تمرّ بها هذه الحرف من خلال تطرقنا لذلك لاحقًا.

المنسوجات الصوفية

تجمع المصادر التاريخية على أن الحِرف اليدوية كانت تشغل عدداً من سكان الساحل التونسي، وأن النسيج كان الصناعة الأوفر نصيبًا؛ مما يدل على وجود اتجاه مبكر إلى الاستقرار العمراني .وقد ذكر L.Golvin في أعقاب استقلال تونس من الاستعمار الفرنسي أن الصناعات التقليدية كانت تمارس في الساحل التونسي منذ أمد بعيد؛ مما جعل منها منطقة ذات أهمية في هذا المجال(٩). وكشف تحقيق إحصائي أجري في عام ١٩٥٣م، أن عدد الحِرفيين في هذه المنطقة من البلاد بلغ نحو ٨ آلاف من بين ٢٣ ألف حِرفي على المستوى الوطني، أي أكثر من الثلث تقريبًا. وتأتي مدينة المنستير وما جاورها من قرى وأرياف في مقدمة بقية الأماكن الساحلية الأخرى. كما كشف تحقيق آخر من العام نفسه أن عدد الحِرفيين في قطاع النسيج التقليدي في هذه المنطقة بلغ ٤٨١٣ من مجموع ٥٥٤٨ عاملاً في الوقت الذي لم يتجاوز فيه عدد الحرفيين في تونس العاصمة ٥٣٧٧ حِرفيًا. وهكذا نرى من خلال هذه الأرقام أن الصناعات التقليدية لم تشهد تراجعًا في نشاطها الاقتصادي، ودورها في تدعيم المخزون الثقافي التقليدي. وسنتناول هنا الحديث عن نسيج الصوف من أغطية وملابس وذلك لما تمثله من لوازم أساسية للإنسان، ولكونها من أقدم الأنشطة التي عرفها تاريخ البشرية منذ العهود السحيقة في القِدم. قال ابن خلدون في صناعة الحياكة والخياطة: «هاتان صناعتان ضروريتان في العمران لما يحتاج إليه البشر من الرفه، فالأولى لنسج الغزل من الصوف والكتان والقطن إسداء في الطول وإلحامًا في العرض لذلك النسيج بالالتحام الشديد فيتم منها قطع مقدرة ... ثم تلحم تلك القطع بالخياط المحكمة ... ولقدم هذه الصنائع ينسبها العامة إلى إدريس عليه السلام،

وهو أقدم الأنبياء، و ربما ينسبونها إلى هرمس، وقد يقال: إن هرمس هو إدريس»(١٠).

أما عن مدينة قصر هلال التي وصلتها هذه الحرفة، فقد يعدّها أهل الاختصاص أنها عاصمة النسيج في تونس وذلك للدور الرائد الذي أدته بمكننة إنتاج النسيج. وبخصوص تاريخها، يروى على لسان الحِرفيين أنفسهم، وكلهم إيمان بما يقولون، أن هذه الحِرفة من اختراع سيدنا شيث، وهو من الأنبياء. وتورد حوله قصة قصيرة هي:«أن سيدنا شيث كان ذات يوم ينسج على النول فجاءه الشيطان، وأشار عليه بأن يشد القطعة التي تم نسجها بأداة اسمها (المتيت)، وهي لفظة عامية لأداة تصنع من الخشب تقوم بشد حاشيتي المنسوج كي لا ينسلّ، وكان يقصد من وراء هذا أن يفسد ما نسج سيدنا شيث؛ إذ إن المتيت سيضغط على القطعة المنسوجة. فعمل بهذه النصيحة دون أن يعلم نوايا الشيطان الخبيثة، ولكن لم يحدث شيء مما أراده الشيطان». ومنذ ذلك الوقت، أصبح المتيت من الأدوات الصالحة التي لا يمكن الاستغناء عنها في حِرفة النسيج حتى يومنا هذا.


الصباغة على الطريقة التقليدية

وإذا كانت هذه الصناعة قديمة في الزمن(١١)، فإن بعض المصادر النادرة حول هذا الموضوع تذكر أن أهل قصر هلال قد «اختلطوا ببعض النازحين من العراق في جيش هرثمة بن الأعين، وقد كانوا يعرفون النسيج»(١٢) . وأن من أهم المنسوجات التي اشتهرت بها هذه المدينة والقرى المحيطة بها مثل صيادة وبنان وقصيبة المديوني و خنيس البرنس والكدرون للرجال من الصوف والمنديل والمنشفة والخلالة أو التخليلة للمرأة، إضافة إلى المفروشات من بطائن وفرائش من الصوف أيضًا. فجميع هذه القطع التي تصنع على أنوال أفقية(١٣) آخذة في

التراجع بشكل ملحوظ مثلها مثل الزربية.

أهم مراحل الصناعة

وعلى الرغم من التحديات التي يواجهها النسيج التقليدي فما زالت هذه الحرفة تنمّ على تواصل حضاري وثقافي قل ما نجد له مثيلاً في مناطق أخرى من البلاد التونسية. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن المنساج التقليدي الخاص بصناعة المنسوجات الصوفية لم يطرأ عليه أي تعديل يذكر بحيث بقيت جميع مكوناته الخشبية على طريقتها القديمة. فلا يختلف نسيج البرنس والكدرون عن المنديل أو المنشفة أو التخليلة أو الفرائش الصوفية؛ إذ إن جميعها يخضع إلى تقنيات واحدة بداية من المادة الأولية من الصوف الذي تعتني به المرأة من حيث غسله وتنظيفه وندفه وغزله إلى أن تجهزه إلى النسّاج. ولن نورد في هذا الباب جميع المراحل الفنية التي تمر بها عملية إعداد السدو الذي لولاه لما تسنى إنجاز لحمة تلك الشبكة من الخيوط المنتصبة أفقيًا وذلك للحيّز الكبير الذي يتطلبه هذا العمل، لكن سنحاول قدر الإمكان إيجاز أهم مرحلة تقوم عليها عملية الإنتاج الحِرفي لتلك المنسوجات.

إن أول عملية يبدأ بها النسّاج تتمثل في تسدية كمية الخيوط الدقيقة المسماة بـ«القيام» على «الناعورة» (اسم للمسدّاة التي يسدّى عليها القيام). ثم بعد الانتهاء من هذه العملية، ينتقل النساج إلى طي القيام على أداة تسمى المطوى المنصوبة أساسًا في مقدمة النّوْل والتي توازيها مطوى القطَع المزمع نسجها المحاذية مباشرة للحِرفي في أثناء أداء عمله. وفي أحد أركان الحانوت، يأخذ في عملية تكبيب خصلات



تنويعات في الأشكال

الصوف (تدوير خيط الصوف على قطعة قصب يُلفّ عليها هذا الخيط وتسمى بالجعبة) على المكبّة (الأداة المهيأة لهذا الغرض) بمساعدة الردّانة (الأداة التي يدار بواسطتها خيط الصوف من المكبّة إلى الجعبة). وعندما ينتهي الحائك من هذه العملية، ويصبح لديه العدد الذي يريد من الجعاب المعبأة صوفًا بالألوان التي يعتمد اختيارها على نوعية المنسوج، حينها يضع هذه

المجموعة من الجعاب في سلة صغيرة ويعلقها على إحدى خشبات النول ثم يبدأ عملية النسج، وهي عبارة عن رمي مكوك معروف بـ(النزق) بين خيوط «القيام» باليد اليمنى بعد أن يدوس على «العفاسة» أو «العصرات» اليمنى (تلك الأداة التي يدوس عليها النسّاج برجله لكي ينزل مشطًا من المشطين فيتحوّل بذلك شكل تشابك الخيوط) برجله اليسرى؛ وما إن يصل المكوك إلى الحاشية اليسرى من المنسوج حتى يتلقّاه الحائك بسرعة مع مسك الدفّ باليد اليسرى، ويضرب به مرتين متتاليتين، ثم يدوس على العفاسة اليسرى، ويرمي النزق بين خيوط «القيام» باليسرى لتلقفه اليمنى، ويضرب الدف بالطريقة الأولى نفسها، وهكذا دواليك.

وتجدر الإشارة إلى أنه في كل مرة تفرغ جعبة من الصوف يُخرجها من النزق ويعوّضها بأخرى معبأة. وهكذا تبدو عملية الحياكة صعبة أول وهلة، لكن الحِرفي الذي عاشرها منذ نعومة أظفاره، وتوارثها عن والده لا يرى أي صعوبة في ممارستها.

علاقة الحِرفي بإنتاجه

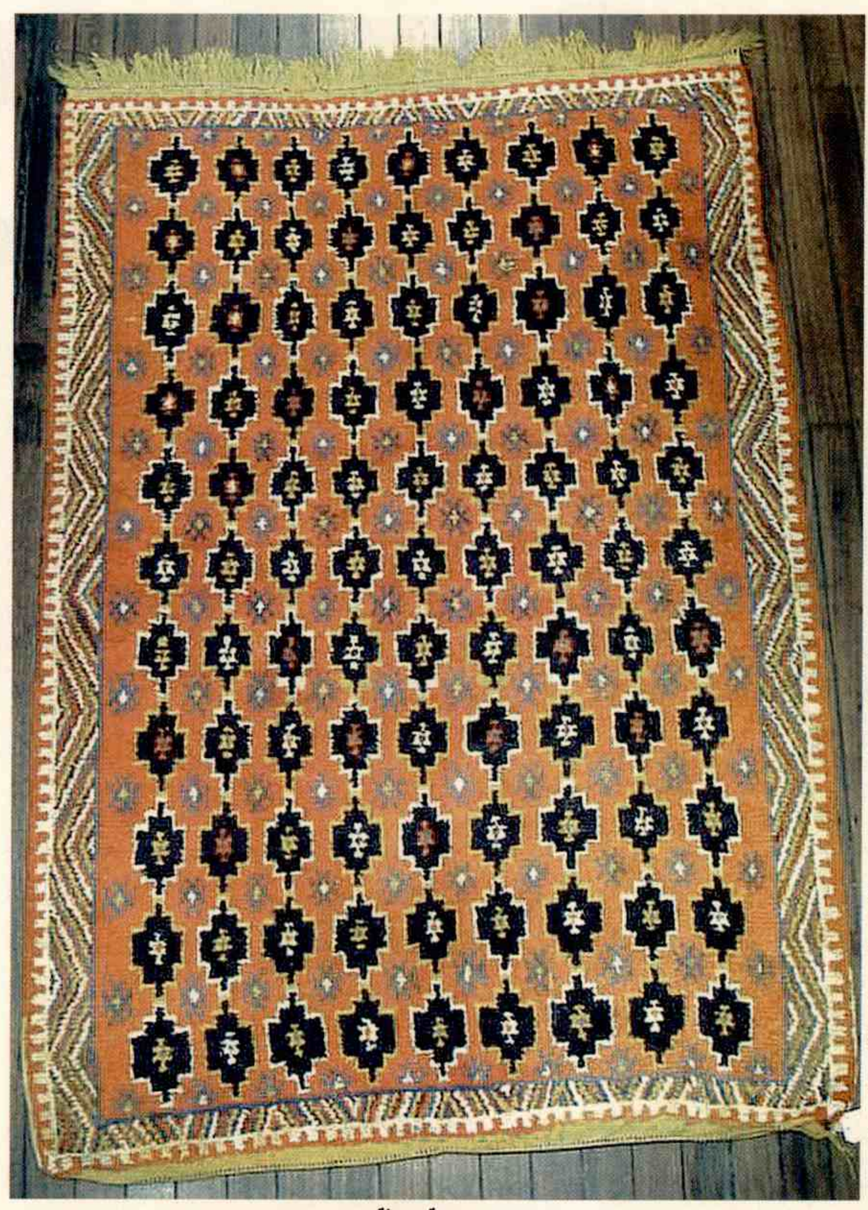
نلاحظ من خلال وصف تلك المرحلة المهمة في النسيج اليدوي وذِكر الأدوات المستعملة أن الحِرفي وطيد العلاقة بإنتاجه فهو العارف بجميع مراحل عمله، ولا يشعر بالغربة، لأنه يملك إنتاجه وهو حر فيه؛ إذ ليس له ساعات عمل ملزم بقضائها يوميًا، بل هو حر أن يعمل في أي وقت أراد، وعلى مدى مدة يقررها هو، وإذا أحس بالتعب يتوقف؛ لذلك يكون إنتاجه معبّرًا عن حالته النفسية التي كان عليها الحِرفي وقت النسيج، فيكون نسيج البرنس أو البطانية متقن الصنع لا يوجد بهما أي خلل، ولو كان بسيطًا، هذا إذا كانت حالته النفسية هادئة. أما إذا كانت مضطربة، فإن ذلك سيؤثر حتمًا في جودة منتوجه الذي قد تصيبه هفوات في أثناء عملية النسيج. وفي كل الأحوال، فإن صانع الأغطية أو الملابس الصوفية يظل هو ذلك العارف بكل خبايا حِرفته، وبكل أسرار عمله وجميع مراحله، فهو سيد صناعته، ومسؤول عن منتوجاته؛ إذ ينجز عملية تحويل الصوف إلى بطانية أو منديل في كل مراحلها وحده كالفنان الذي يرسم على لوحته الأشكال والأحجام التي يريد، والألوان التي يراها معبّرة أكثر من موضوع رسمه، لكنه يبقى أقرب إلى الفنان منه إلى عامل الصناعة الحديثة.

كانت صناعة الزربية في البداية حكرًا على مدينة القيروان إلى أن أصبحت تسمى باسمها. وحسب الأسطورة، عرفت المدينة هذا النسيج على يد فتاة تدعى (كاملة) ابنة محمد شاوش من أصل تركي

تدهور مكانة الحِرف

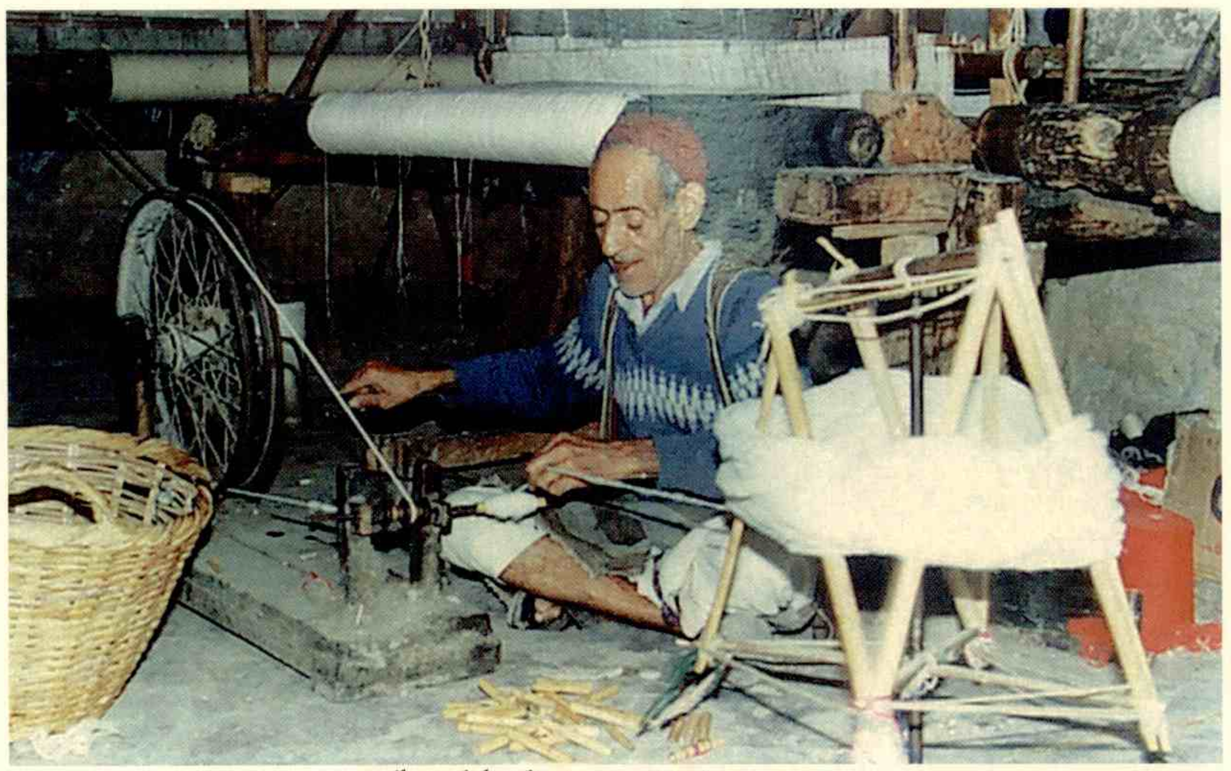
إن المتتبع للتغيرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي اجتاحت سائر المجتمعات العربية يدرك أن هذا التغير أدى بشكل واضح إلى تدهور الحِرف التقليدية، إلا أنها كانت قبل بداية القرن العشرين تتمتع بمكانة اقتصادية فريدة لكونها الصناعة الوحيدة في تلك المجتمعات،ولم تدرك الدول العربية تدهور مكانة الحِرف فيها إلا قبل ثلاثين عامًا تقريبًا. وفي بعض المجتمعات العربية لا تزال هذه الحِرف تؤدي دورًا مؤثرًا في الاقتصاد الوطني، وبقيت محتفظة بالتراث الشعبي فيها.

لقد قام الباحث بزيارة ميدانية لبعض المدن الساحلية التونسية من بينها قصر هلال، وخنيس، وصيادة، للاطلاع عن كثب على نشاط النسيج الحِرفي فيها حيث يقوم البحث على قياس مدى تأثير العوامل الاقتصادية والاجتماعية


زربية حديثة

والثقافية في هذه الصناعة هناك. وقد خلصت الدراسة إلى أن النسيج التقليدي في هذه المناطق بحكم ارتفاع مستوى الدخل فيها، وانتقال المجتمع من حياة القرى إلى مجتمع متمدن أكثر تأثراً بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، قارب على الاختفاء. وقد تردى وضع الحرف اليدوية في هذه المناطق، وفقدت الكثير من شخصيتها التراثية وذلك لعدم إدراك أهمية هذه الحِرف فضلاً عن العوامل الداخلية والخارجية الأخرى التي أدت إلى هذا التردي.

وفي رأينا أن أسباب هذا التدهور الواضح ليست جديدة ولا يصعب اكتشافها، بل يرجع ذلك إلى التوسع الاستعماري الناتج من الثورة الصناعية بأوربا الغربية والذي زعزع أركان الصناعات والتجارة التقليدية بالبلاد التونسية وأغلب الأرض العربية التي تعرضت للهيمنة الاقتصادية والسياسية للدول العظمى المصنعة والتي أحدثت ضغوطاً على السوق الأوربية الداخلية، فكانت أهم العوامل التي انجر عنها التوسع الاستعماري المباشر وغير المباشر. وقد كان للمصنوعات الأوربية تأثير كبير في بعث حاجات استهلاكية جديدة وخاصة في المدن، ولدى الطبقة الأرستقراطية التي بدأت تُقلّد الأوروبي في مسكنه وملبسه وأنماط عيشه، فزاد ذلك من تقليص الاستهلاك المحلي وكساد السوق الداخلية بعد أن صُدت منافذ الأسواق الخارجية. كما عمدت الصناعة الأوربية إلى محاكاة المنتوجات التقليدية التونسية تقليداً شديد الإتقان، وبيعها بأثمان لا تقبل المزاحمة. ففي مدينة (إيفيتو) الفرنسية مثلاً،



تدوير خيوط من الصوف بواسطة الردّانة والمكبّة

تخصصت إحدى المؤسسات في صناعة البرنس التونسي، كما استطاع صناعيو القطن في فرنسا تقليد الملية نفسها التي ينسجها الحِرفيون في قصر هلال(١٤) إلى حد أن الصناعات النسيجية البريطانية توصلت أيضًا إلى صناعة البطانية نفسها التي ينسجها حِرفيو جزيرة جربة في الجنوب التونسي، إضافة إلى غطاء الرأس والحائك، وذلك في مدينتي مانشستر وليفربول(١٥).

ويفسر التوسع السياسي في تونس كما في العالم الثالث من خلال التوسع الاقتصادي الذي هيمن على نوع العلاقة بين الدول الأوربية والدول النامية حتى عندما استقلت الدول المستعمَرة، ظلت علاقتها الاقتصادية معتمدة على الدول المستعمِرة؛ إذ إن هذه الأخيرة تعطي امتيازات كبيرة لمستعمراتها القديمة بحيث تصبح هذه الدول معتمدة اعتمادًا كبيرة على الدول المستعمِرة.

وأوضح بهذا الصدد بلانديه أن الجوانب الاقتصادية للاستعمار تقوم على البحث الدائم عن تقليص دور المستعمرات إلى دول مستهلكة وسوق لها، مما يفسر أن هناك حلقة وصل بين الرأسمالية والاستعمار. فالعالم الرأسمالي يعد دائمًا بحرية التجارية، إلا أنه في الوقت نفسه يبحث عن الطرق الكفيلة بخفض التكاليف وزيادة الأرباح(١٦).

ومن البديهي أيضًا أن الاحتكاك المتزايد بالثقافات الأجنبية، وآثار التوجه المتزايد نحو التصنيع والاتصالات والسفر، كلها جلبت وتجلب تغيرات في الملبس تبرز أولاً في المدن، ثم تصل في وقت لاحق إلى المناطق القروية.

وقد تدرّجت صناعات الماضي - بحكم تهميشها الموضوعي - إلى صناعة تقليدية باتت تعاني ويلات المنافسة غير المتعادلة مع صناعات حديثة.

وقد أجمع أهل الاختصاص في أن تدخّل النول

الميكانيكي مثلاً أساء إلى الحِرف بدرجة كبيرة، إذ أصبح «نول البيكانول» في قصر هلال ينتج ما أنتجه الآباء والأجداد، وتفننوا في صنعه وإتقانه. لكن سرعان ما برزت العيوب، وتبين أن إنتاج الآلات الميكانيكية هو أكثر من حيث الكمية إلا أنه أقل من حيث الجودة؛ إذ اختلط الأمر على المستهلكين مما أدى إلى كساد السوق الداخلية بل وفقدانها. ثم تطورت أحوال الناس المعيشية، وارتقت قدراتهم الاقتصادية، وتدفقت على المجتمع أصناف من المصنوعات المستوردة تباع بأثمان رخيصة فاستبدلوا المستورد من ملبوسات بما هو قد يصنع محليًا برخص الثمن أو ربما لجودة الصنف.

وعلى الرغم من دخول الصناعة الآلية الحديثة، لم يمنع ذلك من تطور تعاطي الحِرف التقليدية بالجهة بالنسبة إلى الرجال أوالنساء. وبحكم تطور العصر، أخذت العصرنة تكتسح جميع الميادين إذ عوضت الآلات الحديثة الأدوات التقليدية كالحدادة والنجارة، وأصبحنا لا نرى لإنتاج الصناعات التقليدية أثرًا في الميدان الفلاحي. ولم يقتصر الأمر على هذا القطاع فحسب، بل اجتاحت العصرنة قطاع الملبوسات فحلّ الزي الإفرنجي محل زينا التقليدي؛ وذلك لعوامل ثلاثة: مجاراة العصر، وتكييف اللباس للعمل، وإهمال الناس للزي القومي.

أمام هذه الحالة، تم في تونس بعث الديوان القومي للصناعات التقليدية عام ١٩٥٩م؛ فقد كان يرمي إلى إبقاء فرص التشغيل لبعض المهن التقليدية التي لم يجرها تيار العصرنة. وقد أبرزت مخططات التنمية الأولى للبلاد تطور أساليب الإنتاج والاستهلاك، مما استوجب المحافظة على بعض المهن التقليدية وتطويرها إلى مهن فنية، مما أفرز نوعين من الصناعات: صناعات فنية كالفخار والنحاس والخشب، وأخرى نفعية، مثل صناعة الجلود والمنسوجات إلخ. كما قام الديوان القومي للصناعات التقليدية بتشجيع أساليب الإنتاج وتأهيل الحِرفيين.

وما الاهتمام المتزايد الذي يشهده قطاع الصناعات التقليدية في تونس اليوم إلا نتيجة لتغييرات عملية أفرزتها سياسيات التنمية الشاملة التي صاغتها الحكومة بعد الاستقلال والتي تشمل الميادين الاقتصادية والاجتماعية والثقافية من أهمها: تطور المستوى المعيشي، وتغيير نوعية الاستهلاك، وترسيخ الهوية الثقافية، وتوفير فرص التشغيل، ونمو السياحة التي تعدّ صناعة مهمة تجذب التجار وذلك لتوافد السياح على البلاد، وإقبالهم على اقتناء المنتوج على الرغم من الأسعار الباهظة؛ مما يدل على أن قطاع الصناعات التقليدية في تونس يواكب حركة تنموية جعلت الدولة تعطيها دفعًا لتطويرها من خلال اتخاذ الكثير من الإجراءات والتدابير المهمة يهدف جميعها إلى تشجيع البحث والابتكار.

انطلاقًا من محاكاة النموذج القيرواني، أخذت الألوان تشكيلات جديدة دافئة وفاقعة مستوحاة من ذوق الحرفيات وخيالها، وتوافر الأصباغ الطبيعية كلها من نباتات معروفة توارثها الناس جيلاً عن جيل

كما لا يفوتنا الإشارة إلى أن العقد الأخير الذي أعيد فيه الاعتبار للزي التقليدي التونسي كان منطلقًا لخطة كاملة اتخذتها وزارة السياحة والصناعات التقليدية من أجل النهوض بهذا القطاع، خاصة فيما يتعلق بترويجه لدى المواطن التونسي.

وبعد أن شعر ديوان الصناعات التقليدية أن هذا القطاع أساسه الإضافة التراثية النابعة من الهوية التونسية هوية الثلاثة آلاف سنة وأكثر، ذلك أن

(الجبة) و(البرنس) ما كان لهما أن يصمدا لو لم يصمد روادهما من الصناع المهرة. والجبة التونسية وغيرها من منتوج الصناعات التقليدية لقيت اليوم عناية خاصة بعد أن أعيد الاعتبار إلى هذا المنتوج التقليدي بدعم من رجالات الدولة وإقبال التونسيين.

وتؤكد هذا الدعم جملة الإجراءات التي اتخذت في هذا الصدد، كالحوافز التشجيعية الأدبية والمادية مثل صالون الابتكارات في الصناعات التقليدية، وتكريم الحِرفيين من هذا القطاع، ومثل يوم اللباس التقليدي التونسي، والجائزة التقليدية للحِرف.

ومن ناحية أخرى، لوحظ خلال السنوات الأخيرة أن صناعة الزربية بدأت تعترضها عدة صعوبات فضلاً عن أن عدد الحِرفيات تقلص بنسبة كبيرة، ونتج منه تراجع واضح في الإنتاج الذي تدنى من ٥٢٩,٣٧٥ زربية عام ١٩٩٤م إلى ٣٨٨,٤٦٠ عام ١٩٩٨م. وإن هذه الصعوبات تعزى أساساً إلى ارتفاع سعر التكلفة للزربية نتيجة لارتفاع أسعار المواد الأولية، بالإضافة إلى منافسة الزربية المصنوعة ميكانيكياً ، وتلك التي تنافس بها دول مثل الهند وإيران وبنغلاديش وباكستان وحتى مصر والمغرب.

والجدير بالذكر أن استقطاب معامل الملابس الجاهزة التي أقرها قانون ١٩٧٢م للفتيات أثرّ تأثيراً كبيراً في تراجع عدد الحِرفيات في هذه المهنة. كما اتضح لنا من خلال استجوابنا لبعض الحِرفيات أن دخل الزربية في تقلص مستمر؛ لأنه لم يعد يفي بالحاجة أمام ارتفاع أسعار المواد الأولية، وفي نظرهن يبقى التاجر الوسيط المستفيد الأول.

ويتعلق الأمر كذلك بالمنسوجات الصوفية التي ابتعد عنها الناس وذلك لانتشار أغطية صناعية جديدة بأسعار في المتناول.

ونخلص إلى أن المحافظة على التراث القديم، وعلى هذه الصناعات التقليدية تستوجب التفكير في المزيد من الحث على الابتكار في هذه الصناعات لتطويرها وترسيخها؛ إذ يمثل ضرورة لإقرار مبدأ التأصيل والتجديد، ولا يمكننا الدخول في عالم هذا الابتكار الجيد إلا بتكوين جيل من المبدعين المهرة لضمان استمرارية العطاء والبحث والاستلهام من تراث الأجداد. ومما لا شك فيه أن إستراتيجية وزارة السياحة والصناعات التقليدية في هذا المجال أساسها التأصيل والتجديد لإعادة الاعتبار إلى المنتوج الصناعي التقليدي التونسي.

المراجع

١. الصناعات والحِرف عند العرب في العصر الجاهلي، واضح الصمد: لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٤٠٣هـ/١٩٨١م، ص ١٥.
٢. الحِرف والصناعات في الحجاز في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم ، عبدالعزيز بن إبراهيم العمري: ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص ٥٧.
٣. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم: ورقة عمل للمساهمة في إعداد خطة شاملة للنهوض بالصناعات التقليدية في الوطن العربي، تونس: الاجتماع التحضيري للخبراء العرب، ٨-١٠ ديسمبر ١٩٩٢م، ص١.

4 - Musée sans Frontières, (2000), Ifriquiya, Treize siècles d'Art et d'architecture en Tunisie, Editions Edisud, Aix-en Province, France, p.248

5 - Habib MANSOUR, Tapis et tissage en Tunisie, Histoire et légendes, Tunis, presses de simpact, 1999, p. 18

6 - Musée sans Frontières, Op., Cit., p. 168.

7 - Habib MANSOUR, Tapis et tissages en Tunisie, Op., Cit., p. 32.

٨ - وزارة السياحة والترفيه والصناعات التقليدية: الصناعات التقليدية من خلال الأرقام، تونس: ألفا للنشر، جويليو ٢٠٠٠م، ص ١٦

9 - Lucien GOLVIN, Aspects de l'artisanat en Afrique du Nord, PUF, Paris, 1957, p. 37

١٠. مقدمة ابن خلدون، عبدالرحمن بن خلدون: بيروت: دار الجيل، ص ٤٥٦ -,٤٥٧

١١- حول الموضوع نفسه يمكن الرجوع إلى:

–George MANTANDOU, Traité d'ethnologie culturelle, Paris, Payot, 1934.

- F. DE LAPORTE, Métier à tisser tunisien, Dessain et Tobra, 1973, p. 126.- Jacques ANQUETIL, Le tissage, Dessain et Tolra Chêne, Paris, 1977, p. 43.

١٢- أحمد بكير محمود: قصر هلال و معركة التحرير: تونس، ١٩٧٥، ص,٢٢

13 - Cf. Habib MANSOUR , Tapis et tissages en Tunisie, Op., Cit., p. 112.

14 - Ahmed KASSAB, Histoire de la Tunisie, l'époque contemporaine, Tunis, Société Tunisienne de Diffusion, 1976, pp. 133-134.١

15 - Fredj STAMBOULI, Ksar-Hellal et sa région, Paris, Ecole Pratique des Hautes Etudes, Doctorat de 3ème cycle, 1964, p. 161.

16 - G. BALANDIER, The Colonial Situation, A Theoretical Approch, In I. Wallerstein (E.D.) Social Change : the Colonial Situation, New York, John Wiley & Sone, Jnc. 1966, pp. 34-61.

مصادر الصور : الديوان القومي للصناعات التقليدية بتونس والإنترنت.

سحر عالم البحار

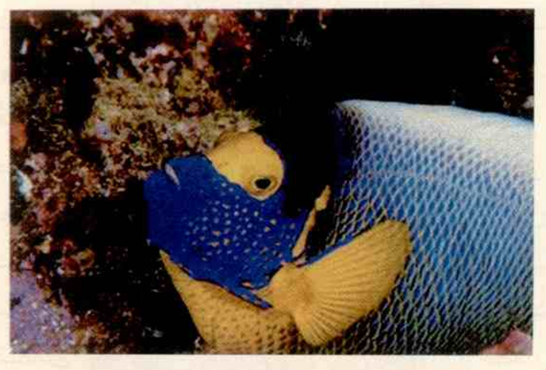
مصطفى جزائري
دمشق - سورية

إن في عالم البحار لجمالاً وسحرًا يتجليان في ذلك الإبداع والإتقان، إبداعًا وروعة لا تتمالك النفس أمامهما إلا أن تقول سبحان الإله العظيم.

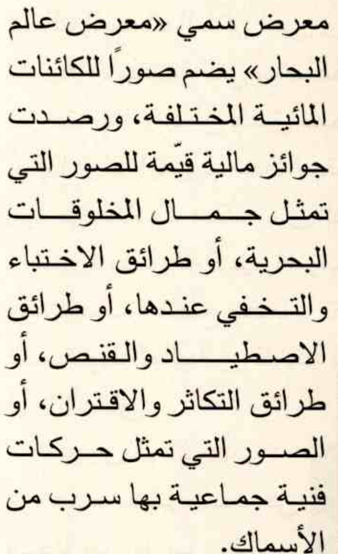
جون بول في كتابه (الطبيعة في أشكالها الرائعة).

يضج عالم البحار بمخلوقات لا يعلم أنواعها ولا أعدادها إلا الله. يحار الفكر في هندستها، ويسحر العقل جمالها، وقد بلغت درجة الكمال في تكوينها وتلوينها وتلاؤم أشكالها مع وظائفها.

ومن العجيب أن يكون هذا الجمال مخفيًا تحت سطح الماء لا يراه الناس.



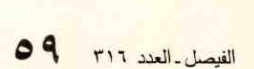
ولولا أن الله سبحانه علّم الإنسان ما لم يعلم، وفتح عليه صنوفًا من أبواب هذا العلم، وألهمه طرائق الغوص تحت الماء، وطرائق التصوير الفوتوغرافي والتصوير بواسطة الفيديو، لبقيت هذه الكنوز مدفونة، ولبقي هذا الجمال محجوبًا في ظلمات البحار وأعماقها السحيقة.



أقيم في باريس مؤخرًا معرض سمي «معرض عالم البحار» يضم صورًا للكائنات المائية المختلفة، ورصدت جوائز مالية قيّمة للصور التي تمثل جمال المخلوقات البحرية، أو طرائق الاختباء والتخفي عندها، أو طرائق الاصطياد والقنص، أو طرائق التكاثر والاقتران، أو الصور التي تمثل حركات فنية جماعية بها سرب من الأسماك.

لقد تهيأت تلاؤمات فيسيولوجية رائعة مكنت تشكيلة مذهلة من المخلوقات التي تعيش في أعماق البحار من أن تكون شفافة على نحو رائع.

وقد تبارى المئات من الفنانين والغواصين والمصورين من سائر أنحاء العالم في التقاط أفلام



الفيديو والأفلام الفوتوغرافية، فغاصوا في عدد من بحار العالم، وفي أوقات مختلفة من الليل والنهار، واضطروا في كثير من الأحيان أن ينتظروا تحت الماء وقتًا طويلاً حتى تحين اللحظة المناسبة التي تمثل حادثة مثيرة مثل فقس البيض وخروج الصغار منه، أو حادثة تزاوج، أو لحظة قنص واصطياد، أو أي حركة فنية من أي مخلوق مائي.

وأول ما يلاحظ المتأمل في عالم هذه المخلوقات، التناسب بين الشكل والوظيفة، فالشكل المغزلي هو الشكل الغالب على نسبة كبيرة منها، وذلك لأنه يساعد على التنقل والسباحة، ويخفف إلى أبعد الحدود مقاومة الماء للحركة. أضف إلى ذلك أن كلَّ سمكة قد زُودت بأعضاء تناسب وظيفتها، فهناك السمك الطائر الذي زُود بما يشبه الأجنحة التي تُضاعف من سرعته إذا أراد أن يلحق بخصمه، أو إذا أراد الهروب منه، ومنها ما زُود بزعانف تمكنه من الدوران والمناورة بسرعة كبيرة، ومنها ما زُود بجسم مفلطح يجعلها تتحمل الضغوط العالية إن كانت تعيش في الأعماق.

عيون أم كشافات؟!

وقد عرضت في معرض باريس صور خاصة عن أعين السمك تظهر قدرة الخالق العظيم، ودقة صنعه؛ فمنها ما يمتلك كشافًا ضوئيًا في القسم الأسفل من كل عين، تستخدمه السمكة في إفزاع أي عدو قادم، أو في التخاطب مع أفراد نوعها من الأسماك، إذ إنها تتحكم في إطفاء هذا الكشاف أو إضاءته، ولا تستخدمه إلا عند الظلام الدامس. ومنها ما تنطوي أعينه على إعجاز خارق، فكل عين تنقسم قسمين أو عينين، لكل منهما بؤرته وحدقته الخاصتان به، كما تصنع الآن بعض النظارات التي تتيح الرؤية للمسافات البعيدة وللقراءة في آن واحد. وهذا النوع من الأسماك يعيش بالقرب من سطح الماء، ويستخدم الطبقة العليا (العين العليا) لرؤية عدوه من طيور البحر إذا انقضَّ عليه من الجو، ويستخدم الطبقة السفلى (العين السفلى) لرؤية ما يجري في بيئته المائية القريبة من السطح لالتقاط ما يصطاده ويقتاته، أو ليهرب من عدوه إن رأى خطرًا يتهدده.

أساليب التمويه والتخفي

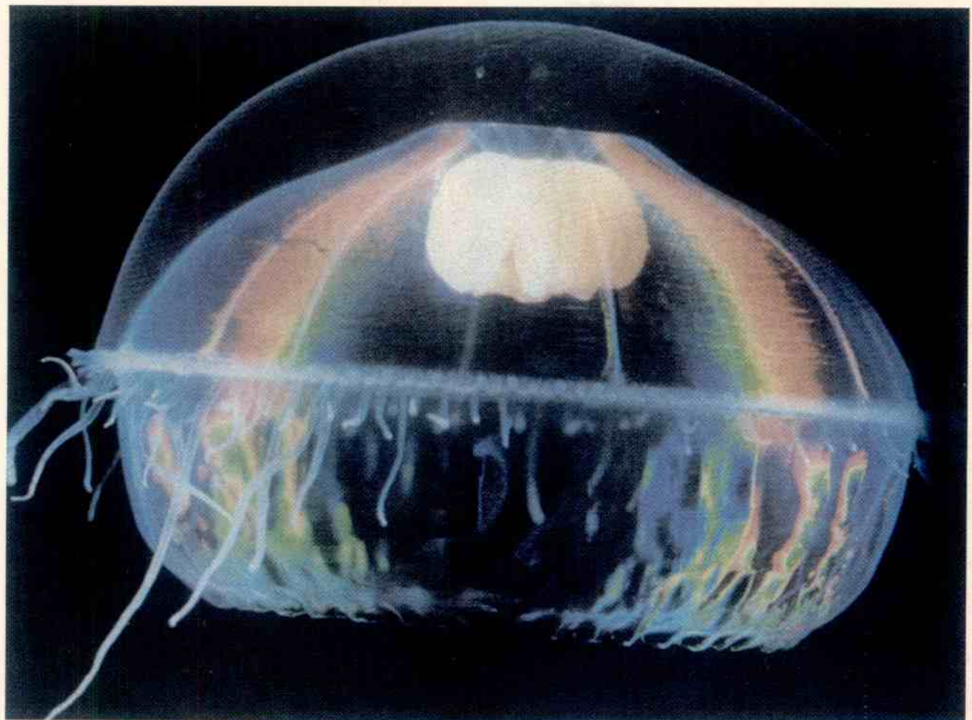
إن تنانين البحر هي سادة التمويه والتخفي في عالم البحار، وهي حيوانات مفترسة ضارية، وأحد الأنواع الحية القلائل التي تصير فيها الذكور حبالى عوضًا عن الإناث.

ولكي تحافظ المخلوقات البحرية على حياتها من الأخطار الخارجية، فإنها تتبع أساليب متعددة أهمها:

استخدام السرعة الخارقة للزوغان والاختفاء حين تشعر بالخطر القريب الذي يتهددها. ومنها ما يستخدم أسلوب التلون



بعض الأسماك ذات المنظر القبيح عرضت في معرض باريس ٢٠٠١م



قنديل البحر الشفاف

بلون المنطقة التي يوجد فيها، سواء أكانت المنطقة شُعباً مرجانية، أم كانت جذوع نباتات بحرية، أم جرفاً صخرياً. ومنها ما يطلق رعشات كهربائية تصرع بها أعداءها كما يفعل سمك الحنكليس. ومنها ما يطلق غمامة من مادة سوداء تُعمي عيون أعدائه كما يفعل الحبَّار. ومنها ما زوده الله بلوامس وأعضاء تشبه أغصان النبات، فلا يعرف الناظر إليه أحيوان هو أم نبات. وتعد تنانين البحر سادة التمويه في هذا المجال، فهي تحاكي الطحالب البحرية المنسابة، التي تتحرك بهدوء متربصة بفرائسها، ويمكِّنها هذا التكتيك من الإطباق عليها. أما إذا أخفق التمويه في حمايتها من الحيوانات المفترسة (كالقرش والأسماك الكبيرة) فإنها تحاول أن تصد الهجوم أحياناً باستخدامها بضع أشواك طويلة حادة موجودة على طول جسمها. وتنانين البحر على نوعين: الطحلبية واسمها العلمي (نيلوبتركس تينولانوس)، والورقية واسمها العلمي (فيكودوروس إكيس)، وقد عرض المصورون والفنانون صوراً أخاذة لتنانين البحر، تظهر طرائق تخفيها العجيبة، وطريقة حملها الغريبة وهي تكثر في الشاطئ الجنوبي الغربي لأستراليا.



بعض أسماك البحر الفائقة الجمال التي عُرضت أيضاً في المعرض

شفافية واستقطاب

ونقف عند وسيلتين مهمتين من وسائل التخفي، تتجلى فيهما قدرة الخالق العظيم وواسع علمه، وهما خاصية الشفافية، وخاصية الاستقطاب.

أما خاصية الشفافية فقد وجد أن هناك تلاؤمات فيسيولوجية بارعة مكنت تشكيلة مذهلة من المخلوقات التي تعيش في أعماق البحار، من أن تكون شفافة على نحو رائع، وقد مكنتها هذه



عنكبوت البحر



سمكة أعماق، وهي على شكل قرص مفلطح لتحمل الضغط



أخطبوط البحر

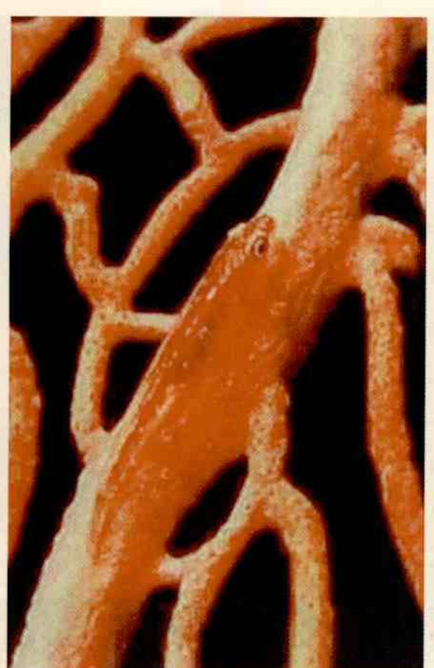
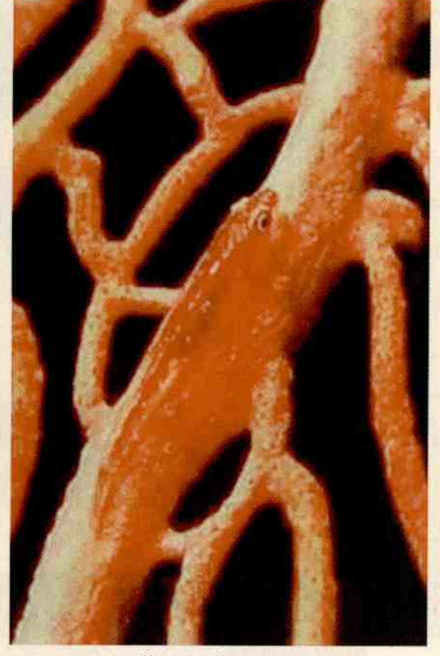
الشفافية من التخفي بشكل مثير. ومن أنواع هذه الحيوانات: قناديل البحر، والهيدروميدوزات، والحلزون الشفاف، ومزدوجات الأرجل، والأخطبوط الشفاف، ورئات البحر، وحاملات المصات.

تعج البحار المفتوحة بحياة حيوانية غير مرئية، تُشكل فيها الشفافية إستراتيجية البقاء لمخلوقات لا تحميها أسنان أو ذيفانات، أو سرعة في الحركة، أو صغر في الحجم.

أما حاملات الممصات فتملك أعضاء لسع ملونة، ولها مظهر سمكة صغيرة، وما إن تلتصق بها الفريسة القريبة حتى تموت فوراً.

وقد أجمع الغواصون الذين التقطوا صوراً للحيوانات المائية الشفافة، أن بعضها كان من الشفافية إلى درجة أنها لم تكن مرئية حتى وهي على بعد سنتيمترات قليلة فقط. ويتمثل القاسم المشترك بين الغالبية العظمى من المخلوقات الشفافة في أجسامها التي تتكون إلى حد كبير من مادة هلامية تتكون في معظمها من الماء غير القابل للانضغاط، وعلى هذا فهي محمية من الضغط الساحق في الأعماق، وهي تستطيع العيش على القليل جداً من الغذاء. وأما معدة الحيوان الشفاف فلا تكون شفافة بسبب ما تحتويه من فضلات طعام مهضومة، وحتى لا تكون رؤية معدة الحيوان الشفاف سبباً معيقاً لتخفيه فقد زوده الله بنسيج عاكس للضوء يحجب المعدة ويكون كالمرآة لأن الضوء الذي يعكسه لا يُميز من الضوء الذي يقع خلفه.

وننتقل الآن إلى الوسيلة الثانية من وسائل التخفي، وهي الاستقطاب، وتستخدمها الحيوانات البحرية وسيلة للتخفي في السباق المستمر بين الآكل والمأكول. والاستقطاب هو السلاح السري الذي تستخدمه بعض المفترسات في مواجهة

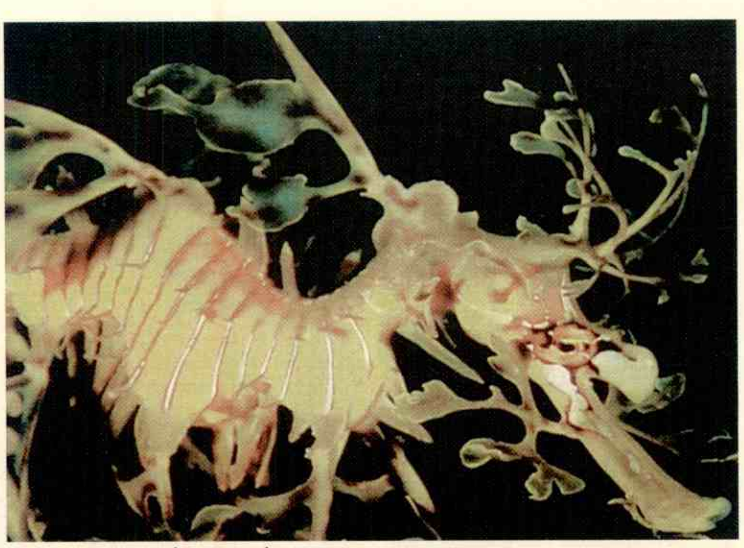
صور تبين حالات التخفي والتمويه

التمويه الذي تضفيه الشفافية، ففي مياه المحيط تبعثر جزيئات الماء الكثير من الضوء محدثة ضوءاً مستقطباً Polarized تتذبذب موجاته تذبذباً متوازياً، ولا يمكن للناس تمييز الضوء المستقطب إلا إذا كانوا يلبسون نظارات شمسية مستقطبة (بولارايد)، ولكنّ عدداً من الحيوانات المائية - ولا سيما القشريات والحبّار - يستطيع رؤية هذا الضوء بعينيه المجردتين دون حاجة إلى وسائل مساعدة، فلئن أفاد الكثير من المخلوقات البحرية من خاصية الاستقطاب وسيلة للتخفي، فقد امتلك بعضها الآخر أعيناً تستطيع رؤية الضوء المستقطب، فتبارك الخلاق العظيم.

إن هذه المخلوقات المائية الحية التي لا يدري الناظر إليها أهي حيوانات أم نباتات، تتحرك وتأكل وتتنفس وترى وتخاف وتتكاثر و تبحث عن قوت يومها، غير أن دورة الحياة عندها معقدة إلى درجة أن العالم لم يتمكن من الوقوف على كل أسرارها حتى اليوم.

ذكر يحمل!

وننتقل الآن إلى مجال من مجالات حياة الحيوانات البحرية، وهو مجال التزاوج وكيفية الاقتران، فقد سجل المصورون والغطاسون صوراً رائعة لأغرب حوادث التزاوج والحضن والولادة. لقد وجدوا مثلاً على خلاف جميع الأحياء، أن هناك فئة من الأحياء المائية يكون الذكر فيها هو الذي يحمل لا الأنثى، كحصان البحر وتنين البحر، إذ إنه عندما تحين لحظة الاقتران يقترب ذكر حصان البحر من أنثاه ويلتصقان فتفرغ الأنثى بيضها في تجويف خاص تحت بطن الذكر ليتم تخصيبه، ثم يفقس بعد تسعة أيام تقريباً، ولكن الصغار تبقى داخل تجويف الأب حتى يكتمل نموها، تتغذى على دم الأب، وتبقى في حضانته حتى تنقضي مدة الحمل، فتخرج الصغار إلى الماء، وتسبح معتمدة على نفسها بينما يستريح الذكر من مهمة الحمل. أما تنانين البحر فهي كما ذكرنا على نوعين الورقانية والطحلبية. وعندما يبدأ وقت



تنين البحر الورقاني الذي لا يميز الناظر إليه أهو حيوان أم نبات

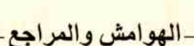
الاقتـران يتـعـانق الذكـر والأنثى فـي رقـصـة بـاليـه جـمـيلة، تتـشـابك فـيـهـا لوحاتهما الورقـية، ويتهاديان نزولاً وصـعـودًا ويـتـمـايلان يمـنة ويـســرة علـى شكل مباراة في المصارعة، ثم تبدأ البـيـوض تخـرج مـن بطن الأنثى، فـتـحـمل الـذكـور الحـبالى هذه البـيـوض مـدة تراوح بـين ٤ أسـابيع و ٥، ولكن لا تضـعها في تجـويف داخل بطنهـا كما يـفعل حـصـان البـحــر، وإنما تضـعــهـا تحت أذنابهـا في مـسننات كـوبـيـة الشكل، وبعـد مـدة تفقـس التنانين الصغيرة من بيوضهـا حاملة كـيسًا مـحيًا صـغيرًا مربوطًا بها، ويزود هذا الكيس التنين بالغذاء طوال الأسـابيع القـليلة القـادمـة، وتسـتـطيع التنانين السباحة واصطياد الطعام بشكل آني بعـد ذلك. أما أغـرب حوادث الحـمل والحـضـانـة، فـهـو عند نوع مـن السـمك البلطي، ويـسـمى Ophthalmotilapia Ventralis.

ويتـضـمن إخـصـاب البـيـوض أسلوبًا غـير مـألوف، إذ إن الأنثى تضع بـيضـة واحـدة ثم تأخـذهـا في فـمــهـا من أجل الحـفاظ عـليهـا، ثم يطلق الذكـر بعـد ذلك حيواناته المنوية في المكان نفسه من فتحة قرب زعنفته البطنيـة، فتحاول الأنثى أن تجـمع هـذه الحـيـوانات، وخــلال ذلك تستنشـقها، وبذلك يتم إخصاب البـيوض داخل فـمـهـا، ومن ثم تـرعى الأم بعض الطحـالب أو تبتلـع أغذية أخرى لتغذي صـغـارهـا الموجـودين في فمهـا. وعـلاوة على الحضانة الفموية عند هذا النوع من الأسماك، فـالأم يمكن أن تؤوي صـغارهـا في فمها عندما يتهدد الصغار أي خطر.

حصانا بحر ذكران حاملان

كم في عالم البـحار من سحر وجـمال، وكم فيـه من آيات تفتن النـاظر، وتدهش المتأمل، وتسـحر العيون. آيات صاغتـهـا يد الخـالق العـظيم، الذي صـدق إذ قـال: *سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ*. **فصلت**:٥٣.

جل جلال اللـه، وتباركت أسمـاؤه، وسبـحان الله رب العـالمين...



الهوامش والمراجع

١- معظم صور المقال مأخوذة من موقع معرض (عالم البحار) على شبكة الإنترنت، وبعضها مأخوذ من مواقع علمية أخرى على الشبكة، ومن مصادر مختلفة.
٢- مجلة Scientific American العدد ١٠ من المجلد ١٦، والعدد ١ من المجلد١٥.
٣- مجلة Science & Technology العدد ١٩.
٤- مجلة الصفر - العددان السابع والثامن من المجلد الثاني.

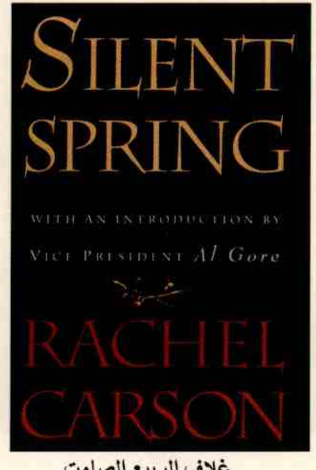
تاريخ البيئة من دهاليز السياسة إلى أروقة الأدب

أحمد بن حامد الغامدي
الرياض - السعودية

إذا صح القول بأن للبيئة دورًا ما في انقراض الديناصورات وتسهيل وصول الشيوعيين والنازيين إلى سدة الحكم، فلا بد إذًا من أخذ موضوع تلوث البيئة على محمل الجد.

الاهتمام بالبيئة ..
مبدأ متوارث أم تقليعة حديثة ؟!

قد يظن بعض الدارسين أن تاريخ الاهتمام بشؤون البيئة يعود فقط إلى عقود قليلة مضت عندما تابع عدد من الناس حول العالم بتعاطف واندهاش حملة السلام الخضر Greenpeace التاريخية لإيقاف صيد الحيتان المهددة بالانقراض. أما المعَمَّرون منا «أطال اللَّه أعمارهم على طاعته» فقد تعود بهم الذاكرة إلى أوائل الستينيات من القرن الماضي عندما انطلقت شرارة الاهتمام بقضايا البيئة بعد نشر كتاب الربيع الصامت Silent Spring، هذه الشرارة التي أشعلت الحماسة العالمية للمحافظة على البيئة إشعال النار في الهشيم. لكنّ عددًا ضخمًا من الكشوف والوثائق تدل دون مواربة على أن تاريخ البيئة حمايةً أو إفسادًا يعود إلى عصور وأزمان غاية في القدم. على سبيل المثال دراسات علم الآثار الحديث تشير إلى أن النشاط المتعمد لحرق الغابات من قبل الأسلاف الأوائل قد حدث قبل ما يقارب الستين ألف سنة في إفريقية، وهذا سيصبح هواية متوارثة فيما بعد خلال التاريخ البشري في هيئة حرق وقطع للغابات ينتج منها تغيرات بيئية وتاريخية واقتصادية متواصلة ليس آخرها طبعًا الجدل المحتدم والمثار حاليًا في المكسيك بسبب فقدان ما يزيد على ثلاثة ملايين هكتار من الغابات سنويًا. ما سبق ذكره يثبت عراقة تاريخ إفساد البيئة وقدمه. أما ما يتعلق بتاريخ المحافظة والحماية للبيئة فيرجع في أقل تقدير إلى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد عندما شرّعت حضارة أور Ur «العراق اليوم»، قوانين تضمن عدم اضمحلال الغابات من جرّاء الاستنزاف الجائر. وبالمثل أقر مجلس الشيوخ الروماني قبل نحو ألفي سنة قانونًا يقضي بحفظ المياه خلال فترات الجفاف لتستخدم لاحقًا، ليس فقط لتوفير مياه الشرب، ولكن أيضًا لتنظيف الطرقات والمجاري. غني عن القول التذكير بأن



غلاف الربيع الصامت

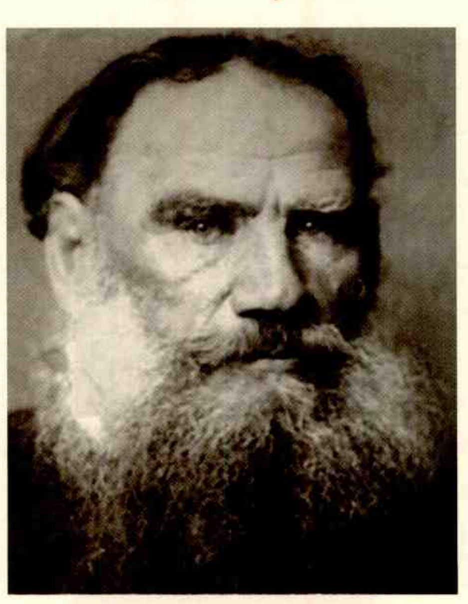
جذور المحافظة على البيئة مغروسة بثبات في تعاليم الأديان السماوية الربانية، بل حتى في شعائر الأديان الأرضية، كالبوذية والهندوسية والكونفوشيسية التي ترشد أتباعها إلى حسن المحافظة على الطبيعة الأم. وللإشارة يكفيك أن تعلم أن الدين الخالد دين الإسلام قد سن لأتباعه شرائع تصب بشكل أو بآخر في مصلحة البيئة، وهي شرائع متعددة ومتنوعة تبدأ من إماطة الأذى عن الطريق، والرفق بالحيوان، وتنتهي بإقامة المناطق المحمية «الحرم في العرف الشرعي». لقد علّم الإسلام أتباعه أنه إذا قامت القيامة وفي يد أحدنا فسيلة نخلة فليغرسها، وهي التي لن تثمر إلا بعد سنوات طوال. وهذا الدين هو الوحيد الذي يكافئ معتنقيه الجنة إذا رفع أحدهم الشوك من الطريق، فما بالك بملوثات العصر الحاضر الأكثر ضراراً وفتكاً؟ وبهذا يتبيّن أن الاهتمام بالبيئة في صوره الأولية هو سلوك بشري ملازم للتاريخ الإنساني منذ فجر التاريخ وبالجملة اهتم الناس بالبيئة منذ الأزل، واعتنوا بها، وعناهم وأقلقهم من أمرها ماعنانا فحالنا وحالهم معها كما قال المتنبي:

صحب الناسُ قبلنا ذا «الزمانا»
وعناهم من أمره ما عنانا

التاريخ يعيد نفسه.. بيئيًا أيضًا

مع أن الفرع المعرفي المتعلق بمجال التاريخ البيئي Environmental History يعدّ من الناحية الزمنية علم حديث نسبيًا إلا أن له أهمية معرفية مهمة جدًا، ليس فقط لمعرفة لماذا وكيف وقعت أحداث تاريخية عظمى، ولكن أيضًا لمحاولة استشراف ومعرفة حاضر ومستقبل التاريخ الإنساني. الكثير من الأحداث التاريخية الاجتماعية والاقتصادية، بل حتى السياسية يمكن فهم المزيد منها إذا أخذنا في الحسبان التاريخ البيئي المتزامن لهذه الأحداث. على سبيل المثال حضارة الأزتك Aztec في أواسط أمريكا الجنوبية انهارت واندثرت قبل ما يقارب ثلاثة آلاف سنة بشكل مفاجئ وحاد تبين فيما بعد أنه راجع لتأكّل التربة الزراعية وملوحتها وتغيرات مناخية مفجعة أدت إلى جفاف الإقليم فترات طويلة. بصورة مشابهة تمكن المؤرخون عن طريق إعطاء أهمية متزايدة للتاريخ البيئي فهم أحداث تاريخية عصية على التحليل، كاندثار مدينة طروادة التاريخية الشهيرة في التاريخ الإغريقي، وكذلك زوال بعض المدن الساحلية في شمال فلسطين والتي يرجع تاريخ بعضها إلى ستة آلاف سنة قبل الميلاد. إن ميزة التاريخ البيئي ليست فقط في تفسير بعض الأحداث التاريخية المبهمة، ولكن أيضًا في الربط بينها، فكثير من الأحداث المتناثرة وغير المتوقعة الحدوث عندما ينظر إليها من منظار زمني مناسب تتضح العلاقات المسببة لها، ثم يتبين أحيانًا احتمالية تكرار وقوع الظواهر التاريخية نفسها وتجددها . فإذا ما كانت ميكانيكيات التغيير البيئي وآلياته متكررة وثابتة فيمكن فهم الحاضر واستشراف المستقبل عن طريق دراسة الوقائع المشابهة والمناظرة في الماضي. وإذا أدركنا أثر البيئة البالغ الأهمية في النشاط

دفع الشعور بالإحباط من الدمار والفساد العظيم الذي لحق بالبيئة إلى ظهور تيارات فكرية مثالية حالمة وخيالية ترغب في استنساخ فلسفة مشابهة لفكرة المدينة الفاضلة



تولستوي



باخرة جرين بيس

الإنساني والذي تسبب بصورة أو بأخرى، في زوال بعض الحضارات والمدنيات العريقة، أمكننا أن ندرك أن القلق على مستقبل بيئة الأرض من باب الترف العلمي، أو الهوس المرضي بتبني أي فكرة والمنافحة عنها، إنما هذا القلق ناتج من احتمال أن يعيد التاريخ البيئي نفسه فتصيبنا مصائبه وفواجعه كما أصابت من سبقنا أو كما قيل:

إذا ما الدهر جرّ على أناس
كلاكله أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا
سيلقى الشامتون كما لقينا

فعِبَرُ الماضي ودروسه تكون خير وسيلة لمحاولة إصلاح الحاضر؛ فالذي يستهين بقطع الغابات في أمريكا الجنوبية يمكن أن يزدجر من مجرد النظر إلى صور جزيرة Ester Island في قلب المحيط الهادي التي تحولت من جنة أرضية إلى أرض جرداء يباب نتيجة استنزاف الغابات لإنشاء التماثيل العبثية العملاقة. وإذا كان أحدنا من هواة السيناريوهات السوداوية والغرائبية فيمكن أن يقيس احتمالية هلاك الجنس البشري عن طريق حدوث اختلال رهيب ومفجع للبيئة كما حصل من هلك الديناصورات وفنائها، إذ تشير بعض الدراسات الجيولوجية الحديثة إلى أن انقراض الديناصورات لم يتم وفق النظرية المشهورة التي تدور على احتمالية ارتطام نيزك ضخم بالأرض في منطقة خليج المكسيك، وإنما تمت هذه التصفية بالجملة نتيجة النشاطات البركانية الهائلة التي حصلت قبل ٦٥ مليون سنة وبالخصوص في منطقة الهند والتبت مما

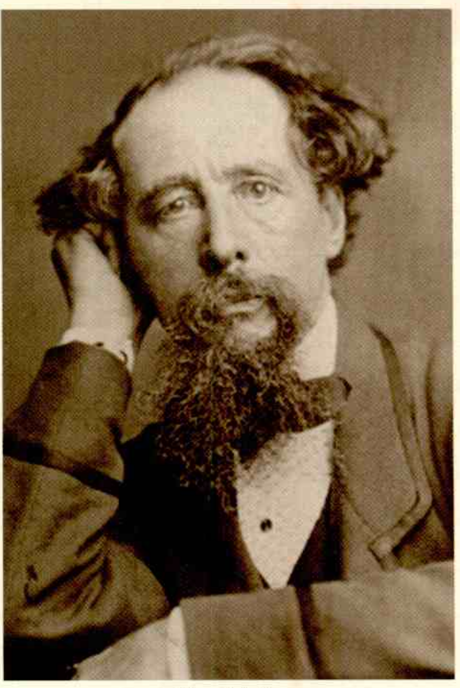
أدى إلى اكتساء الغلاف الجوي للأرض بغلالة وغطاء أسودين كثيفين مدة طويلة سبب القضاء على النباتات والزواحف العملاقة التي أهلكت بالحرارة العالية المتصاعدة من الحمم أو نفقت اختناقاً من الغازات السامة أو قضى عليها الجوع أو البرد والزمهرير. هذا الافتراض العلمي وإن لم يتم إثباته تماماً إلا أنه يشابه إلى درجة ما فكرة الشتاء النووي المحتمل حصولها على سطح الأرض في حال نشوب حروب نووية مهلكة قد يتبعها تكون عباءة سوداء تلف كوكب الأرض وتقضي على البقية الباقية من الحضارة الإنسانية.

تنبيه أخير يجدر الإشارة إليه هو أن التاريخ البيئي قد يفسر الميكانيكية التي حصلت بها بعض الأحداث التاريخية، وبالأخص تلك المتعلقة بالزوال المفاجئ لبعض الحضارات، لكن هذا لا يعني أن نغفل عن بعض الحقائق الشرعية بأن هلاك بعض الأمم كان من جراء عقاب إلهي حاسم وفق السنن الإلهية، وليس فقط لحصول جفاف هنا أو فيضان وطوفان هنالك.

البيئة من منظور الأنشطة الإنسانية

كما ذكرنا سابقًا يمكن أن يوجد ترابط بين عدد من التغيرات البيئية والنشاط البشري خلال التاريخ. فالجانب الاقتصادي من النشاط البشري له آثار معلومة وبيّنة في البيئة، من أمثلة ذلك استنزاف الغابات في أمريكا الجنوبية وجنوب شرق آسيا لتوفير متطلبات صناعة الورق أو حتى لتوفير الأراضي الزراعية البديلة والمربحة تجارياً، فهذا النشاط الاقتصادي ضار جداً بالبيئة، ولا أضر منه بالبيئة إلا الممانعة والتململ الأمريكي من التوقيع على اتفاقية كيوتو بسبب الأمور الاقتصادية الباهظة جداً التي يجب أن تبذل لتحقيق تقليص وتخفيض متواضعين لانبعاث الغازات المسببة للانحباس الحراري. كذلك كان الدافع الاقتصادي فعالاً جداً في بدء استخدام عدد من المركبات الكيماوية ذات الآثار البيئية والصحية الضارة مثل استخدام غاز الفحم في إضاءة الطرق في القرن التاسع عشر أو استخدام مركبات الرصاص لتحسين الاحتراق الداخلي للسيارات لدرجة أن مركب Tetraethy Iead استخدم في الصناعة بعد مرور نحو سنة من اختراعه، وعلى الرغم من التحذيرات الجادة منذ البداية من الأخطار الصحية المصاحبة له، لكن الأطماع الاقتصادية اكتسحت بقوة الموانع الأخلاقية.

كان الدافع الاقتصادي فعالاً جداً في بدء استخدام عدد من المركبات الكيماوية ذات الآثار البيئية والصحية الضارة، وكان للبيئة تأثير في الإنتاج الأدبي والشعري


تشارلز ديكنز

من جانب آخر كان للبيئة بعض التأثير في الأنشطة الإنسانية البالغة الشعبية ألا وهو الإنتاج الأدبي والشعري. ومن أقدم الأمثلة على ذلك أسطورة جلجامش السومرية القديمة جداً التي تصف غضب الآلهة المزعومة على جلجامش الرمز الإنساني لأنه قام بقطع غابات الأرز، وتحدى الآلهة، ومن ثم عوقب بالطوفان المدمر. بعد ذلك بآلاف السنين سوف يتحسر أحد شعراء روما القديمة على انطفاء سحر هذه المدينة الفاتنة نتيجة



آثار آزتيك

الدخان والضجيج والروائح الكريهة المنبعثة منها. وللتدليل على خطورة التلوث البيئي استفتح الروائي البريطاني الشهير تشارلز ديكنز إحدى رواياته بوصف كئيب ومخيف لشوارع لندن في القرن التاسع عشر مدينة الضباب القاتم المنبعث من فوهات المداخن وليس الضباب الدال على شاعرية الطبيعة وجمالها. أما ما يتعلق بأدبنا الإسلامي الرفيع فلك أن تراجع شعر البحتري البديع في وصف جمال البيئة الطبيعية أو في الضفة الأخرى لك أن تتذوق انطباع شعرائنا المحدثين نسبيا عن التلوث المصاحب لوسائل النقل العجيبة في ذلك الزمن مثلما هو حاصل من وصف شاعر العراق الرصافي لقاطرة البخار التي ترمي الفضاء بدخانها الكثيف، أو حتى أشعار أحمد شوقي الهزلية من مثل شعره في «الأوتومبيل» الملوثة البيئية والنهمة التي لا تشبعها حسب عبارات شوقي عين جارية من البنزين فوّارة.

الصفحات المنسية من تاريخ البيئة السياسي

على الرغم من العلاقات التفاعلية المنطقية بين الأحداث والعوامل السياسية والتغيرات البيئية، إلا أن هذا الموضوع الشائق والحساس لم يلاق حقه من الإيضاح والتبيين، وهو ما سوف نحاول إبراز بعض جوانبه وصفحاته المطوية. وبما أن العلاقة التفاعلية بين البيئة والسياسة متشعبة ومتنوعة فسوف نلقى أضواءً خاطفة على كل موضوع؛ مما يؤدي بشكل مختزل إلى تشكيل صورة فسيفسائية وموازيكية تعين على فهم هذا التلازم بين البيئة والسياسة. لو تصفحنا أولاً التأثير الإيجابي للسياسة في البيئة «وهو بالمناسبة شحيح وبدأنا به من باب جر الخصم إلى أرض المعركة»، نجد أحياناً أن السياسة وصناعها ولحاجة في نفس يعقوب قد تسن القوانين التي قد تحافظ على البيئة.

فمثلاً صدر قانون في فرنسا في القرن الثالث عشر الميلادي ينظم قطع الغابات وإنتاج الأخشاب، وكذلك قبل سنين حاول الاتحاد الأوروبي بقوة فرض ضريبة كربون على الواردات النفطية. وإذا كان المثل الدارج يقول: إن الذئب لا يهرول عبثاً؛ فالتشريع الفرنسي الأول قصد به في الدرجة الأولى ضمان توفير الأخشاب اللازمة للبحرية

على الرغم من العلاقات التفاعلية المنطقية بين الأحداث والعوامل السياسية والتغيرات البيئية، إلا أن هذا الموضوع الشائق والحساس لم يلاق حقه من الإيضاح والتبيين

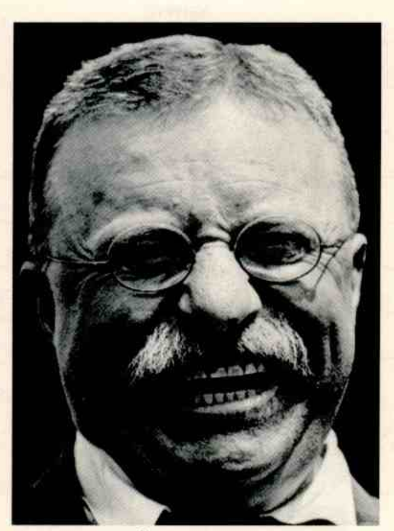
الفرنسية ليس غير، وأما ضريبة الكربون فيقال: إن الدافع لها اقتصادي بحت طمعاً في المليارات الضخمة التي سوف تحصل من ورائها بدليل عدم تطبيق الضريبة بصورة مشابهة على الفحم المستخرج محلياً، وهو أكثر تلويثاً للهواء بمراحل كثيرة. أما الآثار البالغة السوء للسياسة والحرب على البيئة فهي أوضح وأشهر من نار على علم، فالأمريكان حرقوا الأخضر واليابس بالمواد الكيماوية في فيتنام وتسببوا في كارثة بيئية مهولة في اليابان باستخدام القنابل الذرية. وفي حرب الخليج الأخيرة تحول النهار إلى ليل نتيجة إحراق مئات الآبار النفطية فضلاً عن تلويث مياه الخليج بملايين البراميل من النفط.

في المقابل إذا انتقلنا إلى الجانب الآخر من العلاقة



تماثيل في جزيرة الفصح Easter Island

التفاعلية نجد أن للبيئة آثاراً جلية في تشكل الأحداث السياسة فعلى سبيل الاستشهاد حقق نابليون بونابرت انتصارات كاسحة في أوروبا، ولكن عندما يمم وجهه واتجه شرقاً لغزو روسيا بدأت أوائل هزائمه العسكرية الكبيرة التي خلدها الروائي الروسي الشهير تولستوي في ملحمته الذائعة الصيت «الحرب والسلام»، فلقد استعصت روسيا على الهزيمة بسبب بردها القارس، وثلجها الكثيف؛ ولذلك علق نابليون بخبث ودهاء ماكر بأن الذي هزمه هو الجنرال «ثلج». وشهادة للّه فإن نابليون هنا قد يكون محقاً؛ فالظروف البيئية لم تكن في صفه؛ إذ إن هذا الجنرال الثلجي سوف يهزم في مستقبل الأيام قائداً سياسياً أشد فتكاً وقسوة منه ألا وهو هتلر النازي الذي قادته حماقته إلى فتح جبهة جديدة مع روسيا تنتهي بمحاولة فاشلة ومكلفة جداً بشرياً لاقتحام موسكو. الظروف البيئية أيضاً ستخلد قائداً عسكرياً ليس أكثر حظاً من سابقيه،



تيودور روزفلت



أدولف هتلر

إلا العامل البيئي والجغرافي. وللأسباب نفسها ظلت مناطق متعددة خارج التأثير السياسي لفترات وأزمنة طويلة بسبب انعزالها الجغرافي والبيئي مثل إقليم التبت سقف العالم، وأواسط جزيرة العرب، وأغلب المناطق الجنوبية للصحراء الكبرى، وأدغال القارة السمراء.

وإذا كانت السياسة هي فن الممكن فهي أيضاً فن الاستغلال والنفاق وركوب الموجة؛ ولهذا كثيراً ما يخدع السياسيون الناس بمعسول الكلام حتى يصلوا إلى سدة الحكم، ويتمكنوا من مقاليد الأمور، وبعد ذلك ستكون مواعيد عرقوب لهم مثلاً وقدوة. وهذا ما حصل شيء منه مع الفكر الشيوعي والحزب النازي، وبدرجة أقل خداعاً مع الثورة الفرنسية، فهؤلاء ارتدوا مسوح الحدب والاهتمام بالبيئة وحقوق الإنسان لكسب الشعبية والدعم الجماهيري في صورة أشبه ما تكون بالمتاجرة بالقضايا

لكن سيكون سبب تخليده مرتبطاً بهمته العالية وبغرائبية أفكاره وتحديه للعوامل البيئية والتضاريسية ألا وهو الجنرال القرطاجي هنيبال الذي حاول غزو روما باستخدام الفيلة الضخمة التي عبر بها جبال الألب الشاهقة ليثبت بحق أنه إذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام، كما قرر ذلك المتنبي. أما في تاريخنا الإسلامي المشرق فقد وقف القائد المسلم الفذ عقبة بن نافع على صهوة جواده على ساحل المحيط الأطلسي وقال قولته المشهورة: إنه لو كان يعلم خلف هذا البحر أرضاً لعبر البحر ولأكمل غزوه في سبيل الله، فلم يوقفه

المصيرية. فقد عاب الفكر الشيوعي على الرأسمالية استغلال طاقات الأرض والشعوب لمصلحة الفرد، وكذلك انتقدوا سوء معاملة العمال، وبالأخص النساء والأطفال، وطلبوا توفير ظروف العمل الصحية التي لها ارتباط بالبيئة فيما سيتعارف عليه لاحقاً بالأضرار والأخطار المهنية Occupational diseases & hazards. ومن الإشارات كذلك على عزف الشيوعيين على وتر الاهتمام بالبيئة الحساس تنظيرهم لحسن التعامل مع الطبيعة عن طريق التخطيط السليم للتكنولوجيا التي يتم من خلالها السيطرة على الطبيعة، ومثل هذا التنظير واضح

في خطابات منظر الشيوعية الأول تروتسكي أحد أعمدة الثورة البلشفية الروسية.

أما الحزب النازي فقد حاول كسب تعاطف عدد من الناس عندما انتقد بشدة الأثر السلبي للحضارة المادية «حضارة الأسفلت حسب تعبير صحيفة الحزب الرسمية»، التي سوف تدمر وتزيل أسلوب الحياة الريفي والقروي مما يعكس اهتمامًا بحماية البيئة البكر من ويلات الحضارة المادية الطاغية. وهنالك بعض الإشارات عن احتمال اعتناق النازيين الأوائل لمنهج البيئوية وفكرها Environ-mentalism بدليل أن شعار حزبهم كان (Blut and Boden) الدم والتربة أو الأرض؛ مما يعطي انطباعًا عامًا باهتمامهم بالطبيعة. وبصورة أقل وضوحًا وحسمًا في مجال الاهتمام ببعض شؤون البيئة نجد أن الثورة الفرنسية حرصت على كسب التعاطف والمؤازرة؛ ليس فقط برفعها شعار الحرية والمساواة والإخاء، ولكن أيضًا بحرصها على ضمان حصول الرعاية الصحية لجميع الأفراد، وبخاصة العلاج الطبي المجاني للفقراء. وفي الواقع، فان استخدام البيئة وسيلة وسلمًا للوصول إلى السلطة سوف يستمر حتى أواخر القرن العشرين عندما تظهر أحزاب جديدة «وإن كانت أكثر مصداقية ونزاهة» في المعترك السياسي في أوربا الغربية من خلال مايسمي ظاهر الأحزاب الخضراء Green Parties التي من أهم مبادئها وأسسها انتهاج سياسة المحافظة على البيئة.

فالترابط والتلازم بين سلامة البيئة والأوضاع الصحية للمجتمع أصبح من الأمور البدهية التي لا



رونالد ريغان



بيل كلينتون



آل غور

جدال فيها؛ فتوفير الرعاية الصحية، وإنشاء شبكات الصرف الصحي، وتوفير المياه والأغذية النقية، كل ذلك يعطي انطباعًا على الوضع البيئي لحضارة ما. ومن طريف الربط بين صحة الشعوب وقوتها السياسية والحضارية أن بعض الدارسين أرجع بعض أسباب انحدار الإمبراطورية الرومانية وتقهقرها إلى أن الطبقة الأرستقراطية المتنفذة والمديرة لشؤون البلاد كانت مصابة بالتسمم بالرصاص نتيجة التقليد الشائع في ذلك الزمن لهذه الطبقة من إضفاء حلاوة على النبيذ المعتق عن طريق تخزينه في أوعية تحتوي على قطع من الرصاص لإعطاء المذاق المطلوب مما سبب طبعًا أمراضًا خطيرة متعلقة بالتسمم بالرصاص كان نتيجة ذلك وهن السلطة المسيرة لشؤون الإمبراطورية. في اعتقادي الشخصي أن هذه الحادثة التاريخية سوف تزيل سوء الظن الذي ظننته بسلوك الملك البريطاني إدوارد الأول وتسلطه الذي منع في القرن الرابع عشر حرق الفحم في لندن عندما يكون البرلمان البريطاني منعقدًا. في الحقيقة الآن تبيّن لي أن ذلك كان حرصًا على سلامة خيرة كهول البلاد وعجائزها من التلوث الهوائي وإلا سوف يصيب بريطانيا العظمى ما أصاب أسلافها الرومان من الاضمحلال السياسي، وهو ما قد حصل، وبصورة مقاربة لكن هذه المرة يتعلق بعضلات الإمبراطورية البريطانية، وليس بعقلها المدبر والمترهل، فقد تبيّن في منتصف القرن الثامن عشر أن مرض الأسقربوط الذي كان يفتك ببحارة

الأساطيل البحرية الإنجليزية أكثر مما كانت تفتك بهم المعارك الحربية، تبيّن أن علاج هذا المرض العضال غاية في السهولة لا يتعدى سوى تناول برتقالة واحدة كل يوم. العجيب أن تناول البحارة الإنجليز لهذا

ميزة التاريخ البيئي ليست فقط في تفسير بعض الأحداث التاريخية المبهمة، ولكن أيضاً في الربط بينها

العالمية الثانية، إلا أنها مع ذلك سببت آثاراً بيئية خطيرة. لقد ساهمت تقنية الوقود الحاوي على الرصاص الذي يعطي كفاءة أعلى لمحركات الاحتراق الداخلي، وكذلك تقنية المطاط الصناعي، ساهم كلاهما في



الوادي العظيم

العلاج السحري الخارق «فيتامين سين» حسن أداء الأسطول البريطاني مما مكنه بعد ذلك بعقود من التفوق على الأسطول الإسباني «الأرمادا» والأسطول الهولندي. وإذا كان البرتقال والليمون ليس لهما آثار بيئية تذكر عدا علاجهما لأحد الأمراض المهنية المزعجة؛ فان مركبات كيماوية أخرى ضمنت التفوق الحربي في أثناء الحرب

تفوق آليات قوات الحلفاء ومركباتها ضد قوات دول المحور، ولكن هذه المرة بآثار بيئية وصحية غاية في الضرر.

العلاقة بين رجال البيئة ورجال السياسة .. تكامل أم تضاد؟

العلاقة التفاعلية بين رجالات السياسة ورجالات البيئة مثال آخر من صور الترابط والتأثير المشترك

بين البيئة والسياسة. فمن أبرز السياسيين على الإطلاق الذي تبنى الموضوعات البيئية بصدق، العالم والسياسي الأمريكي بنجامين فرانكلين أحد أساطين السياسة الأمريكية القديمة المساهم في كتابة مسودة وثيقة الاستقلال عن بريطانيا، وهو كذلك بالمناسبة صاحب التجربة الحماقة لدراسة الكهرباء في الغيوم عن طريق إرسال طائرة ورقية إلى قلب العاصفة الرعدية. لقد كافح فرانكلين منذ أوائل شبابه ضد التلوث الصناعي في مدينة بنسلفينيا، وساهم بقوة في إصدار قوانين تنظيمية لعدد من المشكلات البيئية، مثل: تلوث المياه، ورمي النفايات الصناعية، كما استمر هذا الاهتمام بقضايا البيئة حتى وفاته. فقد نص في وصيته على استقطاع مبلغ من المال من ثروته لإنشاء شبكة لمياه الشرب إلى فيلادلفيا إدراكًا منه للعلاقة الوطيدة بين مياه الشرب وعدد من الأمراض. ومن السياسيين المهتمين كذلك بالبيئة الرئيس الأمريكي ثيودور روزفلت الذي آزر ودعم سياسة المحافظة على البيئة الطبيعية عن طريق إقامة المحميات والحدائق العامة الفخمة جداً مثل: متنزه الوادي العظيمGrand Canyon فيما عرف في ذلك الوقت بسياسة الاستخدام الأحكم Wise use للطبيعة.

ومن آخر السياسيين المؤيدين لقضايا البيئة نائب الرئيس السابق ومرشح الرئاسة آل جور الذي ألف كتاباً عام ١٩٩٢م، بعنوان «أرض في الميزان» مما قد يكون عزز موقعه لانتخابات نائب الرئيس فيما بعد لكن لحسن حظه وقف استخدامه للبيئة عند هذا الحد، إذ إنه لم يتهور مرة أخرى، ويزعم أنه أبو البيئة كما زعم من قبل بأنه أبو الإنترنت مما جلب عليه سخرية عالمية مستحقة. لكن، والحق يقال، لقد كان لآل جور تأثير واضح في حث الرئيس كلنتون على الموافقة على ضم عشرات ملايين الهكتارات من الغابات إلى المناطق الطبيعية المحمية، وكذلك إلى تبني جائزة رئاسية مرموقة جداً في مجال الكيمياء الخضراء يهدف منها بشكل رئيس إلى حماية البيئة. وإذا كان لبعض الساسة دور إيجابي معلوم في حماية البيئة فإن لبعضهم الآخر رصيداً سيِّئ الذكر نظير مضادتهم لتيار المحافظة على البيئة، مثل اثنين من فريق إدارة الرئيس ريجان اللذين أجبرا على الاستقالة نتيجة للضغوط الشعبية عليهما بسبب توجهاتهما غير الحضارية المضادة للبيئة. ومن السياسيين المحدثين الذين يتوقع أن يخيبوا الآمال فيما يتعلق بمواقفهم البيئية، الرئيس الأمريكي الجديد بوش الابن الذي استهل حكمه بتخبط بيئي مروع ابتداءً من رفضه الموافقة على التوقيع على اتفاقية كيوتو الهادفة إلى حماية البيئة عن طريق تقليص إنتاج الغازات الملوثة للهواء، ومروراً بدعمه القوي لمصادر بديلة ونظيفة للطاقة. أما آخر مواقفه السلبية لمناصرة البيئة فكان صرف النظر عن سياسة توسع المحميات الطبيعية التي بلغ حجمها في عهد سلفه رقماً قياسيًا، إضافة إلى اعتذاره الأخير والمربك عن حضور قمة الأرض الثانية المنعقدة في جنوب إفريقية.

يسن السياسيون قوانين للمحافظة على البيئة «لحاجة في نفس يعقوب»، إذ للبيئة أثرها في كثير من الأحداث السياسية

التخوف الحقيقي يكمن في أن أغلب هذا التراجع البيئي تم في خلال السنة الأولى فقط لرئاسة هذا الحاكم الجديد، لذا فإن مستقبل العالم السياسي والبيئي يبدو مظلماً وغامضاً، والعلم عند الله.

ومن جانب آخر نجد أن مثل المهتمين والقلقين على أمور البيئة كمثل من يمشي في حقل الألغام يوشك أن يصيبه الهلاك بعد أي خطوة يخطوها، وما ذلك إلا لحتمية تقاطع المصالح وتعارضها بين رسالة المحافظة على البيئة ومصالح بعض الدول والأنظمة أو الشركات المتنفذة ولهذا تتعدد مآسي العاملين في مجالات الحفاظ على البيئة بسبب التلازم - كما ذكرنا - بين البيئة والسياسة مثلما حصل مع ناشطي حركة



مظاهرات معارضين للكارثة التي سببتها شركة يونيون كاربايد في الهند

الحصاد المر للتلوث .. عقد نفسية ومآس اجتماعية

إن الحديث عن الآثار الاجتماعية والمشكلات النفسية المتحققة من تلوث البيئة أو حتى من فقدان الطبيعة البكر نتيجة اكتساح الحضارة المادية، أصبح من المسلمات التي لايجادل فيها أحد، وكأنها بذلك أصبحت من باب المعلوم من الواقع بالضرورة. لذا سوف أشير بشكل خاطف ومختصر إلى النتائج النفسية والاجتماعية المتعلقة بتلوث البيئة، ليس فقط لضيق المساحة المتاحة وطول الموضوع، ولكن أيضاً لتقليل المعاناة النفسية وجلد الذات لنا معاشر الكيميائيين؛ لأن كثيراً من هذه المآسي هي من نتائج أيدينا بشكل أو آخر. لتخيل عمق العقد النفسية، وحجم المشكلات الاجتماعية لك أن تسترجع من الذاكرة بعض الفواجع البيئية الأليمة مثل حادث ترسب الغازات السامة من أحد مصانع Union Carbide في مدينة بوبال في الهند الذي تسبب في حصول مناحة في كثير من البيوت الهندية بمصرع ٢٠٠٠ شخص، وإصابة الآلاف بالعمى، وهلاك الآلاف الآخرين بالأمراض المزمنة. وبالمثل تعرض آلاف الأطفال للأمراض السرطانية الخبيثة في أوكرانيا نتيجة لحادث انفجار مفاعل تشرنوبل النووي، وقل مثل ذلك بهلاك آلاف من الأشخاص من جراء تلوث الهواء بالضباب الكثيف الخانق في منتصف القرن الماضي في لندن ولوس انجلوس ونيويورك وغيرها. وكمثال على المشكلات النفسية، تخيل فقط أن تكتشف بعد عشرات السنين أن الأمراض الطبية المستعصية التي تصيب أبناءك

السلام الأخضر الذين تعرض ولا يزال عدد منهم يتعرض لمضايقات لا حصر لها، كان أكثرها مأساوية حادثة تفجير سفينتهم الشهيرة Rainbow Warrior في نيوزلندا بواسطة عملاء المخابرات الفرنسية الدولة الرائدة في الحرية السياسية، فضلا عن الحرية الفكرية - زعموا - مما تسبب في مقتل أحد أفراد حماة البيئة الخضر. كذلك تم اغتيال الناشط البرازيلي Chico Mendes الذي ناضل من أجل المحافظة على غابات الأمازون التي يعيش فيها آلاف القرويين، وأفراد القبائل البدائية الذين يعتمدون في بقائهم بعد الله على هذه الغابات. وقريباً من ذلك إعدام تسعة من المهتمين بشؤون البيئة عام ١٩٩٥م، من ضمنهم الصحفي والناشط البيئي Ken Saro_wiwa الذي حارب سنوات التلوث البيئي الذي تقوم به شركة شل البترولية في أحد أقاليم نيجيريا. المخزي - حقاً - هذه المهزلة نفسها تكررت مرة أخرى ولكن هذه المرة في المكسيك عندما وجهت تهمة حيازة الأسلحة والمخدرات لاثنين من الناشطين في مجال البيئة والداعين إلى حماية الغابات المطيرة من الاستنزاف، وما ذلك إلا لإسكات مثل هذه الأصوات الجريئة والمقلقة.

وأبناء جيرانك راجعة بشكل مؤكد إلى أن قطعة الأرض التي اشتريتها بدم قلبك ماهي إلا مجمع ومرمى نفايات كيماوية سامة تم طمره وتحويله إلى منطقة سكنية خداعة المظهر، كما حصل في فضيحة منطقة Love Canal في أمريكا. أو تصور أن منطقة طفولتك الخلابة وصلت إلى درجة مفزعة من التلوث تمثلت في أن نهر المنطقة الجميل يتم تلويثه بالوقود والمخلفات الكيماوية لدرجة أن يشتعل النهر كله كتلة من اللهب، كما حصل لأحد أنهار ولاية أوهايو. لقد دفع الشعور بالإحباط من الدمار والفساد العظيم الذي لحق بالبيئة إلى ظهور تيارات فكرية مثالية حالمة وخيالية ترغب في تصحيح الكون عن طريق اختلاق واستنساخ فلسفة مشابهة لفكرة المدينة الفاضلة Utopia عن طريق إقامة المدينة البيئية الفاضلة Ecotopia التي سيكون فيها سلوك المجتمع وتصرفاته ومبادئه وفق المنظور والضوابط البيئية. ولإعطاء مثال آخر للترابط بين التغيرات الاجتماعية وشؤون البيئة نشير إلى أنه عند ظهور الحركات النسائية في أوائل القرن الماضي كان في طليعة اهتمامهن بعد تحسين أوضاعهن السياسية الانتخابية والاجتماعية تحسين أوضاع البيئة، فقد ساند نادي النساء Women Club عدداً من قضايا البيئة، مثل إقامة المحميات الطبيعية، وتنفيذ الإصلاحات البلدية. وقد كان لنساء كثيرات بصمات واضحة جداً على البيئة، لعل من أهمهن على الإطلاق عالمة الأحياء Rachel Carsons التي أشعلت شرارة الاهتمام بالبيئة في الستينيات الميلادية بتأليفها كتابها الذائع الصيت «الربيع الصامت». ومنهن أيضاً Alice Hamilton الطبيبة التي ناضلت ضد استخدام الوقود الحاوي على الرصاص وكذلك دافعت عن حقوق العمال بضمان ظروف عمل غير خطرة وتمتعهم بالرعاية الصحية وبالخصوص في القضية التي اشتهرت باسم فتيات الراديوم والتي تعرضت فيها مجموعة من العاملات للأمراض السرطانية نتيجة تعرضهن للإشعاعات الذرية.

الاهتمام بالبيئة وسيلة انتحار

اعلم قارئي العزيز أنني قد أثقلت عليك بأمور البيئة وقضاياها المتشعبة والمتنوعة، ومع اعتذاري الشديد عن الإطالة فإنني سأفضي إليك بملاحظة أخيرة في شكل نصيحة، وهي أنه إذا كنت من المتحمسين لقضايا البيئة فأوغل في هذا النشاط الحضاري برفق واستعداد مسبق لتوديع حياة الخمول والدعة؛ والسبب في ذلك أن عدداً لا بأس به من الناشطين في هذا المجال واجهوا مشكلات سياسية مهلكة، كما ذكرنا سابقاً، وبعضهم الآخر واجه حروباً نفسية واستنقاصاً وسخرية، كما حصل للعالمة السابقة الذكر Rachel التي تعدّ الأم الروحية للتيار البيئي، ومع ذلك فقد واجهت سخرية مرة وحروباً شنيعة من قطاع الصناعة والزراعة، وبعض المؤسسات الحكومية بعد نشرها كتاب Silent Spring، بل واجهت تشنيعاً مخزياً من بعض العلماء الذين كتب أحدهم مقالة قاسية جداً في مجلة الجمعية الكيميائية الأمريكية بعنوان (Silence, Miss Carsons)، ولهذا ليس عجباً أن تتوفى هذه العالمة بعد سنتين فقط من هذه الأحداث الساخنة، وهي بعد في الـ(٥٧) من عمرها.

ومن الأمثلة كذلك الكاتب John Muir الذي أصيب بالعمى المؤقت في طفولته، وعندما منّ الله عليه، وارتد بصره قصر حياته كلها على مشاهدة الطبيعة والمناضلة لأجل المحافظة عليها، وهو ما نجح فيه بشكل كبير تمثل في تشريع إقامة عدد من المحميات الطبيعية في عهد روزفلت. ولفرط حماسة جون واعتناقه لقضايا البيئة لم يستطع تحمل إخفاقه في منع إنشاء سد مائي سوف يطمر عدداً من الأراضي والأودية الطبيعية، لذا أثرت هذه الهزيمة في نفسية رجل البيئة هذا الذي مات في السنة التالية. وإذا كنا جمعياً نؤمن بأن الأعمار بيد الله، فمع هذا يجب أن نأخذ الأمور بعقلانية وتدرج؛ فالحماسة الزائدة مهلكة، كما قال رسولنا الكريم عليه الصلاة والسلام واصفاً النتيجة الحتمية للحماس الزائد والعاطفي: «إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى».



أسماء الفائزين في مسابقة العدد (٣١٣)

رجب ١٤٢٣هـ / أكتوبر ٢٠٠٢م.

الفائز الأول: **محمد عمر علي بن زقر ـ المكلا ـ اليمن.**

الفائز الثاني: **سامي محمد عبدالكريم سعد ـ شبراخيت ـ مصر.**

الفائز الثالث: **دارين فيصل شقير ـ دمشق ـ سورية.**

الفائز الرابع: **آمال شفيفيك ـ الدار البيضاء ـ المغرب.**

الفائز الخامس: **المازري محمد بقة ـ المنستير ـ تونس.**

الفائز السادس: **أكرم عيسى موسى خليفة ـ عمّان ـ الأردن.**

الفائز السابع: **محمد عبده سعيد ـ صنعاء ـ اليمن.**

الفائز الثامن: **فكرية عبدالكريم حسن ـ القاهرة ـ مصر.**

حل مسابقة العدد (٣١٣)

١ـ وأهلكني تأميلُ ما لستُ مدركًا
وتأميلُ عام بعد ذاك وعام

قائل البيت هو: **عمرو بن قميئة.**

٢ـ عبدالرحمن الكواكبي: مفكر عربي سوري، انصرف إلى قضايا التحرير والإصلاح.

٣ـ كوكبان: حصن شهير في اليمن.

٤ـ الهليكون: آلة موسيقية.

٥ـ أفروديت: إلهة الحب والجمال عند الإغريق.

أسئلة مسابقة العدد (٣١٦)

ضع علامة ☑ أمام الإجابة الصحيحة:

(١) من قائل هذا البيت:

إنما الوردُ من الشوكِ وما يَنْبُتُ النرجسُ إلا من بَصَلْ

☐ ابن الوردي ☐ دعبل الخزاعي.

(٢) الميكادو: ☐ إمبراطور اليابان ☐ أحد فرسان الحرس الملكي الفرنسي بين عامي ١٦٢٢ و ١٧٨٦م.

(٣) اللامية: ☐ نبات من الفصيلة القرنفلية ☐ بوذية التيبت ومنغوليا.

(٤) اللاعقلانية: ☐ مذهب أدبي نشأ في فرنسا يشدّد على أن كل عمل أدبي هو عمل غير عقلاني

☐ نظام يؤكد الحدس أو الغريزة أو الشعور أو الإيمان أكثر من تأكيده العقل.

(٥) فلورا: ☐ إلهة الزهور في الميثولوجيا الرومانية ☐ أفعى سامة من أفاعي آسيا الشرقية.

الاسم: ________ **المدينة:** ________ **ص.ب:** ________ **هاتف:** ________

العنوان: ________ **الدولة:** ________ **الرمز البريدي:** ________ **ناسوخ:** ________

■ **نأمل من الإخوة الذين يشاركون في المسابقة من خارج المملكة العربية السعودية كتابة أسمائهم بالحرف اللاتيني؛ لأن المصارف (البنوك) تصدر الشيكات الخارجية باللغة الإنجليزية.**



شروط المسابقة

- الإجابة عن جميع الأسئلة بشكل صحيح.
- لا تقبل إلا الإجابات المدونة على هذه القسيمة.
- إرسالها خلال ٤٥ يومًا من بداية الشهر العربي الذي صدر فيه العدد.
- أن يكتب المتسابق اسمه وعنوانه كاملاً داخل القسيمة.
- أن يكتب على الظرف (مسابقة العدد .....).

طريقة اختيار الفائزين

- تفرز جميع القسائم التي ترد من القراء.
- يتم استبعاد القسائم التي تكون ناقصة الإجابات.
- تجمع الإجابات الصحيحة، وتعمل قرعة بينها للفائز الأول، وقرعة أخرى للفائز الثاني، ثم قرعة للفائز الثالث، وهكذا إلى الفائز الثامن.
- ترسل الجوائز إلى أصحابها فور الوصول إلى النتيجة، وتدفع بالريال السعودي أو ما يعادله بالدولار الأمريكي.

مضاعفة جوائز المسابقة

استجابة لرغبات عدد كبير من الإخوة القراء المتابعين للمسابقة والتي عبروا عنها من خلال الرسائل الكثيرة التي ظلت ترد إلى المجلة، ولإتاحة فرص الفوز بالجوائز لعدد أكبر منهم، فقد تمت مضاعفة عدد هذه الجوائز ابتداءً من العدد ٢٩٦ لتصبح على النحو الآتي:

الجائزة الأولى: ١٠٠٠ ريال.
الجائزة الثانية: ٧٠٠ ريال.
الجائزة الثالثة: ٥٠٠ ريال.
الجائزة الرابعة: ٤٠٠ ريال.
الجائزة الخامسة: ٢٥٠ ريالاً.
الجائزة السادسة: ١٥٠ ريالاً.
الجائزة السابعة: (اشتراك لمدة عام في مجلة الفيصل).
الجائزة الثامنة: مجموعة من أعداد الفيصل وبعض إصدارات مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

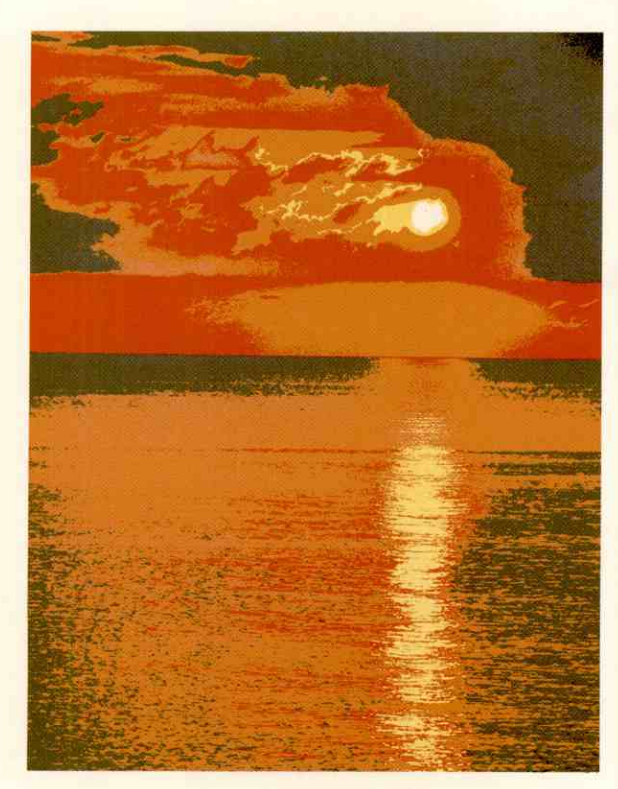
ولا يخفى على القارئ المتابع أن الجوائز المستحدثة هي الرابعة والخامسة والسادسة والثامنة.
والفيصل، مع شكرها لكل الإخوة الذين يشاركونها الرأي في تطوير أبوابها، تأمل أن تكون عند حسن ظنهم دومًا، مع تمنياتنا حظًا وافرًا لجميع القراء الأعزاء.

عنوان المجلة:

ص.ب(٣) ـ الرياض ١١٤١١ ــ المملكة العربية السعودية. هاتف: ٤٦٥٢٢٥٥ / ٤٦٥٣٠٢٧ ــ ناسوخ: ٤٦٤٧٨٥١

تأملاتٌ في مرايا الصَّمتِ والاحتِرَاق

بلقاسم مسروق
بسكرة - الجزائر



بِروْعَـةِ الخَـائِـفِ المرهوبِ مِنْ غَـرَقِ
تَقَـرَّبَ البَـحْـرُ يَرْتَمِي عَلَى حَـدَقِي
يَخُوضُ في شَبَقِ الصَّدَى .. وفي أفُقِي
ليغْرِفَ الشَّمسَ مِن محرَابِ مُعْتنقِي
واسْتَـغْـفَـرَ النَّخلُ في أثوابِ جَـارِيَةٍ
فَـأَومَـأَ الرَّمْلُ أَنْ يهْـمِي لَـهُ ودَقِي
وَخَضَّبَ الحزنُ مُهجةَ المَدى سَفهًا
فَـرحْتُ أَلْقِي لَهُ الأنفَاسَ مِنْ عَـبَـقِي
يَاجُـذْوَةَ النَّارِ، هَا ثُورِي عَلَى وَتَـرِي
فَـالصَّـمتُ يُورقُ فِي أحْداقِـهِ قَلقِي
ومَـزِّقِي كَـفَنَ الألْحَـانِ فِي دَمِـهِ
وَاطْوِ البَقَايَا عَلى الأَسْحَارِ وانْسحقي
مُـدِّي يَدَيْكِ عَلَى الأَجْـرَاحِ وَانْطَلِقِي
خَلْفَ التَّـمَـزُّقِ وَاضْـرِبِي هَوى نَزَقِي
خُوضِي مَجَاهِيلَ هَذَا البَّحْرِ، وَاعْتَرِفِي
إِذَا قَـرَأْتِ عَلَى كَـفَّـيْـهِ مُنطَلَقِي
كَمْ قَدْ وَقَفْتُ مِنَ الأَحْداقِ مُحْـتَرقًا،
وَاخْضَوْضَرَ اللَّحْنُ مِنْ غَيْمَاتِ مُحْتَرَقِي
كَمْ قَدْ صُلِبْتُ على الشِّفَاهِ وَارْتَسَمَتْ
عَلَى مَـدَاهَا خُـيُـوطٌ مِنْ شَـذَى أَلَقِي
وَكَمْ تَدَحْـرجْتُ فَـوقَ النَّارِ واشْـتَـعَلَتْ
فِي مُـقْلَتَـيْهَـا بُحُورٌ مِنْ هَوَى شَبَـقِي

تِمْـثَـالُ ذِكْـرَى، يَئِنُّ فِي المَدَى قَلَقًـا
ويَـمْـلأُ الصَّـمتَ أَلْوانًا مِنَ الأَرَقِ
أَشْـلاءُ عِـشْقٍ تَهِـيمُ فِي ذُرَا خَلَدِي
تُدَغْـدِغُ الحَـرْفَ فِي بِذْرَاتِ مُنْبَـثَـقِي
قَـدْ تَذبُلُ الصَّلَوَاتُ البِكْرُ فِي زَمَنٍ
وَيَحْـضُنُ الرَّمْلُ أَوْثَانًا مِنَ الغَـسَقِ
قَـدْ يَبْـرَحُ الشَّـبَقُ المَحْـمُـومُ ذَاكِـرَةً
تَظَلُّ تحصِي غُصُونَ الحُزْنِ فِي أُفُقِي
لَوْلاَ التَّطَوُّفُ فِي مِـحْـرَابِ نَرجِـسَـةٍ
مَـا كُنْتُ أَهذِي بِعِـشْقِ الرَّمْلِ فِي وَرَقِي
فَـيَـا دُمُـوعًـا تَخَـالُ الحُبَّ مَـقْـبَـرَةً
يَرْتَجُّ فِي غَـدِهَا المَجْـهُـولِ مُـعْـتَنَقِي
وَيَا طُيُـورًا تُغَنِّي لِلْهَـوَى أَمَـلاً
فِي أَنْ أُصَلِّي لَهَـا صَـلاَةَ مُـرْتَزِقٍ
صَلِّي لِوَحْدِكِ فِي المِحْرَابِ وَارتحِلِي
فَلَسْتُ أَهْوَى صَلاَةً خَلْفَ مُـحْـتَـرِقِ

غربة

الحصري القيرواني*

مَوْتُ الكِرامِ حَياةٌ في مواطِنِهِم
فإن هُمُ اغْتَرَبوا ماتوا وما ماتوا

يا أهلَ وُدِّيَ لا واللّه ما انتكثَتْ
عندي عُهُودٌ ولا ضاقَتْ مَودَّاتُ

لئِنْ بَعُدْتُم وحالَ البحرُ دونَكُمُ
لَبَيْنَ أرواحِنا في النَّومِ زَوْراتُ

مانِمتُ إلاّ لكي ألقى خَيالَكُمُ
وأينَ من نازحِ الأوطانِ نَوماتُ

إذا اعتَلَلْنا تَعلَّلْنا بذِكْرِكُمُ
لو أحْسَنَتْ بُرْءَ عِلاَّتٍ تَعِلاَّتُ

ماذا على الرِّيحِ لو أهْدَتْ تحيَّتَها
إليكمُ مثل ما تُهدى التَّحياتُ

أصبحتُ في غربتي لولا مُكاتَمتي
بكَتْنَي الأرضُ فيها والسَّمواتُ

كأنَّني لم أذُقْ بالقيروانِ جَنىً
ولَم أقُلْ ها لأحْبابي ولا هاتوا

ولم تَشُقني الخُدودُ الحُمْرُ في يَقَقٍ
ولا العُيونُ المِراضُ البابِليّاتُ

أبَعْدَ أيامِنا البيض التي سَلَفتْ
تَروقُني غَدَواتٌ أوعَشِيّاتُ؟

أمُرُّ بالبحرِ مُرتاحًا إلى بَلَدٍ
تَموتُ نفسي وفيها منهُ حاجاتُ

وأسألُ السُّفْنَ عن أخبارِهِ طَمَعًا
وأنثني وبقلبي منه لَوعاتُ

هلْ من رسالة حِبٍّ أستعينُ بها
على سَقامي فقد تَشفي الرِّسالاتُ

ألا سَقى اللّهُ أرضَ القيروانِ حَيًا
كأنَّهُ عَبَراتي المُستَهِلاَّتُ

فإنَّها لِدَةُ الجَنَّات: تُربَتُها
مِسْكيَّةٌ، وحَصاها جَوهَرِيّاتُ

إلاَّ تكُنْ في رُباها رَوْضَةٌ أُنُفٌ
فإنَّما أوجُهُ الأحبابِ رَوضاتُ

أولا يكنْ نَهَرٌ عَذْبٌ يسيلُ بها
فإنَّ أنهارَها أيْدٍ كريماتُ

أرضٌ أريضَةُ أقطارٍ مُباركَةٍ
للّهِ فيها براهينٌ وآياتُ



لا يَشْمَتَنَّ بها الأعداء إنْ رُزِئَتْ
إنَ الكُسُوفَ له في الشَّمْسِ أوقاتُ

ولم يَزَلْ قابضُ الدُّنيا وباسطُها
فيما يشاءُ له مَحْوٌ وإثباتُ

هل مَطْمَعٌ أن تُرَدَّ القَيروانُ لنا
وصَبْرةٌ والمُعلَّى فالحَنِيّاتُ

ما إنْ سَجا اللَّيْلُ إلاّ زادَني شَجَنًا
فأتْبَعَتْ زَفَراتي فيه أناتُ

ولا تَنَفَّسْتُ أنفًا في الرِّياضِ ضُحىً
إلأبَدَتْ حَسَراتي المستكِنّاتُ

هذا ولم تَشْجُ قَلبي للرَّباب رُبًا
ولا تَقَصَّتْهُ من لُبنى لُباناتُ

وكم دُعيتُ لُبستانٍ فجَدَّدَ لي
وجْدًا وإن كان في مَعْناهُ سَلْواتُ

ولو تراني إذا غَنَّت بلابلُهُ
أشْكو البَلابل لو تُغْني الشَّكِيّاتُ

إنّي لأَ ظَمأُ والأنهارُ جاريَةٌ
حَوْلي، وأضْحي، ودونَ الشمسِ حاجاتُ

وما أرى الموتَ إلاَّ باسطًا يَدَهُ
من قَبْلِ أن يُمكِنِ المأسورَ إفْلاتُ

الهوامش

* هو أبو الحسن علي بن عبدالغني الحصري، ولد في القيروان نحو سنة ٤٢٠هـ، وكان ضريراً، يعرف بالحصري القيرواني، قضى فترة من صباه وشبابه في القيروان، وخرج عنها في حدود سن الثلاثين بعد أن أجاد فن الشعر، وكان خروجه إلى سبتة بعد خراب القيروان سنة ٤٤٩هـ. واتصل في الأندلس بعدد من أمرائها آنذاك مادحًا، وتعرف إلى عدد من الشعر والكتب، ثم عاد إلى المغرب سنة ٤٨٣هـ، حيث توفي بعد خمس سنوات من عودته.

- مختارات من الشعر الأندلسي، د. محمد رضوان الداية، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، سلسلة دراسات أندلسية ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

أنشودة المجد

عبد الله الصالح العثيمين
الرياض ـ السعودية

أبيات ألقيت في الملتقى الشعري الذي انعقد في الجزائر ١ ـ ٢٠٠٢/٧/٥م، تحت شعار «الجزائر أنشودة المجد».

في مقلتيَّ إلى مَرْأى حِمَاك ظَمَا
يا موطنًا في ذُرا الأمجادِ عزَّ حِمَى

وفي فؤاديَ شوقٌ لم يحلَّ به
ركبُ الجديدينِ إلا زادَهُ ضَرَمَا

وذو الغرام وإن ألوى المشيبُ به
يعبُّ كأس تباريح الهَوى نَهِمَا

وإن تخنْهُ قوى التعبيرِ عن ولَهٍ
بدا بعينيهِ ما في القلب وارتسما

وأبلغُ القولِ إعرابًا وأصدقُهُ
إذا التقى الصَّبُّ من يهواه بَوْحُهُما

****

أنشودةَ المجدِ .. يا ثغرًا تعشَّقَهُ
منِّي الجَنانُ بديعَ السحرِ مبتسِما

أتيت أحملُ صفوَ الحبِّ من وطنٍ
يضم طيبةَ في بُرْدَيْهِ والحَرَمَا

آيُ الهدايةِ في رَبْعَيْهِما نزلتْ
نورًا به مادَ ركنُ الجهلِ وانهدما

وبينَ أحضانِهِ نَجْدٌ نسيمُ صَبا
معطَّرًا بعرارٍ في التلالِ نَما

وجئتُ نهرَ ودادٍ جادَ مَنْبَعُهُ
غيثٌ من الأمنياتِ المرعاتِ هَمَى

****

أنشودةَ المجدِ .. يا أنشودةً صدحتْ
بها ملايينُ عشَّاقِ العُلا نَغَما

عشقتُ، منذ الصِّبا، مغناكِ ملحمةً
من الإباءِ وسِفْرًا يزدهي شَمَمَا

صحائفًا ناصعاتِ الذكرِ أسطرُها
سمت حروفَ جهادٍ وارتقتْ كَلِما

كان الأميرُ وما كانت بطولتُهُ
إلا المنارَ بدربِ النصرِ والعَلَما



وكـــان فكرُ ابنِ باديس بدعـــوتِـهِ

إلى الأصـالـةِ فكرًا يحـفـزُ الهـمـمَـا

قطبـانِ في فَلَكِ التـاريخِ كم سُـعِـدَت

غــرٌّ الكواكبِ بالتطوافِ حـولَـهُـمـا

*****

أنشـودةَ المجـدِ .. يـا أسطورةً دفـعتْ

مـهـرَ التـحـررِ من جَوْرِ الطغـاةِ دَمَـا

وثورة مــا انثنى أبطـالُهـــا خَـورًا

عن الوَغَى أو تـفـادَوْا خـوضَـهـا سـأمـا

مـضت شـهـيـدًا يغـذِّيها فـيـخلفُـهُ

مَنْ بَرَّ بالوعـد إقـدامًا ومـقـتـحِـمًـا

حـتى علتْ في صـبـاح النصــر ألويةٌ

جـذلى تقـبِّلُ أرضًـا حُـرَّةً وسَـمَـا

****

أنشـودةَ المجـدِ .. مـا أحـلاكِ حـاضنةً

ذكـرى انتصـارِكِ طرفًا مُلْهِمـاً وفَـمـا

مليـحـــةً ترتدي في يوم زينتـــهـا

ثوبَ الوئامِ قـشـيبَ اللونِ مـحـتـشِـمـا

وأجـملُ الفـرحــةِ الكبـرى مـعطِّرَةً

بمســتطـاب نداها الدِّينَ والـرَّحِـمــا

أنتِ العظيـمــةُ أمسًا جلّ تضحـيـةً

وأنت أجــدر أن تَرْعَـيْ له الذِّمَـمَـا

مـدِّي جناحَكِ في الأرجاءِ مـرحـمـةً

وأمطري فوقَ محـروسِ الثَرى كَـرَمـا

****

المريضة

سعادت حسن منتو*
ترجمة: **سمير عبدالحميد إبراهيم**
الرياض - السعودية

من العجيب أنه كلما أرسلت إليَّ فتاة أو مرأة خطاباً دعتني فيه بالأخ، مثلما هو الحال في الخطاب الذي وصلني مؤخراً، متضمناً أفكاراً مشتتة تخلو من الترابط، كانت صاحبته تؤكد بإلحاح أنها مريضة جداً، وتثني كثيراً على مؤلفاتي، وتخوض في أمور متضاربة.

لم أكن أستطيع أن أفهم لماذا هؤلاء الفتيات والنسوة اللاتي يكتبن لي يعانين مرضاً؟ ربما لأنني أنا نفسي مريض في معظم الأحيان، أو ربما كان هناك سبب آخر لا يوجد غيره، وهو أنهن يردن إبداء تعاطفهن معي.

لم أكن أسمح لنفسي عموماً بالرد على خطابات مثل هؤلاء البنات والسيدات، لكني سمحت لنفسي أحياناً بالرد، فأنا في النهاية إنسان، فإذا تضمن الخطاب حزناً وألماً صار الرد عليه واجباً إنسانياً، ففي الأيام السابقة وصلني خطاب طويل إلى حد ما كتبت فيه السيدة التي لم ترغب في الكشف عن اسمها أنها عاشقة لكتاباتي، وأنها مريضة منذ فترة، كما أن زوجها دائم الشكوى من المرض أيضاً، وكانت قد أشارت من قبل إلى أنها تعتقد أن ما أصابها من مرض إنما كان بسبب زوجها.

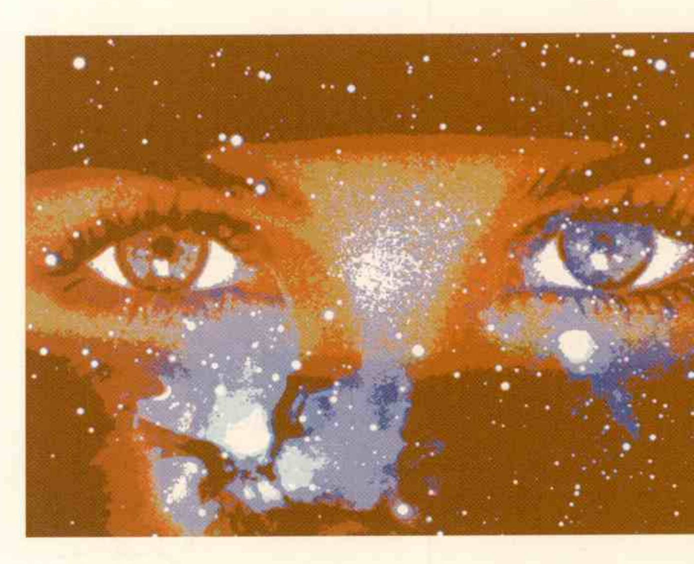
لم أكتب الرد على هذا الخطاب.. لكن خطاباً آخر وصلني منها كانت تشكو فيه من أنني لم أشعرها بوصول خطابها، وهكذا وجدت نفسي مجبراً على أن أكتب لها خطاباً، لكني توخيت في ذلك الحرص الشديد.. أظهرت في الخطاب تعاطفي معها، كانت قد كتبت بأنها أشرفت على الموت، فتأثرت كثيراً من عباراتها، وهكذا كتبت لها خطاباً بطريقة عاطفية جداً، محاولاً أن أفهمها أن الحياة وهبت لنا حتى نحياها، واليأس من الحياة يعني الموت، فإذا أوجدت في نفسك قوة الإرادة فسوف تزول آثار المرض عنك، فأنا نفسي، منذ أيام مضت كنت في حالة قريبة من الموت، ولم يخف جميع الأطباء الذين فحصوني هذا الأمر، لكني لم أفكر أبدا في الموت، ولم يصبني اليأس من الحياة فكانت النتيجة هي وقوع الأطباء في حيرة شديدة، ولا يزالون هكذا، بينما خرجت أنا من المستشفى، وكتبت لها أيضاً أن قوة الإرادة أمر يجعل من المستحيل ممكناً، فإذا كنت مريضة فحاولي أن تؤمني بأنك لست كذلك، وأنك بصحة طيبة، ولا مرض أو علة بك أبداً!

استنتجت من الرد الذي جاءني على خطابي هذا أنه لنصائحي عليها، كان ردها طويلاً جداً، جاء في خمس صفحات...

كان منطقها عجيباً، وفلسفتها غريبة، كانت تصر على أن الله لم يكتب لها أن تعيش طويلاً في هذه الدنيا، وقد كتبت أيضاً تطلب مني مؤلفاتي التي ظهرت حديثاً، فأرسلت إليها كتابين ظهرا حديثاً، وأخبرتني بوصولهما مع مزيد من الشكر والامتنان والثناء الممزوج بمزيد من المدح والإطراء.

شعرت بضيق شديد فالكتب التي أرسلتها إليها هي من وجهة نظري لا قيمة لها، فقد كتبتها فقط من أجل كسب الرزق، ومن هنا وجدت نفسي مضطراً إلى أن أكتب لها أن ثناءها على الكتابين اللذين أرسلتهما إليها ثناء في غير محله، فالكتابان محض هذيان، وعليها أن تطالع كتبي القديمة، فإن فعلت ذلك اطلعت على حقيقة أفكاري..

وكتبت في الخطاب أيضاً أموراً كثيرة عن فن كتابة القصة القصيرة.. بعدها تأسفت على ما فعلت، فلماذا ارتكبت هذه الحماقة؟ لو شئت الكتابة عن هذا الموضوع لكتبته في مجلة أدبية أو صحيفة، لماذا أكتب مثل هذا الخطاب الطويل المملوء بالأفكار لامرأة لا أعرف حتى شكلها.. على كل حال كتبت الخطاب، ولما كنت قد كتبته



وانتهيت كان عليّ أن أرسله بالبريد، وهكذا أرسلته..

وجاء الرد عليه في اليوم الثالث...

طلبت مؤلفاتي القديمة، وظلت منشغلة بقراءتها، لكن مرضها ظل يزيد يوماً بعد يوم، سألتني لماذا لا تعالج نفسها عند أحد حكماء الطب القديم، فأجبتها وكتبت لها أن العلاج سواء سعت إليه عند حكيم يمارس الطب القديم أو طبيب يداوي بالطريقة الجديدة، عليها أن تتذكر أن أفضل معالج هو الإنسان نفسه، فالإنسان طبيب نفسه.. فإذا تخلصت من الاضطراب الذهني الذي يعتريها فسوف تعود لها صحتها في ظرف أيام قليلة. كتبت عن هذا الموضوع محاضرة طويلة أرسلتها إليها، وبعد شهر وصلني ردها الذي كتبت فيه أنها عملت طبقاً لنصيحتي، لكن بلا نتيجة تذكر، ولهذا فهي قادمة للقائي.. وخلال يومين ستصل إلى بومباي قادمة من حيدر آباد وسوف تقيم عندي هنا عدة أيام!

سيطر عليّ القلق، واضطربت كثيراً فقد كنت هنا وحيداً، شبه معدم، أقيم في شقة صغيرة تتكون من غرفتين، ففكرت لو جاءت هذه السيدة، فسأعطيها غرفة تقيم فيها.. يمكنها أن تقيم فيها عدة أيام إن شاءت ذلك.. وسوف نتدبر أمر علاجها، لأن أحد الحكماء المعالجين تفضل عليّ بعرض خدماته كرماً منه!

بقيت على هذا الحال ستة أيام وكأنني معلق فوق مقصلة، أعاني الأمرين، إذا ما طرق موزع الصحف الباب ظننت أن السيدة المحترمة قد شرفت، وإذا ما بدأ الخادم عمله في المطبخ وبدأ يغذي الموقد بالخشب، بدأ القدر يكرر بما فيه من شدة اللهب، فتزداد دقات قلبي ظناً بأن هذا الصوت طقطقة حذاء تلك المرأة القادمة من حيدر آباد..

في اليوم السابع جلست أقرأ جريدة «تايمز أف إنديا» باطمئنان وسكينة، أطالع الأخبار، زاد اطمئناني لأنني صرت على يقين من أنها لن تأتي، وبينما كنت أقرأ أخبار الاضطرابات التي نشبت بين الهندوس والمسلمين، إذا الباب يدق، ظننت أنه بائع اللبن، فناديت على الخادم:

- انظر يا عبدالرحيم من بالباب..

كان عبدالرحيم يعد لنا الشاي، فترك إبريق الشاي يغلي على النار وخرج، وفتح الباب.. وبعد قليل جاء إلى غرفتي وخاطبني قائلاً:

- إن بالباب امرأة!!

فقلت وقد أصابني الذهول:

- امرأة!!

- نعم.. امرأة تقف بالباب، تريد مقابلتك.

فهمت أنها تلك المرأة.. المريضة التي كانت تكتب لي الخطابات فقلت للخادم:

- أدخلها.. أجلسها في الغرفة الكبيرة، وأخبرها بأنني قادم.

- حسناً..

هكذا رد عبدالرحيم وذهب.

وضعت الصحيفة جانباً، وبدأت أفكر، كيف تكون هذه المرأة، وما نوع مرضها، هل هي مصابة بالسل؟ هل هي مصابة بالفالج، لماذا جاءتني؟.. هل جاءت للقائي أم جاءت في الغالب لعلاج ما بها من مرض عند أحد الأطباء هنا.. نهضت وذهبت إلى الحمام.. وهناك بقيت فترة طويلة أستحم، وأفكر في هذه المرأة التي ظلت تكتب لي مثل هذه الخطابات الطويلة، والتي هي ضحية مرض خطير.. كيف يكون شكلها؟ كيف تكون صورتها؟.. مضت في مخيلتي صور وأشكال لا حصر لها، فكرت في البداية، ربما تكون «كسيحة» ويجب أن أتصدق عليها بشيء، وبالمصادفة كان اليوم الذي وصلت فيه هو اليوم الثالث من الشهر، وقد تبقى معي من راتبي ثلاثمئة روبية بعد دفع قيمة فواتير هنا وهناك، لهذا لم أشعر بالمزيد من القلق أو الاضطراب، وقررت وأنا أستحم أنه لو كانت هناك ضرورة لمساعدتها فسوف أعطيها مئة روبية، لكن طرأت على ذهني فجأة

فكرة، ربما تكون مصابة بالسل، ولا بد أن أدخلها المستشفى.. لم يكن هذا أيضاً بالأمر الصعب لأن لي بعض الأصدقاء، يعملون في مستشفى «جيجيه» ولو طلبت من أحدهم مساعدتي على إدخال هذه المرأة المستشفى فلن يتأخر عن تلبية طلبي..

أخذت وقتاً طويلاً وأنا أستحم، وأفكر في هذه المرأة.. كنت أشعر بالاضطراب الشديد حين ألتقي النساء، وهذا هو السبب في أنني من ناحية عقدت قراني وتزوجت، لكنني من ناحية أخرى، ومنذ سنة ونصف، أفكر فيما قد يحدث لو أحضرت زوجتي هنا؟! ما حدث قد يحدث، لكن أكبر مشكلة كانت تؤرقني وتقلقني هي أن من ظل طوال حياته لم يقترب من امرأة كيف له أن يقف أمام زوجته؟!

والآن هناك امرأة بانتظاري، تجلس في الحجرة المجاورة، بينما أصب على جسدي إبريق ماء تلو إبريق.. فقد كنت أهيئ نفسي وأعدها للقاء هذه المرأة.

خرجت من الحمام بعد أن أخذت وقتاً طويلاً في الاستحمام، فاتجهت إلى الغرفة، وغيرت ملابسي، ووضعت الزيت على شعري، وصففت شعري، ثم جلست على الأريكة أفكر وأفكر..

بعد لحظات جاء عبد الرحيم وقال لي:

ـ تلك المرأة تسأل متى تفرغ مما أنت فيه؟

قلت لعبد الرحيم:

ـ أخبرها بأني قادم بعد دقائق فأنا أغير ملابسي.

فقال عبدالرحيم:

ـ حسناً.. حسناً.

أدركت أن المزيد من التفكير مجرد فضول لا أكثر، فخاطبت نفسي:

ـ هيا.. لأقابلها، لقد تبادلنا الخطابات، ثم إنها جاءت للقائي من مكان بعيد..

مريضة، من دواعي الإنسانية أن أرحب بها، وأكرمها، وأسري عنها.

نهضت من فوق الأريكة، فانتعلت حذائي، ودخلت الغرفة الثانية حيث تجلس المرأة، كانت محجبة تماماً، ألقيت عليها السلام، وجلست في ناحية من الغرفة.. من وراء برقعها الأسود تراءى لي أنفها العقابي.. كنت أشعر بالاضطراب الشديد، ماذا أقول لها، على أي حال بدأت الحديث:

ـ آسف.. فقد جعلتك تنتظرين طول هذه المدة.. في الحقيقة.. هذا بسبب عادة متأصلة...

فقاطعتني المرأة قائلة:

ـ لا داعي للاعتذار.. خذ الأمور ببساطة ولا تتكلف.. فقد اعتدت الانتظار.

لم استطع أن أفهم شيئاً، ولم أدرك ما يمكن أن أقول.. فقط رددت ما ورد على لساني من كلماتي.

ـ من ذا الذي تعودت انتظاره؟

رفعت النقاب قليلا عن وجهها لتمسح دموعها بمنديل رقيق.. وبعد أن جففت دموعها سألتني:

ـ ماذا قلت لي؟

شعرت أن المنطقة أسفل شفتيها، وهي كل ما شاهدته الآن، جميلة، بل حلوة مثل حلاوة المانجو البنارسية، فحين كشفت النقاب تمكنت من مشاهدة وجهها للحظة، لم أستطع الإجابة عن سؤالها، لأنني غرقت تماماً في هذا الجزء الذي شاهدته حين رفعت نقابها..

اضطرت هي إلى متابعة الحديث قائلة:

ـ كنت قد سألتني عمن أنتظر.. هل تريد أن تسمع الجواب؟!

ـ نعم.. أخبريني.. لكن لا تقولي شيئاً يعبر عن اليأس والقنوط.

رفعت المرأة نقابها كلية، فشعرت كأن قمراً بدا من بين سحب سوداء..

قالت لي وهي تخفض ناظريها:

ـ ألا تعرف من أنا؟

قلت لها:

ـ لا.. لا أعرف

فقالت:

ـ أنا زوجتك التي عقدت عليها، بقيت أكتب لك، أخبرك بأنني مريضة، أنا لست بمريضة لكن إذا جعلتني أنتظر هكذا فإنني سألقي حتفي بكل تأكيد.

وفي اليوم التالي أخذتها إلى البيت.. في حفل مهيب.. وأشعر الآن بقيمة السعادة والفرح.

الهوامش

* ولد الروائي سعادت حسن منتو في سمبرالا (مديرية لدهيانه) بالهند وهو ينتمي إلى أسرة (منتو) الكشميرية، كان والده قاضياً، التحق بجامعة علي كره، لكنه لم يستطع أن يكمل تعليمه بسبب مرضه، توفي في ١٨ يناير/كانون الثاني في عام ١٩٥٥م كان يكسب رزقه من الكتابة، وتمتاز قصصه بالواقعية.

بقايا الطباشير

ناصر محمد العديلي
الرياض - السعودية

كنت معجبا بما يكتبه مدرس مادة القراءة بأصابع الطباشير الملونة على السبورة السوداء من كلمات

مثل (قرأ، كتب، زرع، حصد، باب الحديقة، شجرة التفاح ..)

كنت أتابع الحروف والكلمات التي نقرؤها مع الأستاذ .. وتشكل كلمات وجمل مفيدة نتعلمها ونتعلم الحياة من خلالها .. كانت ذرات الطباشير البيضاء تتهلل كندف الجليد على الأرض من السبورة .. وكان الأستاذ يترك بقايا الطباشير على الحامل في أسفل السبورة ..

أعجبتني لعبة الطباشير والكلمات التي يلعبها الأستاذ كل يوم والتي من خلالها تعلمت كلمات وجملاً مفيدة.

فكرت أن ألعبها بنفسي مع بعض الزملاء بعد خروج المعلم .. وفي ساعات الفسحة .. كنا نكتب كلمات ذات معان مثل زرع، حصد، باب، شجرة .. كما كنا نكتب جملاً غير مفيدة كانت ضحكاتنا تسابق الكلمات والجمل المفيدة وغير المفيدة على السبورة، كانت السبورة تغص بالكلمات والجمل، ثم يأتي أحدنا بالمساحة، ويحول السبورة إلى لوحة نظيفة..

نعيد الكتابة من جديد ونضحك معا وكأننا نملك ثروات العالم كله.

أخبرت صديقتي «مزنة» التي كانت لا تدرس وقتذاك - بما نفعل في المدرسة كل يوم مع بقايا الطباشير..

ضحكت وتحمست لمشاهدة الطباشير..

أغرتني حكاية الطباشير ذات يوم فحملت بعض بقاياها وبعد خروجي من المدرسة أصبت بعدوى الكتابة والتعلم ..

مررت بمنزلي وتركت حقيبتي هناك ثم خرجت من المنزل فرحاً ببقايا الطباشير في جيبي مررت على باب منزلنا. وكتبت عليه باب .. ثم مررت على باب الجيران، وكتبت على باب منزلهم باب .. كنت أكتب بمتعة وفرحة لذيذتين وكأني أعرف كل شيء.. مررت بالمسجد، وكتبت على بابه الكبير باب .. خرجت من باب المسجد وكتبت على بابه الآخر باب.

استمرأت اللعبة ورحت جارياً أسجل تاريخ أبواب حارتنا ..

مررت على مزنة في منزلهم وأطلعتها على الطباشير البيضاء والحمراء والزرقاء في جيبي .. تلمست مزنة الطباشير وشمت رائحته لأول مرة .. خرجنا من منزلهم وكتبت على بابهم بالطباشير الحمراء باب .. مزنة ..

سألتني مزنة وقالت ماذا تفعل .. قلت أكتب كلمة باب مزنة ضحكت وقالت .. إنه باب أبي .. كتبت سعد قالت مزنة ماذا كتبت قلت كتبت اسم ابيك فرحت مزنة وهي تقول باب مزنة السعد .. ضحكنا معاً ورحنا نكتب على بقية الأبواب في الحارة وكأننا نعيد اكتشاف تاريخ حارتنا..

بعد عدة أيام تعلمنا في المدرسة قراءة وكتابة كلمات وجمل جديدة ذات معان شتى .. قرأنا قصائد وأشعاراً جميلة ..

(بلاد العرب أوطاني
من الشام لبغدان
ومن نجد إلى يمن
إلى مصر فتطوان ..
بلاد العرب أوطاني..)

حملت بقايا الطباشير من جديد إلى منزل مزنة ..

حكيت لها الدروس الجديدة .. قرأت لها الأشعار.

غنينا معا « بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدان»

ضحكنا من جديد

كانا يوماً مطيراً .. ونحن نتجول في حارتنا نسجل على الأبواب كلمات وأشعاراً :

بلاد العرب أوطاني
بلاد العرب أوطاني

كانت مزنة لا تعرف كتابة الكلمات والأشعار.. لكنها كانت تغني الكلمات وترسم الحروف على الأبواب

كنا نستمتع باللعبة وصوت الرعد والبرق فوقنا ..

هطلت الأمطار فجأة علينا .. كانت زخاته شديدة ..

مسحت بعض ماكتبناه من حروف وكلمات وأشعار على الأبواب

سالت ألوان الطباشير الملونة على خد الأبواب لترسم لوحات سريالية جميلة.

فجأة هطلت حبات البرد مصاحبة لزخات المطر..

كنا فرحين نضحك بالمطر ونعبث بحبات البرد البيضاء الصغيرة الناصعة

كانت مزنة تضحك فرحة وطربة مثل قوس قزح ممتد في الافق ..

كانت حبات البرد البيضاء تشبه أسنان مزنة ..



إنسانية الفيصل

أضيف إلى ما أورده عبدالكريم إبراهيم السمك عن علاقة والدي بالملك فيصل - يرحمهما الله - بعض الجوانب التي توضح إنسانية الفيصل، ألا رحمه الله عدد ما ذُكر أو مر بخاطر إنسان... كان ولي أمرنا، نحن عائلة أمين سعيد، هكذا نادانا موظف التشريفات الملكية عندما صعد إلى الطائرة في مطار الرياض ١٣نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩٦٧م، إجراءات دخولنا المملكة تمت بسرعة ثم نزلنا بفندق اليمامة ضيوفًا على جلالة الملك ٢١يوماً مع أن والدي - رحمه الله - اقام بشقة في الرياض منتظراً قدوم العائلة قبيل افتتاح المدارس، وبحلول الصيف التقيناه في بحمدون، لبنان حيث عاجلته المنية، في ٢١تموز/ يوليو ١٩٦٧م.

وتولانا الملك فيصل بتسخير إلهي، تولانا بحنان فيّاض تنطق به الأفعال لا الأقوال. كان يكفينا عزاً أن جوازات سفرنا ممهورة بختم ديوان الملك فيصل المكتب الخاص.

عايشنا الفيصل أطفالاً في أثناء المحنة التي مررنا بها عقب الانفصال السوري عن مصر، وسجن والدي في القاهرة عام ١٩٦٠- ١٩٦١م، مدة تقارب السنة، هبّ الفيصل لنجدتنا من السعودية.

دخلتُ في نقاشات، وكنا أطفالاً نلهو على الدرج وقت الظهيرة في إحدى بنايات بيروت دفاعًا عن فيصل السعودية في وقت كانت الإذاعات التقدمية الاشتراكية تقوم بغسل دماغ شعوب بأسرها... رأيت والدي يشع وجهه بشراً وهو يقرأ لأمي خطاباً من الملك فيصل مبدوءاً «أخي أمين» ويقول لها حققت مجداً، كفاه مجداً أن خاطبه فيصل «أخي».... أمين.

زرنا الفيصل في مكتبه في مجلس الوزراء في حي المربع بعد صلاة العشاء إحدى الأمسيات، ولما لم يمض على وصولنا إلى الرياض أيام ... طبعا كان للموقف مهابة في نفوسنا حتى ونحن في دمشق. كانت مشكلة أمي كيف تسلم على الملك فيصل ... موقف شارك في رسمه أخوالي وجدتي، رحمها الله، أذكرها وهي تعلم أمي كيف تمشي برزانة، وتنحني انحناءة عظيمة وهي تقول بصوت وقور«السلام عليك ياملك الزمان» - الحبيبة جدتي - أحسبها كانت تفكر بملوك بني عثمان، أو لعلها الحكايات الغابرة. ولكن ونحن في الصالة الكبيرة جالسين ننتظر وجلين دخول الملك نتأمل زجاجات النفط بألوانها المختلفة برهة. ثم نجفل لكل صوت صغير، ننظربعضنا في عيون البعض ثم نستطلع الأمر عندالوالدة كالقطط الصغيرة تحتمي بأمها على ضعف حال الام وماهي بأشجع من الصغار .. وإن كانت لتجاهد النفس كي تبدو هكذا على الأقل في نظر صغارها .. ماهي إلا دقائق حتى عاد الينا الشيخ محمد النويصر، رئيس الديوان الخاص مشيراً الينا أن تقدموا.. تفضلوا .. إلى أين ؟! إلى غرفة صغيرة فتح بابها .. فاذا الملك فيصل واقف شامخ كأعظم ما تكون نخلة نجدية بأصلها وجذورها الثابتة الضاربة في أرض الجزيرة ملكة للصحراء لمئات السنين وفروعها التي مالبثت أن طاولت السماء إلى اليسار في تلك الغرفة - المكتب الصغير، مكتب صغير متواضع هو مكتب الملك تقابله عدة كراسي أحسبها بعددنا أمي وأختي أنوار وأخواي أمير وأسعد. وقف الملك مرحبًا بنا .. لاشك أن الموقف كان أكبر وأبسط مما كنا نتصور، أخذ الملك يحدثنا موجهًا حديثه للجميع دائماً .. حكى لنا عن طلعاته الليلية متفقداً مستطلعاً .. ثم عن آخر ما قرأ من كتب صدرت حديثًا .. ملك يقرأ! ولا يرفع شعارات تقدمية!!.. كم أود الآن وأنا أتذكر تلك الأمسية لو كنت صخراً نقش عليه الزمان تلك الدقائق التي مرت كومضة برق أو كرفّة عين

لا أملك الآن استرجاعها فهي قض الريح الآن .. ودّعنا الملك واقفًا قائلاً لأخويّ أمير وأسعد «أدعو الله أن تكونا خير خلف لخير سلف». وجدتني أهمس لأمي ونحن نمر بالمجلس كأننا كنا في حضرة أحد الخلفاء. ها هي الصالة الكبيرة التي شهدت استشهاده بعد نحو ثماني سنوات ... وكان والدي قد كتب في مقدمته عن «فيصل العظيم» ما يشبه فيه الملك فيصل أحد الخلفاء، كما قرأت في كتابه لاحقًا، وما كنت في ذلك الوقت، وياللأسف، أقرأ كتب أبي. تتالت زياراتنا للملك فيصل، رحمه الله، في مجلس النساء مرة كل شهرتقريباً . مجلس تزوره فيه من أرادت من نساء العائلة أو أيًا كانت. باب الفيصل مفتوح للجميع كعادة آل سعود.

تشاركه الاستقبال حرمه الملكة عفت، رحمها الله، بحضورها القوي، وأناقتها المميزة، وثيابها المشعة بألوان الشمس والبحر، يحضرني منها الآن اللون الزهري والفيروزي والأزرق، قد تتواجد كريماته في مجلس والدهن الملك حيث لا تكلف. حضورسمته الرقي والترفع يحدث دائمًا ليرسّخ الطاعات والعبادات، الصلاة هي عمود الدين، الزكاة تطهر الأموال، رأيته مرة يمر في الصالة المؤدية إلى مجلس النساء ينحني ليداعب طفلاً «حبيبي ايش في؟» هو ابن لإحدى الخادمات، كما دلّ نداء أمه له، وما نهرته، أو أنبته، لأنه اعترض طريق الملك.

في حضرته، كما في حضرة كل كبير، تتلاشى الفوارق، وتذوب الحواجز النفسية، لا يشعر من أمامه إلا أنه بحضرة إنسان يملك كل المعاني الإنسانية السامية بكل ما يمكنها الوصول إليه من عل وعظمة حقيقية. هل لا بد للبساطة والعظمة حتماً أن تتلازما ؟؟.

رأينا الفيصل يخرج للصلاة في موكب صغير، سيارتان لا أكثر، قبيل مغرب كل يوم في أثناء وجوده في الرياض ... تبعناه عن بعد بكل قلوبنا ومشاعرنا.

هالنا كما هال أهل الرياض خبر استشهاده في يوم الثلاثاء ٢٥ مارس ١٩٧٥م، خرجت الرياض، بل السعودية، وأقول: العرب كلهم .. غشى الحزن نفوسنا داخل بيوتنا .. قرأنا صحائف سوداء تمزق القلوب سطورها خطت بقلوب محبة لقلب كبير ضمّ واحتوى الجميع .. كتبت أشارك الجمع الحزن بكلمات وهي تدفق من القلب حفرت لها مكانا ثبت في الذاكرة أسترجعها كل حين، وما عندي الأصل الآن:

أتكذب العين وفي كل العيون البكاء
أم يكذب القلب وفي كل القلوب الشقاء
ألاَهُ جرح ينزف
والقلب مزقه البلاء
يا فيصل الشعب الحبيب
يا خميلة وارفة الحنان
يا بحرًا سماويَ العطاء
يا بلسمًا لكل داء
يا بسمة صافية فوق الشفاه
يا صقرًا أبيًا سافر إلى العلياء
يا صرخة حق مزقت جحافل الأعداء
ياغصن زيتون أخضر
يا كل الإخلاص والنبل والتسامح والعطاء والوفاء
يا فيصلنا الحبيب .. لئن كان بكاؤنا دليل حزننا

فوالله لو بكتك كل الرجال
لو بكتك كل العيون السوداء
لو بكتك كل الأطفال الأبرياء
لما أوفيناك العطاء

يا فيصل الشعب الحبيب ..
ملاحم الإغريق والرومان ..
ومعلقات العرب منذ قديم الزمان
لن توفي العزاء .. لن توفي العزاء

والله لو يعود الزمان إلى الوراء
لو أعطيت الخيار
لآثرت أني أكون لك فداء
يا رمز الفداء

أفكر .. حتى لو افتديت فيصلاً آنذاك لما أحسبني كنت أوفي عطاءه .. إن ما أسبغه علينا من عون ورعاية نصرة مازلنا نستظل فيئه حتى الآن، وهو كثير .. كثير.

أميرة أمين سعيد
الرياض - السعودية

نعم.. ضرب المرأة وسيلة لحل الخلافات الزوجية

قضايا اجتماعية

ضرب المرأة وسيلة لحل الخلافات الزوجية

عبدالحميد أحمد أبو سليمان
أغادير ـ المغرب

كنت أرى في ظروف الأمة والعالم من حولها، والهجمة الثقافية والحضارية الضارية عليها، مع تردي أحوال الأمة وحقوق الإنسان فيها معنى ما يواجهه المنافحون عن

نشرت مجلتنا الغراء «الفيصل» المقال، الموسوم بـ«ضرب المرأة وسيلة لحل الخلافات الزوجية» تأليف: عبدالحميد أحمد أبو سليمان، وسيرته الذاتية مدُرج ملامحها بعرض المقال، حيث عمل المؤلف رئيساً للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ورئيساً لمؤسسة تنمية النشء بالولايات المتحدة، وقد شهدت هذه الأخيرة بدايات الدراسات العليا للكاتب ... وسيادته من أغادير ـ المغرب ... (ع ٣١٤/ أكتوبر نوفمبر ٢٠٠٢م).

عمدت من جانبي إلى الإشارة إلى التقديم السابق ... لأوضح ـ على نحو جلي وخاص ـ البيئة الثقافية التي نشأ فيها المؤلف أثابه الله كل الخير فيما طرحه من رؤية حول قضية «ضرب الرجل لامرته» ... المحقق في المقال هو البعد الإنساني الرقيق عن الكاتب، وإحاطته اللغوية، وإلمامه بالأصول العامة الشرعية، وأسلوبه رفيع المستوى في تناول الموضوع، والشروح الرصينة التي ابتدأ بها وانتهى إليها في هذه الدراسة القيمة .. والتي ـ لا مناص ـ تقدم إضافة علمية حقيقية لمكتبتنا الإسلامية .. فقد قرر الكاتب ـ وهذا حقيقي ـ عدم لجوء المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى ضرب زوجاته، والاكتفاء بالعظة، ومن بعدها الهجر في المضاجع، مقدماً ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ أنموذجاً فريداً في الحرص على تفعيل معاني المودة والرحمة في العلاقات الزوجية، فلِمَ يقُدم الأزواج على ضرب زوجاتهم ؟ ـ طبقًا لانتقاد الكاتب لهذه الطريقة ـ بما يتنافى مع سنة المعصوم عليه الصلاة والسلام، ويستهجن لدى الضمير الإنساني، لما في ضرب المرأة من إذلال نفس ومهانة وتحريك لكراهيته وعامل مؤثر في ترتيب عدم توافق الحياة مما يزيد الشقاق ... وأجد الكاتب يتصدى وبوضوح لمفهوم الضرب، واصلاحه شرعاً ... وهو في سبيل تأكيد رؤيته يرصد آيات الذكر الحكيم التي تناولت «الضرب»، منتهياً إلى أن القصد النهائي من «الضرب» المنصوص عليه في سورة النساء ٣٤ ـ ٣٥، لا يزيد على مجرد التدليل ـ طبقاً للسياق القرآني ـ في معنى العزل والمفارقة والابتعاد والترك. وقد استخلص الكاتب هذه الدلالات في ضوء التنظير بين استخدامات الكلم في المواضع التي أحصاها وعددها في ستة عشر وجهًا أي يريد الكاتب أن يقول: إن «الضرب» المشار إليه في سورة النساء لا يقصد به الضرب على المعنى وبالوسائل المتعارف عليها، وإن القصد الشرعي هو التزام تدابير الابتعاد والحرمان دون استعمال الإجراء البدني، وقد أصر الكاتب على تسميته «إيذاء» و«إهانة» و«قسوة» و... و.....

قال تبارك وتعالى في محكم التنزيل: *وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا. وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا*. **النساء: ٣٤ـ٣٥.**

ذكر كاتبنا: «إذا أخذنا في الحسبان طبيعة السياق وطبيعة الحال والغاية من الترتيبات في الإصلاح والتوفيق. وإذا أخذنا في الحسبان قيم الإسلام في تكريم الإنسان، وحفظ كرامته، وحقه في تقرير مصيره، وإذا أخذنا في الحسبان طبيعة العلاقة الزوجية الاختيارية، وإذا كان لطرفي العلاقة الزوجية الحق في إنهائها إذا لم يقتنعا بها، ولم يرع أحد منهما حقوق الآخر فيها، وأنه لا مجال لإرغام أي طرف منهما أو قهره عليها، أدركنا أن المعنى المقصود من «الضرب» لا يمكن أن يكون الإيلام والمهانة، وأن الأولى هو المعنى الأعم الذي انتظم عامة معاني كلمة «الضرب» في السياق القرآني هو البعد والترك والمفارقة.

أتفق مع الكاتب في أنه لا مجال للإرغام والقهر في العلاقات الزوجية ... لكن المقصود بالضرب في سورة النساء، طبقاً لما نص عليه الفقهاء، وما ورد في معجمات اللغة، وما استقرت الأحكام الشرعية عليه قديماً وحديثاً، أن «الضرب» هنا رخُصة خولها الشارع الحكيم

الزوج أن يباشر هذا التدبير، وهو المساس البدني لإيلام المرأة بالقدر الموافق لأصول التربية الإسلامية، وإجراءات التأديب المنصوص عليها، وهي قسم من أقسام إجراءات التعزير في شريعة الحق ... إن الكلم، وهي «الضرب»، أقول للكاتب نعم رخص الله للزوج أن يضرب زوجته للتأديب، فالله أدرى بشؤون خلقه ... نص تبارك على «الضرب» وهو - كما قلت - تعزير للتأديب على ذنب اقترفته المرأة، وهي الخروج عن الطاعة ... هذا هو الشرع ياسيدي ... شرع يأخذ في الحسبان مؤسسة الأسرة بعاداتها وتقاليدها الإسلامية الأصيلة، وأبنائها داخل المنظومة الأسرية بما للرجال من قوامة تمنحه هذا الحق ... ليست أبداً إذلالاً ومهانة للمرأة أو إكراهها على العيش غصباً، وإنما «الضرب» تدبير للضبط الأسري ... ثم إن المرأة المسلمة ... من قال لك أنها لا تقبل هذا الإجراء اعلم أن الضرب لا تمقته إلا النفس الفاجرة القاصرة عن فهم حقوق الرجل ...

أعد النظر في قوله تبارك: *﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾* **النساء: ٣٤.**

لا إذلال في الضرب ولا مهانة... وهن - أي المسلمات المؤمنات - يقبلن ذلك ... يقبلنه ليس خضوعاً ومذلة ياسيدي، ولكن امتثالاً لأمر الحق، وكما قلت هو - تبارك وتعالى - أدرى بشؤون خلقه، ويعلم الخبير أن في الضرب تأديباً وإصلاحاً، وإلا ما كان نص عليه في الترتيب القرآني...

انظر هذا الترتيب فقد بدأ بالعظة، ثم من بعدها بالهجر في المضاجع .. فإن رجعت المرأة عن العصيان والنشوز، تحقق الغرض، وكان هذا ماحدث من نساء النبي صلى الله عليه وسلم، ومن ثم لم يلجأ المصطفى صلى الله عليه وسلم، إلى التدبير التالي في النص الشرعي وهو «الضرب» ... وأتصور أن نبي الله صلى الله عليه وسلم، ما كان ليتردد لحظة في ضرب إحداهن إذا ما استمرت في المخالفة، ولكنهن رضي الله عنهن رجعن إلى طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم ...

أقول:- إن التدابير وفق الترتيب الشرعي هي: النصح ثم الهجر ومن بعده الضرب .. فإن لم يفلح التدبير الأخير فسيكون في الأمر تمرد على استمرار الحياة الزوجية، فحينئذ لا بأس بإدخال الآخرين من الأقارب في النزاع بتجاوز سرية الحياة الزوجية، وكان الله تبارك قد نص على الضرب على أنه إجراء أخير للإصلاح كيما تفضح الأسرار، وتُعرض المشكلة على الحاكم ليحكم فيها.

إن وجهة الاختلاف بيني والمؤلف مرجعها أنه ينفي المعنى الإصلاحي المقصود في الآية وهو «الضرب»، وأرى أن ثمة إسرافاً في تأويل المعنى المقصود شرعاً ... فالضرب بالنص الشرعي، هو رخصة تجيز للرجل ضرب المرأة «أي التأديب تعزيراً» رخص الله بها لعلمه تبارك وتعالى أن في ضرب المرأة بُعداً تربوياً يضمن الضبط الاجتماعي في نطاق مؤسسة الأسرة التي يريدها الزوج لمصلحته الزوجية ولمصلحة الأبناء، وأن استبعاد صلاحية هذا التدبير، وهوالضرب، تفويت درجة من درجات الضبط الاجتماعي الذي يحرص على تحقيقه الإسلام من منظور المصلحة العامة .. رؤيتكم ياسيدي هو رؤية فردية لا توافق أهداف الشارع في إدارة الأسرة ... تلك الإدارة التي يسأل عنها الرجل «ولي الأمر» الذي يلتزم طاعته جميع أفراد الأسرة، زوجةً وأبناءً ... والمفهوم الإداري ههنا لا يفهمه الغرب مطلقاً، ويطعن عليه تحت مدعاة تحرر المرأة وحقوقها، وكأن إلزامه المرأة حدود الطاعة الزوجية ... فيه افتئات على حقوقها، وأفهم أن رؤيتك هذه تريد أن تتقرب بها إلى الغرب المادي فوقعت في وهدة العولمة الفكرية، تلك العولمة التي أسرفت علينا قانوناً فألغت شرائع الإسلام في العقوبات البدنية مؤيدة أساليب العقاب الحديثة التي لا تغني ولا تسمن من جوع ...

إن الشارع الحكيم نص على «الضرب» كتدبير «ثالث» بعد النصح والهجر، وفي الضرب إصلاح لأن هذه رؤيته تبارك فهو يعلم ما لا نعلم، يعلم الخبير - سبحانه وتعالى - أن في الضرب رد المرأة إلى جادة الصواب والالتزام الأسري ... أي أن الله سبحانه أجاز ورخص هذا التدبير البدني كمرحلة ضرورية سابقة على السير في إجراءات ربما تؤدي - بفعل تدخل الآخر أياً كان - إلى تفاقم المشكلات التي تهدم الأسرة ...

فإن سألتني أقول: إنني لم أبادر قط إلى ضرب زوجتي، ذلك أنها التزمت عند حدود الهجر، فإن كانت قد استمرت في المخالفة لضربتها تأديباً ... ذلك الإصلاح الذي سميته «أنت» إيذاءً نفسياً وإيلاماً وقسوة وإهانة ... وماهو بإهانة ولا قسوة ولا إيذاء، إنه تدبير للزجر بهدف الضبط الاجتماعي لأسر تعترف بمبادئ الشريعة وتلتزم تطبيق أصولها. بعيداً عن العولمة الفكرية التي غاب عنها إصطلاح إدارة الأسرة في الشريعة الإسلامية.

د. رضا عبدالحكيم إسماعيل رضوان
الزقازيق - مصر

دولة يثرب: بصائر في عام الوفود وأخباره

مراجعة: **محمد بن فارس الجميل**
الرياض - السعودية

كما يظهر من العنوان فإن كتاب دولة يثرب يمكن إدراجه ضمن الدراسات المتصلة بالسيرة النبوية، وهو في مجمله موقوف على حركة الوفود التي جاءت لمبايعة الرسول صلى الله عليه وسلم والخضوع لسلطة الإسلام.

دولة يثرب
بصائر في عام الوفود
خليل عبد الكريم
القاهرة: سيناء للنشر
ودار الانتشار العربي، ط١، ١٩٩٩

تتبع فيه الباحث خليل عبدالكريم ظاهرة الوفود ابتداءً من العام الخامس للهجرة وخاصة بعد إخفاق الأحزاب في حصارهم للمدينة، وما تلاه من انتصار الرسول صلى الله عليه وسلم على يهود بني قريظة، ثم يتابع دراسته لتعاقب وفود شبه الجزيرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة والتي بلغت ذروتها في العام التاسع للهجرة الذي عرف في مصادر السيرة النبوية بعام الوفود.

وما من شك في أن فكرة الكتاب جيدة، وكان يمكن أن تسد ثغرة في دراسات السيرة، وخاصة فيما يتعلق بعام الوفود وأحداثه، وما أسفرت عنه، لكن موقف الكاتب من دولة الإسلام في المدينة جعله ينظر لتلك الأحداث نظرة مختلفة؛ مما أفقد الكتاب في نظري الكثير من قيمته الموضوعية.

والكتاب يقسم ثلاثة أقسام: مقدمة وتمهيد (ص:٧-٢٩).

الباب الأول: البصائر الرأسية: أحداث عام الوفود (ص ص : ٣٥ - ٣٢٦) تحدث فيها المؤلف عن سبعين وفداً قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة.

الباب الثاني: البصائر الأفقية (ص ص : ٣٢٩ - ٤٠٢)، وتطرق المؤلف فيه إلى الموضوعات الآتية: تمهيد، القرآن، تصفية جيوب المقاومة، الانسياح إلى الخارج، المعجزات، مغلاق البحث.

أخطاء واجتهادات مضللة

والكتاب على ضخامته النسبية جاء مثقلاً بالأخطاء العلمية، والاجتهادات المضللة والعقيمة، فمن بين الأخطاء الموضوعية - على سبيل المثال لا الحصر - حديث المؤلف عن وفد بني فزارة، فقد جاء عنده بمسمى مختلف وهو: «وفد بني قرارة» بالقاف (ص: ٢٢٦)! ومنها زعم المؤلف أن النبي صلى الله عليه وسلم توفي في حزيران عام ٦٣٣م (ص:٣٠٧) والصواب هو حزيران عام ٦٣٢م.

ومنها أن فتح مكة كان في السنة التاسعة للهجرة (ص: ٢٠٧) والصواب هو العام الثامن للهجرة.

ومنها قوله: إن أبيّ بن كعب كان قبل أن يسلم من أحبار اليهود وعلمائهم. (ص:١٠٨) وهذا زعم يجافي الصواب، فأخباره في مصادر السيرة الموثوقة لم تشر إلى يهوديته قبل إسلامه.

ومنها كذلك نعته لأبي بكر الصديق (رضي الله عنه) بأنه من تميم، وهو بذلك ينفي جهلاً نسب أبي بكر القرشي، وأنه من «تيم» (ص:٣٦٤) فهو هنا لم يميز بين تميم وتيم.!

والكتاب كذلك يعاني كثيراً من المغالطات الموضوعية، والاجتهادات التحليلية التي لم يحالفها التوفيق، فمن ذلك:

أن العنوان الذي اختاره المؤلف لكتابه وهو: دولة يثرب - بصائر في عام الوفود - هو عنوان من الناحية الموضوعية لا يتفق مع المحتوى أي أنه عنوان مضلل، لأنه لم يتطرق في كتابه إلى دولة الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة ونظمها وتشريعاتها وإنجازاتها المدنية والعسكرية، بل انصب اهتمام المؤلف على الوفود التي بدأت بالتوافد على المدينة بدءاً من العام الخامس الهجري حتى قبل أشهر قليلة من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم. ثم يتتبع المؤلف أخبار تلك الوفود، وغالبًا ما يشير إلى ما أسفرت عنه هذه الوفادة أو تلك بالغمز واللمز، وسيشار إلى بعضها لاحقًا. فهو لم يتحدث عن الدولة ونشأتها وإنجازاتها بل عن الوفود التي حلت بدارها.

كما يلاحظ أن خليل عبدالكريم يراوح بين مسميين للمدينة النبوية هما: يثرب وأثرب ومعلوم أن مسمى يثرب من الأسماء غير المستحبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يرد هذا الاسم في القرآن الكريم سوى مرة واحدة على لسان المنافقين في غزوة الخندق، عندما قال أحدهم: « يا أهل يثرب لا مقام لكم».. بينما تواتر ذكر المدينة في القرآن الكريم والسنة المطهرة، وأجمعت عليه الأمة بالقبول. أما التسمية الأخرى للمدينة التي يرددها خليل عبدالكريم كثيراً في كتابه فهي: «أثرب» ولا أدري أين وجد أصل هذه التسمية فقد جاء ذكر أثرب: في لسان العرب لابن منظور على هذا النحو: الثروب، وهي الشحم الرقيق الذي يغشى الكرش والأمعاء، الواحد ثرب وجمعها في القلة: أثرب. وهنا يلتبس الأمر على القارئ حول المعنى الذي أراده صاحب كتاب «دولة يثرب»، فليس في هذا التعريف ما يدل على مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم!

كذلك فإن المؤلف في كتابه الذي تجاوز عدد صفحاته الأربعمئة لم يذكر فيه - ولو مرة واحدة - الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم؛ فهو دائماً يشير إليه بالاسم المجرد «محمد» وكأنه يتحدث عن شخصية اعتيادية لا مكان لها من حيث التقدير والاحترام!!.

ولست أدري هل هذا الموقف من أعظم شخصية عرفتها البشرية، هو موقف أملته «قواعد المنهج العلمي الصارم» (ص:٤٠١). الذي يزعم المؤلف أنه ملتزم به؟! علمًا أن أكثر المستشرقين تحاملا على تاريخ الإسلام ونبيه لم يجدوا غضاضة في الإشارة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفة النبوة.

سياسية لا دينية

ويلاحظ كذلك أنه بينما يقوم الكتاب في مجمله على مناقشة ظاهرة الوفود التي تبدأ من السنة الخامسة للهجرة، وتبلغ الذروة في السنة التاسعة، فإن المؤلف يرى أن وفادة تلك «الوفود كانت سياسية في المقام الأول، وليست دينية كما درجت على ذلك الكتابات السابقة».. (ص:١٠) ولم يبين الكاتب للقارئ كيف توصل إلى هذه النتيجة، أي كيف عرف أن تلك الوفود التي أربت على السبعين وفداً كانت تأتي لمبايعة الرسول صلى الله عليه وسلم بيعة سياسية مجردة من الولاء للعقيدة التي ينادي بها، وهي عقيدة الإيمان بالله أولاً، وكيف لا يكون ذلك

وهو القائل: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله» وكأن المؤلف بهذا القول يريد أن يقول للقارئ بعبارة أخرى: إن النبي صلى الله عليه وسلم مجرد طالب ملك، ولا يهمه من أمر الدين شيء. وهو يكاد يعلن ذلك صراحة عندما يقول: «لأن قريشية الدولة أمر لا سوم فيه، فهي المشروع الذي بدأه الجد الأعلى قصي ابن كلاب واستمر أولاده وأحفاده في السعي لإكماله حتى حفيده محمد، وكانت الديانة أحد الداميك في البناء الوليد» (ص: ١٦٠ وازن ص ٣٣٠ ـ ٣٣١).

تشكيك

وهكذا يرى المؤلف أن دولة الإسلام في المدينة مجرد ثمرة حُلم الجد الأعلى للرسول صلى الله عليه وسلم الذي حققه الحفيد موظفاً للدين سياسياً لتحقيق الحُلم. أما النبوة والرسالة والجهاد فليست في نظر المؤلف سوى وسائل توسل بها النبي لتحقيق طموحه وطموح آبائه من أجل تحقيق الملك الدنيوي العريض.

وبعد أن يشكك خليل عبدالكريم في النبوة ينتقل إلى قضية أخرى، وهي استعمال السيف في الدعوة، ويزعم أنه كشف عن هذه الحقيقة «تلك الحقيقة التاريخية هي استعمال السيف مع كل من رفض اعتناق الدين الإسلامي من المشركين أو الكفار أو الوثنيين داخل الجزيرة العربية» (ص:٣٩٥).

والحقيقة أن هذا الكشف الذي يدعيه المؤلف كشف متأخر جداً؛ لأن كل من له أدنى إلمام بالقرآن والسنة النبوية يعرف جيداً أحكام المشركين في القرآن الكريم، ثم إن القول باستعمال السيف في الدعوة قول قديم لا جديد فيه، وحوله دراسات جرت، ولا تزال، وليس التسليم به على إطلاقه، وآيات القتال المتعلقة بالمشركين أوضح من الشمس في القرآن الكريم.

وما من شك في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قاتل المشركين من العرب، فهم الذين نزل القرآن بلغتهم، وفي أرضهم، ونزل على رجل منهم: *وإنه لذكر لك ولقومك*. **الزخرف**:٤٤. وقوم الرسول صلى الله عليه وسلم هم المكلفون بحمل تلك الرسالة ـ رسالة التوحيد ـ إلى العالم: *وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين*. **الأنبياء**:١٠٧. والعرب هم مادة الإسلام، كما قال عمر بن الخطاب، فإذا تركوا على وثنيتهم وكفرهم، فمن يا ترى سيقوم بأعباء نشر الرسالة وتبليغ الدعوة؟.

وفي السياق نفسه، يقول المؤلف: «وربما يرجع عدم اللجوء إلى السيف من قبل العربة (كذا) الفاتحين إزاء مواطني البلاد التي دعكوها بخيولهم المباركة، بالإضافة إلى نهمتهم الشديدة إلى احتياز الأموال، وسبي العذراوات يرجع إلى أنهم لقنوا أن ما صلح مع أعاريب الجزيرة المتبدين في نشر الإسلام وهو السيف، لا يناسب سكان البلاد المغزوة المستوطنة أصحاب الحضارات السامقة» (ص:٨١ و٢٥٦ و ٣٩٧).

يرى المؤلف أن وفادة تلك الوفود كانت سياسية في المقام الأول، وليست دينية كما درجت على ذلك الكتابات السابقة، ولم يبين الكاتب للقارئ كيف توصل إلى هذه النتيجة

تفوق على المستشرقين

فتعريض المؤلف هنا بدوافع الفتح الإسلامي للبلاد الخارجية واضح، وهي في نظره دوافع مادية خالصة، وهو في هذه المقولة يتفوق على أكثر المستشرقين إغراقاً في التفسير المادي لتاريخ المسلمين.

أما الجزء الثاني من المقولة فهو أن استخدام السيف لا يناسب سكان البلاد.. أصحاب الحضارات السامقة. وأصحاب الحضارات الذين أشار إليهم المؤلف هم سكان بلاد فارس والعراق والشام ومصر، ومعلوم أيضاً أن هذه المناطق الجغرافية الشاسعة هي مهد الديانات السماوية القديمة، كاليهودية، والنصرانية، وكذلك المجوسية،

والصابئة، وهؤلاء كما يعلم المؤلف لم يؤمر المسلمون بقتالهم إذا أقروا للمسلمين بالطاعة. *ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن.* **العنكبوت:٤٦**. ولكن إذا وقفوا في وجه الدعوة، وحالوا بينها وبين الناس وجب قتالهم، وهذا ما حصل في عصر الفتوحات الإسلامية الكبرى.

فالمسألة إذًا ليست مسألة إعمال السيف من عدمه، ولكن المسلمين مقيدون بضوابط الدعوة والجهاد في التعامل مع أهل الديانات السماوية المتمثلة في الخيارات الثلاثة: الإسلام، والجزية، والقتال، فالقتال هنا هو آخر ما يمكن أن يلجأ إليه المسلمون في دعوتهم لأصحاب الديانات الأخرى. فالموقف إذًا من أهل الكتاب مختلف شكلاً وموضوعًا عن موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من الوثنيين العرب في شبه الجزيرة العربية.

ثم ما موقف خليل عبدالكريم من بعض الأحداث الكبرى التي وقعت في مطلع القرن العشرين المتمثلة بقيام الحركة البلشفية في روسيا، وحركة ماو تسي تونج في الصين، ومحاربتهما للأديان السماوية واضطهادهما لأصحابها وإجبارهم على التخلي عن دياناتهم، واعتناق مذاهبهما الضالة، وخصوصًا المسلمين منهم. وكذلك مواقف العالم الرأسمالي ممثلاً بأوربا والولايات المتحدة حيث طاردوا وضيقوا الخناق على أصحاب المذاهب الاقتصادية، والآراء السياسية المخالفة، وعدّوهم أعداء للأنظمة السياسية الغربية، فإذا كان قد حدث هذا في التاريخ المعاصر فما بالك بأحداث وقعت قبل أربعة عشر قرنًا من الزمان، وكانت وما زالت تحتفظ بقوة منطقها وسلامة منطلقاتها حتى اليوم حيث لا إسلام دون العرب، ولولا إخضاع النبي صلى الله عليه وسلم للوثنيين من العرب للإسلام لتعذر انتشاره رسالة عالمية خارج نطاق شبه الجزيرة العربية، ولربما بقي محصورًا في جزء صغير منها.

وفي معرض حديث خليل عبدالكريم عن وفد ثقيف ذكر، أن عثمان بن أبي العاص سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم مصحفًا فأعطاه. ثم كتب اثنتي عشرة صفحة بعد هذا الخبر المشكوك في صحته أصلاً، ليبرهن للقارئ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد كتب القرآن كاملاً قبل وفاته بصورة مصحف يتداوله الناس، وأنه يعطى بعض الوفود نسخًا منه (ص ص: ١٠٧، ٣٩٩)، وهو بهذا القول يحاول أن يلقي ظلالاً من الشك كثيفة حول الغاية من جمع القرآن الكريم بعد حروب الردة في عهد أبي بكر الصديق، وكذلك جمع الناس على مصحف واحد بلهجة قريش في عهد الخليفة عثمان بن عفان، وهذه فرية عظيمة يطول الرد عليها.

تعريض المؤلف بدوافع الفتح الإسلامي للبلاد الخارجية واضح، وهي في نظره دوافع مادية خالصة، وهو في هذه المقولة يتفوق على أكثر المستشرقين إغراقًا في التفسير المادي لتاريخ المسلمين

سخرية

أما بقية ما جاء في كتاب دولة يثرب فمعظمه يدور على الحط من قيمة الإنسان العربي، والتشكيك في أنفته وكبريائه (ص ص: ٢٢٨ و ٢٢٩ و ٢٣٨)، وهو يسخر من بعض المعجزات النبوية التي ذكرتها بعض مصادر السيرة، ففي حادثة عامر بن الطفيل يقول المؤلف: «وكل ما أقدم عليه (أي النبي صلى الله عليه وسلم) هو أن توجه إلى السماء ملتمسًا منها أن تكفيه شروره، وكالعادة كانت السماء رحيمة بمحمد [كذا] عطوفة عليه، فاستجابت له فرمت عامرًا بداء عضال قضى عليه فمات شريدًا طريدًا» (ص:٢١٩) وهذا الضرب من السخرية يضيق به الحصر.

ثم يعقب على ذلك بقوله: «ويتحفنا ابن عباس - الحبر وترجمان القرآن وابن عم محمد [كذا] بمعلومة موجزها أن هناك كتيبة من الملائكة كان يتناوب أفرادها حراسة محمد [كذا] ليلاً ونهارًا من الجن وغيره، وهذا بخلاف سرية الحرس

الخاص الذي يتولى رئاسته عمر بن الخطاب - وبأن هناك آية في القرآن تؤكد حقيقة وجود كتيبة الحراسة الملائكية» (ص:٢١٩). ولم يذكر لنا المؤلف مصدره في هذا الهراء!

والمؤلف يشكك في كتابه في بعض القضايا التي وردت في القرآن الكريم مثل: الإخراج من الجنة والطوفان وإبليس فيقول:

«ولعل علماء الأنثروبولوجيا الدينية يشفون غليلنا نحو هذه الشخصيات الملغزة [أي المسيح الدجال والمهدي] تماماً مثلما كشفوا لنا عن وجود مسطورات الإخراج من الجنة وإبليس والحية والطوفان والسفينة المدهشة التي أنقذت المخلوقات جميعها وفي مقدمتها الإنسان من الانقراض والذهاب في بحار النسيان».(ص:٩٦).

أما القضية الأخيرة فهي اتهام المؤلف لكبار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتآمر ضد علي رضي الله عنه، ففي حديثه عن بعث أسامة بن زيد قال: «ومن جانب آخر: فهل كان محمد [كذا] وقد أحس بدنو أجله يبغي إبعاد صفوة الصحاب المهاجرين عن أثرب/المدينة لكي لا يشكلوا حجر عثرة في طريق بني هاشم وهم، ينصبون أبا الحسنين خليفة؟ بيد أن التميمي [كذا] (أبا بكر) والعدوي (ابن الخطاب) فقها الأمر، فانسلخا من عسكر أسامة، ولا يهم إن كان ذلك يرقى إلى درجة العصيان لأمر محمد؛ لأن المسألة لا صلة لها بالعلاقات الإنسانية أو العواطف الدينية، بل هي مرتبطة بالمصالح. وأكملا مسعاهما، وعاونهما عليه أبو عبيدة بن الجراح وفلج ثلاثتهم في حرمان علي بن أبي طالب من حقه في الخلافة، وخطفها أبو بكر، ومن بعد عمر ولولا وفاة ابن الجراح لغدا الخليفة من بعد العدوي» (ص ص: ٣٦٤ - ٣٦٥، وازن: ص ٣٣٨).

وفي ظني أن مثل هذا الهراء لا يستحق الرد عليه؛ فالدارس للسيرة النبوية يعرف جيداً الظروف التي أحاطت ببعث أسامة بن زيد، ووفاة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وكيف تطلب الأمر وجود عمر بن الخطاب إلى جانب أبي بكر الصديق بعد بيعة السقيفة، ولا مجال هنا لسرد التفاصيل.

وإجمالاً فإنه يمكن القول: إن القارئ لكتاب: «دولة يثرب» لا يجد فيه جديداً؛ فهو ترديد لأقوال وشبهات سبق أن أثارها بعض المستشرقين، وتفسير مادي لأحداث التاريخ الإسلامي سبق أن قال به بعض زعماء مدرسة التفسير المادي للتاريخ، لذلك فإن السيد خليل عبدالكريم أخفق إخفاقاً شديداً في تطبيق منهجه العلمي الصارم الذي يزعمه في دراسته لأحداث عام الوفود، فهو مجرد تابع لبعض الحاقدين على الإسلام ونبيه صلى الله عليه وسلم من كتاب الغرب وتلاميذهم من العرب. وحتى فكرة مؤامرة الصحابة على علي رضي الله عنه واستلابهم حقه في الخلافة كما يزعم الكاتب قد سبقه إليها بعض علماء الشيعة، ومنهم السيد عبد الحسين شرف الدين في كتابه: «النص والاجتهاد» (ص:٣٦).

فليت شعري ما الجديد الذي جاء به خليل عبدالكريم في كتابه؟ وما أثمر عنه التزامه «المنهج العلمي الصارم» الذي يدعيه؟!

في الواقع إن منهج خليل عبدالكريم، إن كان له منهج فهو منهج التشكيك في أحداث السيرة، وفي توجيه التهم لرجالها من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتصغير من شأنهم، والغمز واللمز في بعض معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم. وحتى هذا المنهج إن كان يستحق مثل هذه التسمية فهو أيضاً منهج قد سُبق إليه من قِبَل بعض العلماء أدعياء الموضوعية العلمية من رجال الغرب.

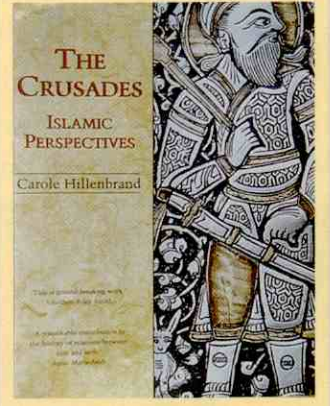
هذا ما أدى إليه الاجتهاد، والله أعلم بالصواب.

الحروب الصليبية من منظور إسلامي

مراجعة: **كامل يوسف حسين**

دبي - الإمارات

قبل عدة سنوات، عاهدت نفسي على ألا أكتب شيئًا عن عروض الكتب، إلا إذا كنت إزاء شيء استثنائي بكل المعايير، وكان مرد ذلك إلى عدة أسباب في مقدمتها أن الإحصاءات الصادرة عن جهات متخصصة متعددة، وعن المؤسسات القائمة على معارض الكتب تشير إلى تواضع معدلات القراءة، وإلى أن الصلة بين القارئ العربي والكتاب ليست في أفضل أحوالها، وإذا كانت الأمور كذلك بالنسبة إلى الكتب العربية، فما بالك بالكتب الصادرة باللغات الأجنبية؟



الحروب الصليبية
من منظور إسلامي
د. كارول هيلينبراند
أدنبرة: أكتوبر / تشرين الأول، ٢٠٠٠م، ٦٤٨ صفحة

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن الكتاب الأجنبي، وخاصة الصادر حديثًا في طبعته ذات الغلاف السميك يزداد غلاء كل يوم، وترتفع أسعاره باطّراد، لا تنافسه في ذلك إلا أسعار أسطوانات الموسيقى الكلاسيكية، بحيث يتحول الحصول على الاثنين إلى ترف توشك ألا تكون قادرة عليه في كثير من أرجاء العالم إلا نخبة محظوظة، لست أنتمي إليها، وأحسب أن كثيراً من القراء العرب لا ينخرطون فيها، فما معنى عرض كتاب وإثارة الاهتمام به إذا كان احتمال حصول القارئ عليه ليس كبيراً؟

وهناك ناحية أمر وأدهى، وهي أن الكتاب يستغرق وقتًا طويلاً في مطاردته والحصول عليه والعكوف على قراءته، وذلك في زمن لاهث، يركض كل شيء فيه بسرعة خاطفة، زمن تسوده ثقافة السندويتش، إذا صح التعبير، وتغلب عليه غواية الصور والبصريات والموجزات، وفي ضوء هذه السرعة ألا يسود منطق الاستسهال وأخذ الأمور على علاتها والتعامل مع الأمور على السطح؟! ألا يصبح التعامل مع الكتاب أصلاً شيئًا غير مندرج في أجندة أعمال الكثيرين؟!

لا أعرف كيف يتعامل القارئ مع هذه السطور وعلامات الاستفهام، لكنني أعرف

أنني وجدت نفسي أمضي وفق هذا الذي تعهدت به، لكن هذه القاعدة عرفت استثناءات جد قليلة، والكتاب الذى نلقي عليه الضوء هنا يستحق - بامتياز- أن ينتمي إلى هذه الاستثناءات، بل وأكاد أقول يستحق أن يتصورها عن جواره.

من المؤكد أن دكتور عبدالعظيم أنيس لم يصور عن فراغ عندما كتب تحت عنوان «الحروب الصليبية ليست مجرد تاريخ عفا عليه الزمن» يقول عن الكتاب الذي نناقشه هنا: إنه «كتاب أسطوري بكل المقاييس من ناحية اعتماده على المئات من المراجع العربية والإسلامية عند إعداده، ومن ناحية دسامة البحث وعمق التحليل وموضوعيته».

وليس من قبيل المصادفة أيضاً أن صحيفة «لندن ريفيو أوف بوكس»، المتخصصة في عروض الكتب تقول عن هذا الكتاب في مقال ضاف: إنه «معلم بارزفي ميدان تخصصه».

بالحماسة نفسها يتحدث دكتور جاناثان رايلي سميث الأستاذ بانويل كوليج في جامعة كامبردج عن الكتاب، فيقول: إنه «عمل رائد، لاتكمن قيمته في السرد التفصيلي للوقائع، وإنما كذلك في الطريقة التي ترشد بها كارول هيلينبراند المؤرخين الغربيين إلى مادة المصادر المجهولة بالنسبة إليهم أو المتاحة في ترجمات جزئية، وتطلع قراءها على عقلية مسلمي القرون الوسطى، مقدمة زاوية مختلفة تماماً يتم النظر منها إلى الحركة الصليبية. وبوضع الأفكار الحديثة في سياق الكتاب، فإن الكتاب يمكن القراء في العالمين العربي والإسلامي من أن يتفهموا بشكل أفضل الأحداث التي تشكل الحاضر إلى حدما».

لست أشك أن القارئ من حقه أن يكون سعيداً



ملمح جانبي لمدخل قلعة حلب

عندما يضع يده على كتاب قيل عنه هذا كله، ويقع في ٦٤٨ صفحة من الحجم الموسوعي، وزودت طبعته الأولى الصادرة في عام ٢٠٠٠م بأكثر من ٥٠٠ لوحة وخريطة ورسمة ومستنسخ من عيون الفن الإسلامي في الفترة الواقعة بين القرن الحادي عشر والثالث عشر الميلادي.

حسرة!

لكن شعوراً على النقيض من ذلك تماماً، هو الذي راودني عندما كنت أطالع صفحاته للمرة الأولى، وإحساساً بحزن غامر، عارم وحقيقي ذلك أن هذا الموضوع الذي تسلم المؤلفة بأنه موضوعنا بامتياز، نحن المسلمين العرب الذين تلقى أسلافهم صدمة الحملات الصليبية الثماني، ودفعوا الثمن نهراً من دم إلى أن تمكنوا من ردها على أعقابها، لا يوجد في مكتبتنا العربية كتاب واحد يغطيه التغطية اللائقة، ومن ثم فإن هذا الفراغ القائم لم يجد من يسده إلا متخصصة غربية، قدمت لنا ماكان ينبغي أن تسطره أيدينا من واقع المصادر والمراجع والمخطوطات العربية الأصلية المتوافرة لدينا.



مدخل قلعة حلب ... عمارة القوة بامتياز

المؤلفة

إذا نحينا هذا الشعور جانباً، فإن السؤال الذي يفرض نفسه، على الفور تقريباً، هو: من هي مؤلفة هذا الكتاب؟

المؤلفة: هي دكتورة كارول هيلينبراند، أستاذة اللغة العربية والدراسات الإسلامية بجامعة ادنبرة، وهي كغيرها من الجامعات التي تبدى اهتماماً كبيراً بالدراسات العربية والإسلامية، والمؤلفة تنتمى إلى عائلة عرفت بإسهامها الكبير في هذه الدراسات. ومن منا لا يعرف بروفيسور روبرت هيلينبراند أستاذ الفن الإسلامي بالجامعة نفسها وصاحب الصولات والجولات والمحاضرات عن الفن والعمارة الإسلاميين والأستاذ الزائر لجامعات هارفرت برنستون، في نيويورك وكاليفورنيا، ومؤلف السفر الجليل الذي يحمل عنوان «العمارة الإسلامية»؟

لكن ما الذي تحاوله دكتورة كارول هيلينبراند في هذا الكتاب الهائل؟ ما الذي تريد أن تقوله؟ هل تسرد لنا مجدداً الوقائع العسكرية والسياسية للحروب الصليبية مكررة بذلك جهوداً سبق أن

بذلت بأقلام أخرى؟ هل تحدثنا عن آليات الصراع؟ هل تنجح حقًا في سر أغوار المصادر والمراجع الإسلامية لتجعل من العنوان غير المألوف الذي اختارته لكتابها شيئًا مسوّغًا؟ ما الذي يكمن وراء هذا الاهتمام الكبير بكتابها الذي سبق أن رأينا لمحات منه شرقًا وغربًا.

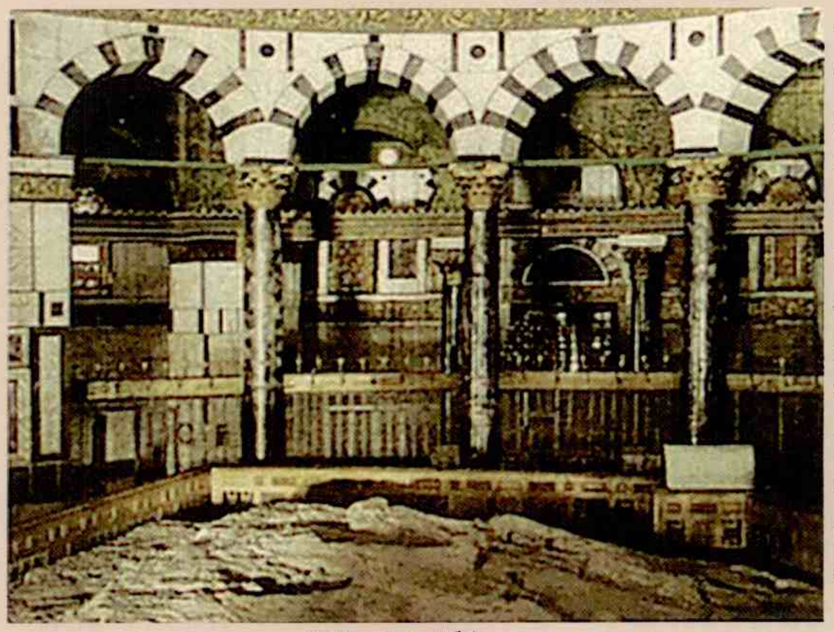
لست أحسب أن القارئ سيحار طويلاً أمام علامات الاستفهام هذه، فما عليه إلا أن يلقى نظرة سريعة على الصفحات الست والعشرين الأولى والصفحات الثلاثين الأخيرة، لكي يضع يده على المفاتيح الأساسية التي تتيح له مواجهة جوهر الأسئلة التي تكمن في قرار علامات الاستفهام المطروحة ففي الصفحات الأولى سيجد نفسه أمام الفهرسين الشامل والتفصيلي وقائمة اللوحات والرسمات ومصادرها، وفي الأخيرة سيقف طويلاً أمام كنز المصادر والمراجع الذي تحشده المؤلفة والذي يعد هو ذاته مساهمة مذهلة بكل المعايير.

ودكتورة كارول هيلينبراند لا تدعنا للحيرة عند مفترق الطريق الذي سنجد أنفسنا حياله بعد الصفحات الست والعشرين الأولى، وإنما هي تبادر إلى الإمساك بموضوعها شأن مصارع للثيران يمسك بقرني ثور هائل في مستهل صراع هائل، إذ توضح لنا أن الظاهرة التي تتصدع ليست هي الحملات الثماني على (الأقل) والتي حركتها رغبة مسيحيي أوروبا الغربية بوضع الأماكن المسيحية المقدسة، وفي المقام الأول بيت المقدس تحت حمايتهم، أو هكذا



قبة الصخرة ... اهتمام فائق منذ القدم

على الأقل كان الهدف المعلن. وهذه الحملات يعتقد في الغرب أنها استمرت منذ عام ١٠٩٥ ميلادية، عندما وجه الباب إيربان الثاني دعوته الشهيرة إلى امتشاق السلاح، حتى القرن الخامس عشر الميلادي، وربما بعد ذلك، على الرغم من أن الكثيرين يشيرون إلى أن سقوط عكا في يد المسلمين في عام ١٢٩١، كان النهاية العملية للنشاط الصليبي الجدي ضد المسلمين في المشرق العربي.



قبة الصخرة من الداخل

بهذا المعنى فإن الكتاب الذي نناقشه هنا يعد أول دراسة متكاملة تعالج ظاهرة الحروب الصليبية برمتها منذ ارهاصاتها الأولى حتى نهايتها العملية من منظور إسلامي خالص؛ فهي إذن دراسة مرسخة ليست لتبين الحقائق في ترتيبها الزمني عسكرية كانت أم حربية، وإنما للاستجابة التفصيلية من جانب المسلمين للوجود الصليبي على أرضهم وما شكله من أخطار داهمة، وأضرار محققة.

ولكن إلى من تتوجه المؤلفة بكتابها هذا؟

تحرص دكتورة كارول هيلينبراند في مستهل كتابها، على إيضاح أن كتابها موجه في المقام الأول إلى الطلاب وإلى عامة الجمهور من القراء، وهي في تواضع العلماء تعرب عن أملها في أن يكون فيه مايثير اهتمام الاختصاصيين.

تحت المجهر

والنقطة الجوهرية التي تشدد عليها المؤلفة، منذ البدء هي أن المنظور الإسلامي للحملات الصليبية هو وحده الذي تجري مناقشته، ومن خلال البراهين المستمرة من المراجع والمصادر الإسلامية تحاول هيلينبراند الولوج إلى عالم التركيبة الذهنية للمسلمين في العصور الوسطى الذين عانوا تأثير هذه الحملات والذين خاض الصليبيون في دمائهم لدى دخولهم بيت المقدس، وقتلوهم في المساجد على بكرة أبيهم في ذروة الحملة الصليبية الأولى، وتضع المؤلفة تحت المجهر طبيعة مشاعر المسلمين ورد فعلهم حيال هذه التجربة التي لم يسبق لهم أن خاضوها، وهي دخول الغربيين الأوربيين بلادهم واعمالهم السيف والمشعل فيها.

وفي هذا الإطار الكلي تلفت نظرنا إلى أن هناك منظورات متعددة، ومختلفة، لكنها متكاملة تلقى مع بعضها ضوءاً جديداً على ظاهرة الحملات الصليبية، وهناك في هذا الشأن ثلاثة مستويات:

أولاً: المستوى القاعدي أو الأساسي ـ فمن الواضح أن قصة الحروب الصليبية تحتاج إلى أن تروى عسكرياً وسياسياً، كما رواها المسلمون بعد أن رويت مرات كثيرة من المنظور المسيحي، ولا بد من تمحيص الخلفية العقيدية والحوافز التي وقفت وراء سلوك الجانبين.


وكالة السلطان الغوري ... إحدى ذرا العمارة المملوكية

ثانياً: هناك التفاعل الاجتماعي والاقتصادي بكل من الجانبين والذي لا بد من بحثه بصورة وثيقة؛ لأنه يقدم إحصاءات لواقع الحياة في الشرق الإسلامي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين.

ثالثاً: ربما كان المستوى الثالث هو ساحة الموضوع الأكثر أهمية على الإطلاق في المستويات الثلاثة جميعها، وهو طبيعة الحرب في هذه الفترة التاريخية، إذ إن توغل الحملات الصليبية في أراضي المسلمين يضمن خوض حروب بالغة الضراوة، انتصر الصليبيون فيها أولاً ثم أحدقت بهم الهزائم التي حولتهم إلى ظاهرة تاريخية لم يبق شاهداً عليها إلا أطلال قلاعهم والندبات العميقة التي خلفوها في وعي المسلمين ووجدانهم حتى اليوم.

هنا يلفت نظرنا تشديد المؤلفة على أن موضوع كتابها، أي الحروب الصليبية من المنظور الإسلامي هو موضوع كان يتعذر تركه، للباحثين المسلمين أنفسهم، لكونهم الأكثر قدرة على تناوله وفض مغاليق أسراره وطرق أبواب مصادره ومراجعه، لكنها تردف مشيرة إلى أن ما دفعها إلى انتزاع زمام المبادرة والقيام بتقديم كتابها هو غياب ذلك الدفع الذي كان متوقعاً من الباحثين المسلمين من الكتب والإصدارات والأبحاث وعمليات التنقيب الأثرية بحثاً عن أسرار الحروب الصليبية.

وتشدد الدكتورة هيلينبراند على الحقيقة الواضحة والبسيطة التي تضاعف من أهمية هذا الموضوع، وقوامها أن الحروب الصليبية، كما يعبر دكتور عبدالعظيم أنيس، ليست مجرد تاريخ عفا عليه الزمن، وإنما هناك ربط قائم بينها وبين التجارب التاريخية الحديثة كظاهرة الإعمار، والنهضة القومية العربية، وإنشاء دولة إسرائيل، والجهود المبذولة لتحرير فلسطين، وإنشاء دولتها المستقلة.

كتب عربية

هنا تتعرض المؤلفة لمجموعة من كتب المؤرخين العرب المحدثين أبرزها:

- مؤلف الدكتور سعيد عاشور، ولا يسلم هذا الكتاب من سهام حداد ترشقه بها المؤلفة، فهي ترى أن المؤلف ليس معنياً بتقديم صورة بحثية تاريخية لموضوعه، وإنما هو يستخدم التاريخ المملوكي كساحة يطلق من تحت فاقها صيحة دعوة للجهاد من قبل القوى المعارضة ضد الحكومات في الشرق الأوسط، وهي تقفز إلى التعميم أواخر القرن العشرين الذي تصفه بأنه التسمم بالوعظ وأنه أقرب إلى الدعاية السياسية الصريحة.

- كتاب «الحرب الصليبية» للبحاثة السوري سهيل زكار، وتهاجم المؤلفة هذا الكتاب بدوره، ولا تتردد في وصفه بأنه مخيب للآمال، لأنه من

منظورها مجرد تناول سردي زمني لوقائع الحملات الصليبية، والاستعانة بالمراجع الأجنبية، وخاصة كتاب رونسمان، من غير المبادرة بإثرائه بالاستعانة بمصادر ومراجع عربية لم يجر توظيفها بحثيًا حتى الآن، وهي تختتم تناولها له بما يمكن احتسابه رصاصة رحمة بعد هذا كله، عندما تقول عنه: إنه يقتطف مقاطع مطولة من المراجع من غير أن يتوجب ذلك كله بتقديم تفسير للظاهرة التي يعالجها.

- كتاب «الحروب الصليبية» للباحث والأديب الفرنسي محمد العروسي المطوري الصادر في تونس عام ١٩٥٤م، وتكتفي المؤلفة بوصفه بأنه ليس مفيدًا إلى حد كبير.

أصل الحكاية

تخصص المؤلفة الفصلين الأول والثاني من كتابها لما يمكن أن نسميه بالبداية الحقيقية للحروب الصليبية، وهي لا تتردد في العودة بأصل الحكاية إلى صدر الدولة الإسلامية، وعلى الرغم من حرصها على التزام الموضوعية على امتداد الكتاب إلا أن هذه الروح الموضوعية تخونها حقًا حينما تذهب في الصفحة ١٥من كتابها إلى رد أول صدام لأوروبا مع الإسلام إلى ماتسميه بالسياسات التوسعية للدولة الإسلامية الجديدة التي تأسست بعد وفاة المصطفى صلى الله عليه وسلم، في عام ٦٣٢ ميلادية.

وإذا كان الفصل الأول هو بمنزلة مفتتح شامل للكتاب، فإنها تخصص الفصل الثاني لأحداث الحملة الصليبية الأولى، وردود أفعال المسلمين الأولى عليها التي سادها التخبط والاضطراب، نتيجة عوامل الفرقة والخلاف في صفوف القوى الإسلامية،التي قدر لها أن تكون في مقدمة خطوط الصدام مع الصليبيين.

مايهمنا حقا هو أن المؤلفة لا تتردد في ركوب مركب صعب حتمًا، حين تخصص الفصلين

مجموعة قايتباي الجنائزية ... جانب من عمارتها نقل من أنقاض القلاع الصليبية

الثالث والرابع من كتابها للجهاد مفهومًا وحركة على الصعيدين السياسي والحربي.

وإزاء الطابع الهائل والصعب لهذه المهمة فإن المؤلفة تعمد إلى اقتحامها على مرحلتين: المرحلة الأولى يضمها الفصل الثالث وعنوانه «الجهاد في الفترة من ١١١٠ـ ١١٧٤» وهي تشمل

إيضاحاً لجهاد المسلمين في مواجهة الغزو الصليبي وصولاً إلى اغتيال عماد الدين الزنكي.

هنا نقف أمام تأصيل المؤلفة لمفهوم الجهاد الإسلامي برده إلى القرآن الكريم والحديث الشريف، ثم منعطفات تطور نظرية الجهاد، وبصفة خاصة خلال العصر العباسي، وعلى الصعيد الحركي تتم متابعة جهود عماد الدين الزنكي التي توجت بتحرير إمارة الرها من أيدي الصليبيين، وتشير المؤلفة إلى مجيء الحملة الصليبية الثانية عام ١١٤٨، لكونه منعطفاً بالغ الأهمية في تطور الجهاد وبروز نور الدين الزنكي.

في الفصل الرابع تكتمل مسيرة رصد تطور الجهاد حتى سقوط عكا في يد المسلمين أي أحداث السنوات ١١٧٤ إلى ١٢٩١م، بما في ذلك مساهمات صلاح الدين الأيوبي ومن جاء بعده من سلاطين الدولة الأيوبية وملوكها وأمرائها، ثم جهاد المماليك حتى سقوط عكا في يدهم، مع التركيز بصفة خاصة في دور السلطان الظاهر بيبرس.

ولكن كيف نظر المسلمون إلى الفرنجة؟

هذا هو على وجه الدقة السؤال الذي تتصدى المؤلفة للإجابة عنه في الفصل الخامس من الكتاب حيث يتم تناول الأبعاد الثقافية والدينية للصراع بين المسلمين والفرنجة، وينصب التركيز في الامتداد الزمني الكبير والطبيعة غير المتغيرة للمفهومات السلبية لدى المسلمين عن شعوب غرب أوربا، وهي المفهومات التي يمكن العثور عليها في الأدبيات الإسلامية، ابتداء من القرن العاشر الميلادي على الأقل.

وإذا كانت الصور النمطية التي تصور نظرة المسلمين إلى الفرنجة تركز في صفتين لدى الآخرين: هما قلة تعتمد على مرجعين عربيين بارزين هما «كتاب الاعتبار» لأسامة بن منقذ، وقد كان له احتكاكه الطويل بالفرنجة من خلال المهام الدبلوماسية التي قام بها، ومفاوضاته الطويلة معهم لافتداء الأسرى المسلمين، وأيضاً «رحلات ابن جبير»، الذي كانت لمؤلفه بوصفه أحد أبناء الأندلس معرفة وثيقة.

في الفصل السادس، نحن على موعد مع مناقشة مطولة بجوانب الحياة في المشرق الإسلامي في المرحلة الصليبية، حيث تتعدد الموضوعات التي تجري مناقشتها لتشمل الحاجز اللغوى بين الجانبين والتعليم والطب والقيم الفروسية المشتركة بين الجانبين المتصارعين، والتبادلات الثقافية بين الجانبين، والتأثيرات البعيدة المدى للاتصال الإسلامي - الصليبي.

الكتاب يعد أول دراسة متكاملة تعالج ظاهرة الحروب الصليبية برمتها منذ إرهاصاتها الأولى حتى نهايتها العملية من منظور إسلامي خالص

وربما من حقنا أن نتوقف قليلاً أمام جانب مهم تشير إليه المؤلفة في الصفحة ٣٣١، فهي تلفت نظرنا إلى أن المصادر الإسلامية توضح أن عدداً محدوداً جداً من المسلمين هم الذين اهتموا بتعلم لغات الصليبيين وإتقانها، وعلى الرغم من وجود بعض الوعي في صفوف المسلمين بالتنوع العرقي لأعدائهم من الفرنجة إلا أنه لم يكن هناك وعي حقيقي بما يتجاوز وجود لغة واحدة يتحدثها الفرنجة.

من المدهش حقاً أن هذا البعد يصل إلى حد أن أسامة بن منقذ يصل في «كتاب الاعتبار» إلى القول: إن الفرنجة لا يتحدثون إلا اللغة الفرنجية التي لا يفهمها المسلمون، وهو يحكي عن امرأة تشبثت به خلال وجودها في مدينة يحتلها

الفرنجة ومضت تبربر بلغتهم من دون أن يفقه لها قولاً.

وبالمقابل حرص ملوك الفرنجة وقادتهم على إتقان اللغة العربية، ورغبة في مواصلة البقاء والصمود من ناحية، وخدمة للمصالح التجارية وسواها من ناحية أخرى، وربما ساعدهم على إتقان اللغة العربية إيداع بعضهم سنوات طويلة في السجون العربية ريثما يتم افتداؤهم أو تبادلهم، وكذلك حالات الزواج بين رجال ونساء من جانبي الصراع.

وتفرد المؤلفة الفصلين السابع والثامن لجوانب متخصصة تندرج في صميم الصراع الحربى بين الجانبين، تعكس ثروة معرفية حقيقية، إذ يتم توظيف المصادر والمراجع العربية بصورة مكثفة، وعلى نحو يعكس تمكنًا واقتدارًا كبيرين.

الحروب الصليبية، ليست مجرد تاريخ عفا عليه الزمن، وإنما هناك ربط قائم بينها وبين التجارب التاريخية الحديثة كظاهرة الإعمار، والنهضة القومية العربية، وإنشاء دولة إسرائيل، والجهود المبذولة لتحرير فلسطين، وإنشاء دولتها المستقلة

أهم الفصول

ربما ليس من المبالغة وصف الفصل السابع بأنه واحد من أهم فصول الكتاب على الإطلاق، حين يتناول الجيوش والأسلحة والدروع والتحصينات. والحقيقة الأساسية التي يستند إليها هذا الفصل هي أنه على الرغم من فترات الهدنة والتجارة فقد كان هناك احتلال صليبي لجزء حيوي وشديد الأهمية من ديار الإسلام في الفترة من ١٠٩٩ إلى ١٢٩١، ثم كان هناك استعداد دائم من قبل الجانبين للحرب، وهكذا فإن الهدف الأول من هذا الفصل هو القاء الضوء على الموضوعات العسكرية، كما تبرزها المصادر الإسلامية فيما يتعلق بالصراع الإسلامي الصليبي، أما الهدف الثاني فهو اختبار هذه المادة في مواجهة نظريات المؤرخين العسكريين المحدثين.

في الفصل الثامن، تلقي المؤلفة الضوء على الإستراتيجية العسكرية للمسلمين، وتناقش أولاً تكتيكات الجيش الفاطمي، مشيرة إلى أن إخفاق الجيش الفاطمي في فلسطين يرجع إلى مشكلات القيادة والتمويل أكثر من ألوان الضعف العسكري في الجيش، كما أن الفاطميين كانوا يواجهون جيشًا لم يألفوا أساليبه في القتال تدفعه رؤية عقيدية قدمًا للقتال بضراوة واستماتة.



الحلية الثعبانية المميزة لبوابة قلعة حلب

وبالانتقال إلى الفرسان الأتراك تشير دكتورة كارول هيلينبراند إلى أنهم أدّوا دورًا أساسيًا في جيوش نور الدين وصلاح الدين ومن أعقبهما في التصدي لقيادة الجانب الإسلامي في الصراع، إذ يهجمون بضراوة على العدو، وفي اللحظة

الأخيرة يثورون ويرشقون العدو بوابل من السهام، هكذا تمثل دورهم الأساسي في تشتيت تجمعات العدو الصليبي، وذلك بالتجمع وإعادة التجمع والعودة إلى الانقضاض مراراً وتكراراً، وخلافاً للحكام المسلمين الأكثر استقراراً الذين ينقسمون إلى مجموعة صغيرة تقوم بالانقضاض على الخصم وحصاره والضغط عليه.

ولا ينتهي هذا الفصل إلا بعد أن تخوض المؤلفة معنا غمار حشد هائل من المصادر الإسلامية لإلقاء الضوء على المعارك الصدامية الكبيرة التي جرت في خضم الحروب الصليبية. حقاً أن الجانبين قد ترددا في خوض هذا النوع من المعارك بسبب عنصر المخاطرة المرتفع المندرج فيها، إلا أن عدداً من المعارك الرئيسة وقعت بالفعل وسجلتها المصادر الإسلامية، لكن المؤلفة تلاحظ صعوبة استخدام هذه المصادر بالنسبة إلى أي شخص يسعى للحصول على إطلالة على إستراتيجية المعارك الإسلامية أو الوصول إلى أسباب الانتصارات المفردة على أي من جانبي الصراع.

الفصل التاسع هو أقرب إلى مختتم شامل يحمل عنوان «تراث الحروب الصليبية»، وتتصدى فيه المؤلفة للمهمة الصعبة المتمثلة في ربط الماضي بالحاضر، فتتحدث عما تصفه بالحملات المضادة للصليبية، وتتعرض - بايجاز - لحالات دراسة بعينها، في مقدمتها كتابات سيد قطب، وحزب الله، وحماس، وحزب التحرير الإسلامي، ثم تشير إلى عناصر التوازي بين مملكة القدس الصليبية ووضع إسرائيل الحالي.

وتحت عنوان «ملاحظات ختامية»، تشير الدكتورة هيلينبراند إلى أنه على الرغم من أن الحروب الصليبية كانت قصيرة بالمعايير الزمنية، لكنها تركت تأثيرها الباقي، وأسفرت عنه خطوط معارك من سوء الفهم والعداء بين الشرق والغرب، وهي تعرب عن اعتقادها بأن عدداً من الدروس المستمدة من تحليل المنظور الإسلامي للحروب الصليبية من شأنه أن يساعد في تحقيق تفاهم أفضل بين الغرب والشرق الإسلامي.

أخيراً، تبقى الإشارة إلى أن هذا الكتاب يعدّ عملاً استثنائياً من طراز رفيع، يستحق عن جدارة أن تبادر مؤسسة ثقافية كبرى، أو شخصية ثقافية بارزة إلى تبني مشروع ترجمته إلى اللغة العربية؛ لأنه يسد فراغاً حقيقياً في ميدان تخصصه، لكن ذلك لا يمنعنا من أن ندرك ونعي مسبقاً أن تلك ليست بالمهمة اليسيرة، بل ان من سيتصدى للترجمة الفعلية سيجد نفسه في غمار كابوس حقيقي، ولقد سبق لي أن خضت غمار كابوس مهني مماثل لدى القيام بترجمة في أقل من ألف صفحة، وهو يقدم مقتطفات لا حصر لها من مصادر عربية، إما من خلال ترجمات قياسية من العربية إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية، وإما من خلال ترجمتها مباشرة من العربية إلى الإنجليزية، ثم يتعين رد هذا كله إلى أصوله العربية، في إطار مهمة أقرب إلى رحلة وحشية في الأدغال من المجهول إلى المجهول، ويتعين على من سيقدر له القيام بهذه المهمة ألا ينسى أن عدداً من هذه المصادر لايزال مخطوطاً، في مكتبات عالمية محدودة، بل وبعضه يندرج تحت صفة «العلم المضنون به على غير أهله».

الحروب الصليبية كانت قصيرة بالمعايير الزمنية، لكنها تركت تأثيرها الباقي الذي أسفرت عنه معارك مستمرة من سوء الفهم والعداء بين الشرق والغرب

على الرغم من هذا كله فإن المرء لا يملك إلا التفاؤل والتطلع إلى يوم يرى هذا الكتاب طريقه في طبعته العربية إلى أيدي القراء العرب.

الدكتور أحْمَد شَوْقِي بِنْبِين:
الخزانة الملكية بالرباط من أغنى خزائن المخطوطات في العالم

أجراه: عبد اللطيف بن محمد الجيلاني
الرباط - المغرب

تستأثر الخزانة الملكية بالرباط باهتمام خاص من قبل الباحثين والمعنيين بالتراث مما جعلها تحتل مكانة مرموقة بين الخزانات العالمية، ولا عجب في ذلك فهي ذات تاريخ عريق، ومدخرات نادرة من الأعلاق المخطوطة والمطبوعة، ولأجل الوقوف على ماضي هذه الخزانة وحاضرها، والكشف عن آفاقها المستقبلية، كان هذا الحوار مع الأستاذ الدكتور أحمد شوقي بنبين، وهو علم بارز من أعلام البحث والتحقيق، وأستاذ أديب مطلع، له بصماته الواضحة في الجامعة المغربية من خلال تدريسه بجامعة محمد الخامس بالرباط، وإشرافه ومناقشته لعدد من الأطروحات العلمية، وهو قبل ذلك وبعده مخطوطيٌ بارع، تخصَّص في علم المخطوطات، واطلع على خبايا هذا العلم، وأمسك بمفاتيحه، وهو الآن مدير الخزانة الملكية بالرباط.


بنبين يتحدث إلى الجيلاني

وكانت بداية الحوار بسؤال عن الجانب الشخصي لمعرفة أهم المراحل التي أسهمت في تكوينه العلمي، والمناصب التي تقلدها، وأهم إنتاجاته الأدبية والعلمية. وقد أجاب بقوله:

فيما يتعلق بمسيرتي الثقافية بإيجاز: كنت طالباً في إحدى الثانويات في مدينة مراكش، وفيها أحرزت شهادة بكالوريا التعليم الثانوي باللغة الفرنسية، ثم سجلت في كلية الآداب بجامعة فاس، وفيها حصلت على الإجازة في الأدب العربي، وكان ذلك في عام ١٩٧١م، ثم انتقلت مباشرة إلى العاصمة الفرنسية باريس، والتحقت بجامعة السوربون (باريس الرابعة) لتحضير دكتوراه السلك الثالث وحصلت عليها عام ١٩٧٥م، وكان موضوع رسالتي عن تطور المصطلح الصوفي في القرن السابع الهجري من خلال ديوان

ابن الفارض، تحت إشراف المستشرق جورجي أرنالديز الذي ما زال على قيد الحياة وقد تجاوز التسعين، وقبل عام ١٩٧٥م كنت قد تخرّجت في المدرسة العليا لعلوم المكتبات بباريس، وأصبحت أول مغربي يحصل على دبلوم الدراسات العليا في علوم المكتبات، ثم بعد هذه الفترة عدت إلى المغرب فَعُيِّنْتُ أستاذًا مساعدًا في كلية الآداب بالرباط، وفي الوقت نفسه نائبًا لمدير الخزانة الملكية، وكان ذلك في عام ١٩٧٥م، وهنا بدأ هذا التوجه نحو دراسة علم المكتبات، وأصبح هناك تحول في مسيرتي الثقافية؛ ولا سيّما بعد أن سجّلت دكتوراه الدولة في الجامعة الفرنسية بعنوان: «تاريخ المكتبات في المغرب»، وبعد عشر سنوات، وفي مارس عام ١٩٨٦م تمت مناقشة هذه الرسالة، وحصلت على الرتبة، ولله الحمد، وهي التي طبعت باللغة الفرنسية عام ١٩٩٢م بكلية الآداب بالرباط، ونقلت إلى اللغة العربية كجزء من موضوع أطروحة دكتوراه لأحد طلبتي، ستناقش إن شاء الله قريبًا، ثم ستأخذ هذه الترجمة العربية طريقها نحو الطبع، وهكذا أصبح عندي اهتمام بالغ بما يسمى اليوم بعلم المخطوط بمفهومه الحديث عند الأوروبيين أو ما يطلق عليه علم الكوديكولوجيا، فكنت - لا أقول هذا بافتخار، ولكن بتواضع، وبشهادة كثير من زملائي في أوروبا وفي الشرق - أوّل عربي كتب في علم المخطوط، بحيث لما أشار الدكتور أيمن فؤاد سيد في كتابه «علم المخطوط العربي وعلم المخطوطات» إلى الدراسات التي أنجزت في علم المخطوطات ثمّ وضعني ووضع كتابي في نهاية المطاف، قال: إن هذا هو أول كتاب، ويعدّ المؤلّف الرائد في علم المخطوطات، وأثنى عليّ كثيرًا.

وفي هذا الإطار نفسه أشرفت على ندوة دولية بكلية الآداب بالرباط عام ١٩٩٢م بعنوان: «المخطوط العربي وعلم المخطوطات»، فكانت أول ندوة دولية في العالم بهذا العنوان.

طبعًا الحديث عن علم المخطوطات بمفهومه الحديث طويل، ويختلف عن مفهومنا عن المخطوط نحن العرب في الشرق قديمًا وحديثًا، علاوة على ما سبق ذكره من الاشتغال بالمكتبات والمخطوطات كان لي عناية بتحقيق ديوان شاعر الحمراء، بأمر من صاحب الجلالة الملك الحسن الثاني، رحمه الله، وقد طبع ولقي قبولاً حسنًا، ولله الحمد، كما أنني مستمر في عملي بكلية الآداب بالرباط، وعلى الرغم من مسؤوليتي في الخزانة الملكية، فأحاضر عن المكتبات والكتاب العربي المخطوط وكل ما له علاقة بهذا، وأشرف على الأبحاث المقدّمة لنيل الدكتوراه، وأشترك في مناقشتها.

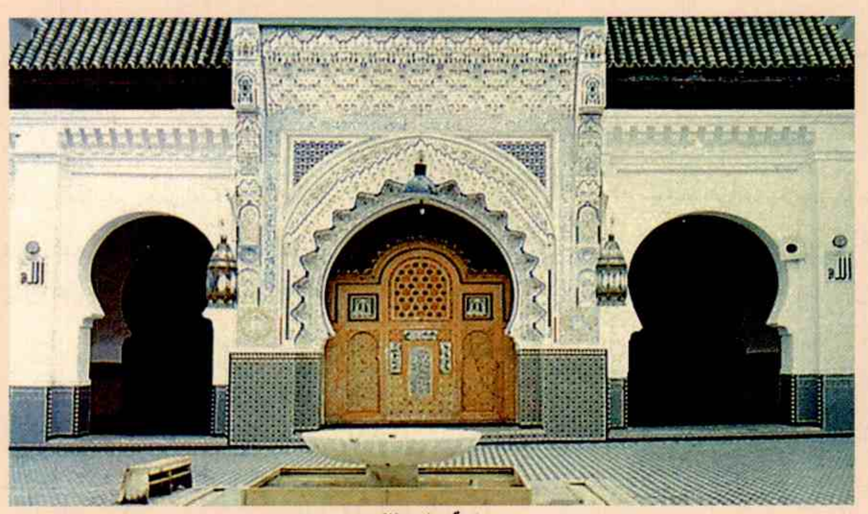
الخزانة الملكية تعدّ من أعظم الخزائن العالمية، ولا يخفى ما تشتمل عليه من تراث زاخر، في تاريخ هذه الخزانة العامرة، كيف تنامت وتكاثرت محتوياتها؟

إن شاء الله عندما يصدر كتابي عن تاريخ المكتبات بالمغرب باللغة العربية ستقفون على موضوع المكتبة الملكية، فقد خصّصت جزءًا من أطروحتي حول تاريخ



من داخل الخزانة الملكية

ظهور المكتبة الملكية بالمغرب، فعندما نقرأ في كتب التاريخ وحضارة المغرب نجد أن أول مؤسسة مكتبية بالمغرب كانت هي الخزانة الملكية، فالأشراف الأدارسة في القرن الثالث الهجري هم الذين أسّسوا مدينة فاس، وكانت لهم بها بعض القصور، وتذكر المصادر أن أحد هؤلاء الأشراف من ملوك الأدارسة، ويسمى يحيى الرابع، كان يأتي بنساخ من الأندلس لينسخوا له الكتب التي هي محفوظة في القصر، إذن كان هناك وجود للخزانة الملكية منذ القرن الثالث الهجري، وأما خزانة القرويين فقد نشأت في هذه الفترة، وهناك مساجد وجوامع أخرى في المغرب كانت تلقى فيها دروس، ولكن لم يحدثنا أحد عن وجود خزائن داخلها، فطبعاً كانت كل المساجد بها زوايا ومكتبات صغيرة تضم مصاحف قرآنية وكتباً لها علاقة تدور في فلك القرآن إلى غير ذلك، وكمثال ففي القرويين لم نعلم بتأسيس خزانة خاصة بكتب جامع القرويين إلا في القرن الثامن الهجري على عهد عنان المريني، فإنّك إذا وقفت في المدينة القديمة بفاس عند باب الصفارين تجد هناك لوحة عليها تاريخ تأسيس الخزانة وهو سنة ٧٥٠هـ، إذن أول مرة تتحدث كتب التاريخ عن وجود مكان وبناء خاص للكتب، ولكننا نعلم أن هناك خزانة ملكية في المغرب منذ القرن الثالث الهجري، وأن النساخ كانوا يقدمون من الأندلس إلى المغرب لنسخ الكتب.



ساحة جامع القرويين

ولدينا وثائق ومخطوطات تثبت أن الخزانة الملكية ظهرت ونشأت وكان لها وجود عند المرابطين الصنهاجيين بمراكش الذين حكموا المغرب في القرن الخامس الهجري، ومع أن الخليفة المرابطي يوسف بن تاشفين لم يكن مثقّفًا كبيرًا إلا أنه كان كلّما رحل إلى الأندلس يأتي بأحمالٍ من الكتب لخزانته بالقصر الملكي بمراكش، وكذلك كان ابنه علي بن يوسف الذي أخذت اسمه إلى اليوم جامعة ابن يوسف تلك المؤسسة العلمية الكبيرة التي كانت تسامت جامعة القرويين وتناهضها مدة تسعة قرون ..

وقد اعتنى عبد الواحد المراكشي (ت: ٦٤٧هـ) في كتابه «المعجب» بذكر الأخبار المتعلقة بالخزانة الملكية في ذلك العهد. وكذلك واصل سلاطين دولة الموحدين في مراكش اهتمامهم بالكتب، وعلى رأسهم السلطان عبد المؤمن بن علي الكومي، ثمّ ولده أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الذي كان مولعًا ومحبًا للفلسفة، وكانت خزانته تضم أكثر من أربعمئة ألف مخطوطة، وذكر أحمد المقري (ت:١٠٤١هـ) ـ من علماء القرن الحادي عشر الهجري ـ في كتابه «نفح الطيب» أنّه كان من ضمن هذه المخطوطات ما يقارب مئتي ألف مخطوطة تتعلق بالفلسفة. وأبو يعقوب هذا هو الذي دعا ابن رشد (ت: ٥٩٥هـ) بإيعاز من ابن الطفيل (ت:٥٨١هـ) إلى نقل مؤلفات أرسطو إلى اللغة العربية وترجمتها وشرحها، وكان ذلك في القرن السادس الهجري.

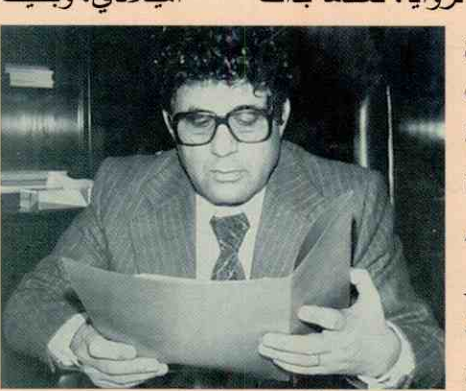
ثم استمر نماء الخزانة الملكية بمجيء الخليفة

يعقوب المنصور، وهو من أبرز خلفاء الموحدين. وعندما تقلد المرينيون زمام الأمور بالمغرب أعطوا أهمية كبرى للخزانة الملكية بحيث كان لأبي عنان المريني خزانتان: خزانة ثابتة في قصره بفاس، وأخرى متنقلة تتنقل معه في رحلاته خارج فاس؛ مما يدل على غنى هذه المؤسسة الملكية وثرائها.

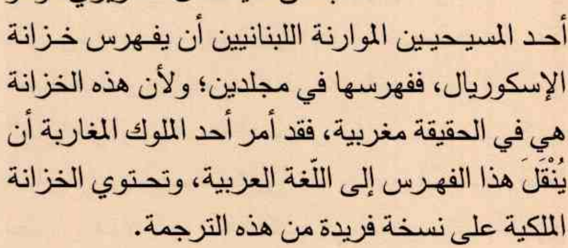
خزائن أخرى

وفي أيام حكم دولة السعديين والوطاسيين في القرنين التاسع والعاشر كانت الخزانة الملكية أغنى خزائن المغرب، وفي هذه الفترة بدأ يظهر نوع من الخزانات بالمغرب كخزائن المدارس العتيقة، فقد كان هناك خزائن بالمدارس المرينية في فاس، ومدارس سلا ومراكش، وكذلك ظهرت خزائن الزوايا، فعندما بدأت الهجومات الأجنبية على شواطئ المغرب خصوصًا من طرف الإسبان والبرتغال بدأ المغاربة يدخلون فيما يسمّى بالزوايا ويؤَسِّسُون فيها مكتبات، وهذه الزّوايا أُسِّسَت لتقاوم ولتنشر العلم، وكمثال الزاوية الناصرية بتمكروت، والزاوية العياشية بقرب الرشيدية، وخزانة زاوية تنغملت بقرب أزيلال، وكان الفقيه محمد المنوني قد وضع مجموعة من الأدلة واللوائح لمجموعة من هذه الخزائن، وهو - رحمه الله - نادرة من نوادر عصره في هذا الباب.

وعلى الرغم من ظهور هذا النوع من الخزانات ظلّت الخزانة الملكية أغنى هذه الخزائن، والدليل على ذلك أن الخزانة الملكية التي أسّسها أحمد المنصور الذهبي من سلاطين السعديين في القرن العاشر بمراكش قد بلغت الأوج، ثم ورِثَها ابنه زيدان، والتي لظروف تاريخية يطول شرحها - وقد كتبت عنها، وكتب عنها كثير من الأبحاث - شاءت إرادة الله أن تؤول إلى خزانة الإسكوريال بإسبانيا، كما هو معلوم، وحسب الوثائق التي أتى بها هنري دوكاستري أن زيدان جمع أكثر من أربعة آلاف مخطوط من النوادر عندما أراد الهروب إلى أكادير، واكترى لنقلها سفينة، لكن رُبَّان السفينة لما لم يعط له ما وجب عاد هاربًا بالسفينة بما فيها من حمولة إلى فرنسا، فاعترض طريقه القراصنة الإسبان، وكانت إسبانيا في بداية القرن السابع عشر الميلادي في صراع مع المغرب، فأخذوا هذه الكتب النادرة التي اعتقدوا في بداية الأمر أنها صناديق مملوءة بالذهب، وللسيطرة المسيحية فقد أمر البابا أن تدخل هذه الكتب إلى دير القديس لورنزو بالإسكوريال الذي أسس في القرن الخامس عشر الميلادي، وبقيت هناك إلى أن وقعت الصاعقة التي أحرقت نصف تلك الكتب تقريبًا، فالموجود منها الآن نحو ألفي مخطوطة كلها مغربية، ككتاب «المفصل» لابن خلدون (ت: ٨٠٨هـ) ورحلة ابن رُشَيْد السَّبْتي (ت: ٧٢١هـ)، وكثير من هذه الكتب عليها خط السلطان زيدان السعدي، وبعد وقوع الصاعقة طلب من ميشال الغزيري، وهو



محمد العربي الخطابي



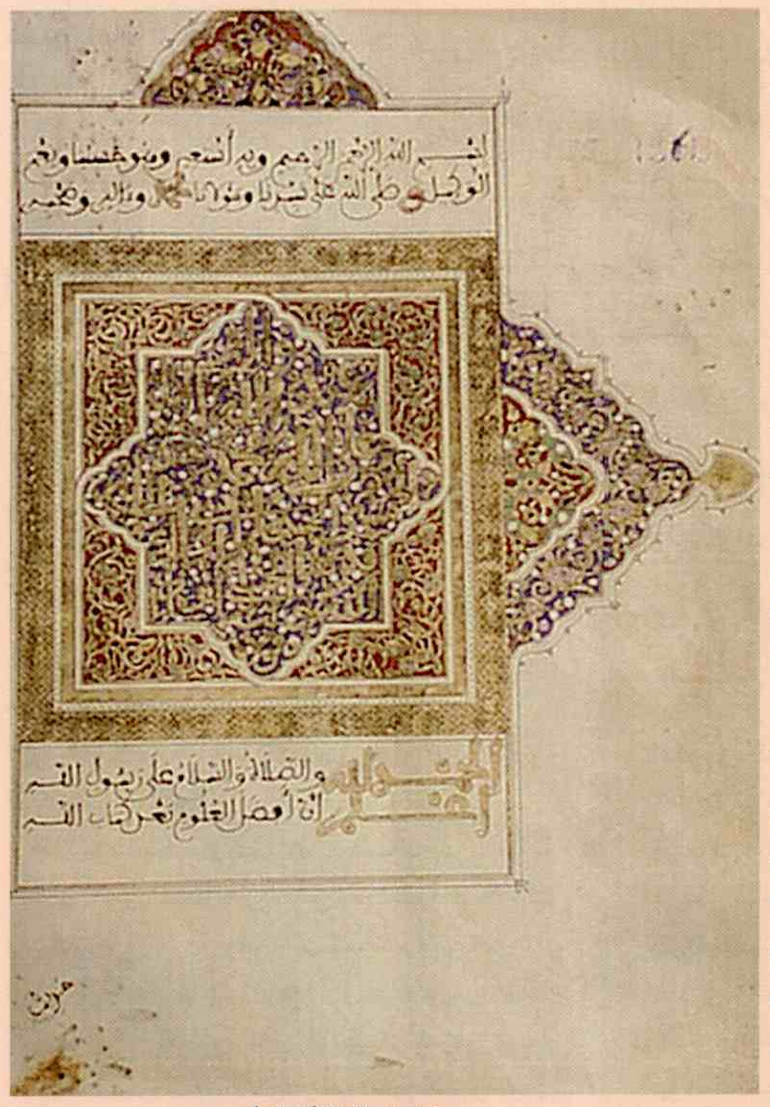
أحد المسيحيين الموارنة اللبنانيين أن يفهرس خزانة الإسكوريال، ففهرسها في مجلدين؛ ولأن هذه الخزانة هي في الحقيقة مغربية، فقد أمر أحد الملوك المغاربة أن يُنْقَلَ هذا الفهرس إلى اللّغة العربية، وتحتوي الخزانة الملكية على نسخة فريدة من هذه الترجمة.

وفي عهد السلطان مولاي رشيد العلوي كان هناك صراع مع زاوية الدلائيين - وهي من أكبر زوايا المغرب آنذاك - انتهى باستئصالها والقضاء عليها، وكان لدى هذه الزاوية خزانة تحتوي على أكثر من عشرة آلاف مخطوطة يعتقد أن السلطان مولاي رشيد أمر بضمّ بعض نوادرها إلى الخزانة الملكية،

ووزّع بقية ما تحتوي عليه من كتب على بعض الزّوايا الأخرى، وقد كتب محمد عبد الحي الكتاني عنها كثيراً في كتاب له يتحدّث فيه عن خزائن المغرب يوجد مخطوطًا بالخزانة العامة.

محاولات لاسترداد الكتب والمخطوطات

أبلى السلطان مولاي إسماعيل البلاء الحسن في الاهتمام بجمع الكتب، كما أنه طالب باسترداد خزانة الأمير زيدان التي آلت إلى الإسكوريال، وبَعَثَ في شأنها عدة سفارات إلى إسبانيا، وكان يُلِحُّ في طلبه، فلمّا بالغ في الطلب أرسلوا إليه ببعض الكتب العربية القديمة التي كانت بغرناطة على العهد العربي في إسبانيا، ولم يمنحوه وعداً بإرجاع مكتبة الإسكوريال، ولما كانت مكناس هي العاصمة في عهد السلطان مولاي إسماعيل فإنّ مكتبته كانت في مكناس، ويلاحظ هنا أن الخزانة الملكية كانت تتنقل بانتقال العاصمة، فقد كانت في فاس، ثمّ صارت في مراكش على عهد المرابطين والموحدين، ثم عادت إلى فاس على عهد المرينيين والوطاسيين، ثم عادت مرة أخرى إلى مراكش على عهد السعديين، ثم عادت إلى فاس مع العلويين في عهد مولاي رشيد، ثم في أيام المولى إسماعيل أصبحت في مكناس لأن عاصمته كانت هي مكناس، ثم لما كان السلطان محمد بن عبد الرحمن في القرن التاسع عشر الميلادي بمراكش - وليًا لأبيه هناك، ثم تولّى الملك، وجعل من مراكش عاصمة له - انتقلت المكتبة الملكية إلى مراكش، وهكذا إلى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حين كان بفاس آخر الملوك العلويين قبل الحماية



من مخطوطات الخزانة الملكية

الفرنسية السلطان مولاي عبد الحفيظ، وكانت خزانته بفاس، فلما أصبحت الرباط عاصمة للمغرب بعد الاستقلال، وجاء عهد الحسن الثاني، أصبح مقر الخزانة الملكية بالرباط.

ومما يذكر هنا أن جلّ ملوك المغرب منذ عهد الأدارسة والمرابطين إلى عهد العلويين عرفوا بجمع الكتب واستنساخها، والحصيلة الوافرة من الكتب التي تضمها الخزانة الملكية أكبر دليل على هذا الاهتمام منذ القرن الثالث إلى اليوم، فالآن بالنسبة إلى العناوين

تضم الخزانة الملكية نحو أربعة عشر ألف مخطوطة، وبالنظر إلى المجاميع قد تصل هذه الكتب إلى ثلاثين ألف عنوان، ففي بعض المجاميع يوجد من عشر رسائل إلى خمس عشرة رسالة، بل يوجد عندنا بالخزانة مجموع يضم ثلاثمئة وخمسين رسالة، وكل رسالة بعنوانها، وعندما عينت مديرًا لهذه الخزانة حاولت أن أضع كشافًا عامًا لجميع الكتب التي تضمها الخزانة، لكن واجهتني مشكلة المجاميع، فلا بد أن أدرس كل مجموع على حدة، وأن أستخرج كل هذه الرسائل بعناوينها وبفهرستها ووصفها حتى يكون هذا الكشاف العام نموذجًا مثاليًا لهذه الخزانة، فهذا بوجه عام تاريخ الخزانة.

ما أهم المجموعات التي ضمت إلى الخزانة الملكية، فمن المعلوم أن الخزانة الملكية كانت تتلقى بين فترة وأخرى بعض المكتبات والمجموعات المكتبية عن طريق الإهداء أو التحبيس، والذي أذكره خزانة العلامة المؤرخ عبد الرحمن بن زيدان نقيب الأشراف بمكناس، وهي التي يشار إليها بحرف (زاي)، وخزانة زاوية تنغملت، وخزانة الفقيه محمد المنوني فقد بلغني أنكم تعملون على جلب هذه الخزانة؟

الكتب من الهدايا القيمة التي كان الملوك العلويون يحبون أن تهدى إليهم، والحسن الثاني كانت أكبر هدية يتلقاها، وأحب هدية إلى نفسه هي الكتاب أو المخطوط، وحتى في آخر عهده كان يتلقى بعض المخطوطات، وكنت أتوصل بها لأضع له جذاذة تقنية بسيطة لكل مخطوط تعطي فكرة عن موضوعه وتاريخه وتسفيره وندرته إلخ. فمعظم ملوك المغرب

وجود هذه النوادر دليل على أن المغاربة كانوا يعتنون بجلب الكتب إلى المغرب في أثناء رحلاتهم وأسفارهم وحجهم وتنقلاتهم في العالم العربي، وهذا ما أسهم في غنى الخزائن المغربية وثرائها، وعلى رأسها الخزانة الملكية

كانوا يتلقون الكتب عن طريق الإهداء، إذ كان السفراء والحجاج والعلماء والأمراء وكلّ من له علاقة بالقصر، ويمكن له أن يلتقي الملك يأتي حين عودته من سفره بمجموعة من الكتب، ويقدمها هدايا للملك، ولهذا فتاريخ المغرب الثّقافي، ولا سيّما المتعلق بالخزانة الملكية، حافل بمثل هذه الأشياء، فكان هناك أناس يسافرون ويجلبون كتبًا، ويشترونها إما على حساب القصر وإما للإهداء.

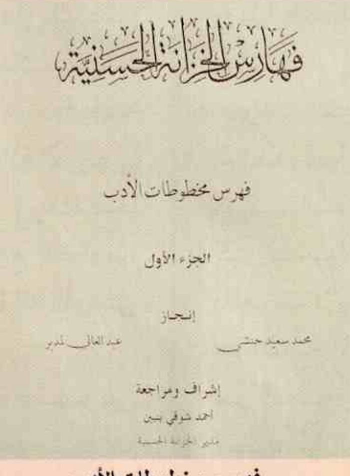
فالخزانة الحالية هي في الحقيقة ليست خزانة واحدة، فالخزانة الرسمية بالقصر الملكي بالرباط، وهناك خزائن أخرى ملكية في بعض القصور، كالخزانة الملكية بمراكش، وهي تضم نحو ثلاثة آلاف مخطوط من النوادر، وكان الشيخ محمد عبدالحي الكتاني في أواخر حياته لما أوشك على الموت بفرنسا عام ١٩٦٢م قد أوصى زوجه بتسليم الكتب التي استصحبها معه عند خروجه من المغرب - وهي نحو ألف مخطوطة نادرة - إلى الملك الحسن الثاني، وهذا يدلّ على ولائه وإخلاصه وحُبِّه، فلمّا وصلت إلى الملك الحسن الثاني أَمَرَ أن تُحْفَظَ بمراكش، كما نُقِلَت إلى الخزانة الملكية بمراكش مجموعات أخرى من الكتب عن طريق الاقتناء وغير ذلك، وكذلك الخزانة الملكية بقصر الدار البيضاء، والخزانة الملكية التي بقصر فاس، وقد تصل مخطوطاتها إلى نحو أربعة آلاف مخطوطة أو خمسة آلاف، وهذه الخزائن الملكية المذكورة آنفًا هي مخازن للكتب؛ ولذلك فهي مغلقة في وجه الباحثين، وقد بدأنا الآن في محاولات لوضع السؤال أمام الملك محمد السادس حفظه الله في محاولة لجلب الكتب التي تضمها هذه الخزائن، وضمها إلى الخزانة الملكية بالرباط حتى تتم الاستفادة

منها وفهرستها وحفظها.

كما طُعِّمَت الخزانة الملكية بخزائن خاصّة أخرى، وعلى رأسها خزانة مولاي عبدالرحمن بن زيدان العلوي الذي كان نقيب الأشراف في مكناس، وتوفي عام ١٩٤٦م، وهو صاحب كتاب «إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس»، وقد كان نادرة من نوادر المغرب، وخزانته كانت تعدّ في الصف الثاني بعد خزانة الشيخ محمد عبد الحي الكتاني الذي تعدّ خزانته أكبر خزانة خاصة بالمغرب في القرن العشرين، وقد انتقلت خزانة الفقيه ابن زيدان إلى الخزانة الملكية بعد وفاته، ولست أدري كيف كانت الطريقة التي تمّ بها جلب هذه الخزانة، هل كان ذلك عن طريق الاقتناء أو الإهداء أو غير ذلك؟ وهذه الخزانة طَعَّمَتْ وَأَغْنَتْ بكل صراحة الخزانة الملكية؛ خصوصًا إذا علمنا أنها تقدر بنحو أربعة آلاف مخطوطة إلى خمسة آلاف، فهي تشكل نسبة مهمة من مخطوطات الخزانة الملكية بالرباط.

خزانة تنغملت

ومن الخزانات التي اقتناها الملك الحسن الثاني وعزّز بها محتويات الخزانة الملكية خزانة زاوية تنغملت بإقليم أزيلال التي تضم نحو تسعمئة مخطوطة، وكان من اقتراحي قبل أربع سنوات ضم هذه الخزانة إلى الخزانة الملكية، فقد كنت ألقيت محاضرة بالرباط عن تاريخ مكتبات الزوايا بالمغرب، فتقدم لي أحد الأشخاص في نهاية المحاضرة لا أذكره الآن، وقال لي: إن خزانة تنغملت قد مات القائم عليها، وهو السيد اليزيد، ويمكن ضمها، فأخبرت جلالة الملك الحسن الثاني بذلك فأمر بأن تقتنى، وكونت لجنة علمية كنت من بين أعضائها إلى جانب الفقيه محمد المنوني، والأستاذ أحمد التوفيق، وزرنا الخزانة في عين المكان رفقة الحاجب الملكي، وقوّمناها بثمن معين، تكرّم السلطان - رحمه الله - بمضاعفته أربع مرات، وهكذا أتينا بالخزانة، وقد فهرسنا جزءًا منها يتعلق بالتاريخ، وجزءًا آخر يتعلق بالأدب، وطبعًا لما نصل إلى فهرسة الفنون الأخرى، كالفقه والحديث واللغة، وسيأتي دور فهرسة بقية كتب هذه الخزانة.



فهرس مخطوطات الأدب

الجزء الأول من فهارس الحسنية

خزانة دوكاستري

وهناك خزائن أخرى ضمت إلى الخزانة الملكية، لكنها خزائن مطبوعة، كخزانة المستشرق الفرنسي هنري دوكاستري المتوفى عام ١٩٢٧م الذي وضع أول تاريخ للمغرب مبني على وثائق منذ بداية القرن بعنوان: «المصادر الدفينة لتاريخ المغرب» في خمسة وثلاثين مجلداً، وكان مستشارًا تاريخيًا على عهد الحماية الفرنسية بالمغرب، هذا الرجل أمر جلالة الملك الحسن الثاني - رحمه الله - باقتناء مكتبته الخاصة، وهي تضمّ نحو ألفي مجلد معظمها مصادر تاريخية مهمّة مطبوعة باللغات الأجنبية وباللّغة العربية، وهي كتب نادرة لا تكاد توجد إلا في فرنسا مثلاً، والآن هي محفوظة لدينا في الخزانة.

وفي الخزانة الملكية كتب كثيرة كانت محبسة لا أدري كيف كان طريق وصولها إلى الخزانة؟ فمثلاً

من ضمن محتويات الخزانة المعروضة على الباحثين والزائرين مصحف من القرن العاشر مكتوب بخط مغربي، له تسفير مذهّب وجميل، وهو مما وقفه السلطان أحمد المنصور الذهبي على خزانة القرويين، ولكن كيف وُجِدَ هنا بالخزانة؟ لست أدري. وهذا طبعاً سؤال، الجواب عنه يحتاج إلى تتبع تاريخ المخطوط، ولعلّه أن يكون هدية من القائمين على خزانة القرويين للسلطان أو شيء من هذا القبيل.

بالنسبة إلى الخزانة الملكية وموقعها بين الخزائن المغربية أو الخزائن العالمية عموماً؛ ما أهم المميزات والخصائص التي تتميز بها هذه الخزانة من تلك الخزائن؟ وما أهمّ النوادر والأعلاق النفيسة التي تزخر بها؟

أنا دائماً أقول: إن الخزانة الملكية هي أغنى خزائن ما يسمّى بالغرب الإسلامي، ويدخل في هذا إسبانيا إضافة إلى بلدان إفريقية الشمالية، فبحكم عدد المخطوطات، وبحكم العناوين - حيث يكون المخطوط أحياناً مجموعاً يضمّ أكثر من عنوان - لا نجد خزانة في الغرب الإسلامي بهذا القدر، فبين الخزانة الملكية وخزانة الإسكوريال أو المكتبة الوطنية في مدريد بون شاسع، وكذلك الشأن بالنسبة إلى خزائن فاس والجزائر، فهي بلا ريب من أغنى خزائن الغرب الإسلامي إن لم أقل أغناها جميعاً، وتعدّ أيضاً من أكبر خزائن العالم من حيث المخطوطات، وهي تتميز من المكتبات العالمية بمحتواها من المخطوطات، يوجد فيها طبعاً عشرات الآلاف من المطبوعات، لكن أهميتها تكمن في المخطوطات المتوافرة بها.

وتاريخ الخزانة الملكية بالرباط يدل على غناها وقيمتها، وعلى قيمة محتوياتها، فهي من بعض الوجوه وريثة الخزائن الملكية التي كانت بالمغرب مدة أحد عشر قرناً.

ومما تتميز به الخزانة الملكية تعدد نسخ الكتاب الواحد، فمثلا عندنا ما يقرب من مئتي نسخة من كتاب «الشفا» للقاضي عياض (ت: ٥٤٤هـ)، ولقد كان كتاب الشفا بمنزلة المصحف في بعض العهود بالمغرب لا يخلو بيت من وجود نسخة منه، ووجود هذه النسخ المتعددة دليل على غنى هذه الخزانة على مر العصور، ثم يدل كذلك على اقتناء خزائن أخرى وجلبها إلى الخزانة الملكية.

ومن بين النوادر التي تحتوي عليها الخزانة الملكية «مصحف» ربما كان أقدم مخطوط، وهو مكتوب بالخط الكوفي على رق الغزال - وكان رق الغزال مخصوصاً في الغالب للكتب القرآنية - يرجع تاريخ نسخه حسب المختصين إلى نهاية القرن الأول الهجري، ولم أر نظيراً لهذا المخطوط في القدم بالخزائن العالمية إلا في بعض الدول القليلة جداً كدار الكتب المصرية بالقاهرة، وبعض المصاحف بمشهد في إيران، وفي المكتبة السليمانية بتركيا، ومع ذلك يبقى هذا المخطوط من أقدم المخطوطات.

الخزانة الحالية هي في الحقيقة ليست خزانة واحدة، فالخزانة الرسمية بالقصر الملكي بالرباط، وهناك خزائن أخرى ملكية في بعض القصور، كالخزانة الملكية بمراكش وهي تضم نحو ثلاثة آلاف مخطوط من النوادر

إضافة إلى هذا المخطوط القرآني لدينا النسخة الأصلية من مقدمة ابن خلدون منسوخة سنة ٧٧٩هـ، وليست هذه النسخة بخطه لكنها ممهورة بشهادته وتوقيعه على صحّة النسخة، وابن خلدون توفي سنة ٨٠٨هـ فمعنى هذا أن هذه النسخة مكتوبة قبل تسعة وعشرين عاماً من وفاته، وهذه هي النسخة التي بعث بها من مقامه بالقاهرة إلى المغرب.

قصة غريبة

وعندنا نسخة فريدة في العالم من الجزء الخامس لكتاب «المقتبس»

لابن حيان، وهو من أكبر المؤرخين بالأندلس في القرن الحادي عشر الميلادي أي الخامس الهجري، والنسخة قديمة جداً بخط أندلسي، وهذا الكتاب قصته غريبة، فهو يتكون من ستة مجلدات، ولا تجد جزءاً من هذه الأجزاء إلا وفيه نقص سوى الجزء الخامس الذي تحتفظ به الخزانة الملكية، فهذا قسم من الجزء الأول، وقسم من الثاني، وهكذا، وهذا الجزء في القرويين بفاس، والآخر في البودليان بأكسفورد، وثالث في الأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد، ونحن عندنا الجزء الخامس وهو الجزء الوحيد الذي وصل إلينا كاملا بلا نقصان، وقد حقّق هذا الجزء ونشره أحد المستشرقين الإسبان وهو «ميتا» في نهاية عقد السبعين الميلادي بالتعاون مع كلية الآداب بالرباط.

وعندنا مجموعة أخرى كبيرة من النوادر، مثل كتاب «الصاهل والشاحج» لأبي العلاء المعري (ت:٤٤٩هـ) الذي تتوفر الخزانة الملكية على نسختين أو ثلاث نسخ منه، ولا يوجد غيرها في الخزائن العالمية سوى قطعة يسيرة بتونس، وحينما عزمت الدكتورة عائشة عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ على تحقيق هذا الكتاب قبل أكثر من عشرين سنة اعتمدت على النسخ الموجودة في الخزانة الملكية.

وكذلك تحتوي الخزانة الملكية على نسخة فريدة من كتاب «جنة الرضى بما قدّر الله وقضى» لابن عاصم الغرناطي (ت: ٨٥٧هـ)، وقد حقّقه اعتماداً على هذه النسخة الدكتور صلاح جرار، وخزائن المغرب على العموم مشهورة بتوفرها على النسخ الفريدة لكثير من المخطوطات المهمة، ولا يخفى أن كتاب «البرصان والعرجان» للجاحظ قد عثر على نسخة فريدة منه في خزانة بزو بإقليم أزيلال، واعتماداً عليها طبع الكتاب بعناية أحد الأساتذة المصريين.

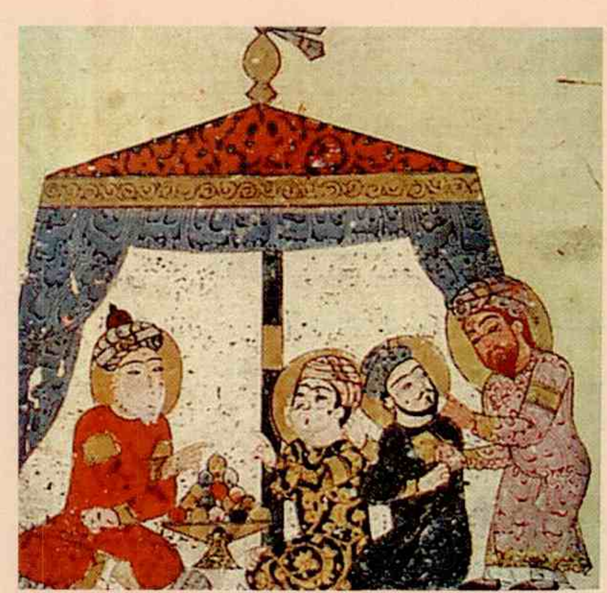
ووجود هذه النوادر دليل على أن المغاربة كانوا يعتنون بجلب الكتب إلى المغرب في أثناء رحلاتهم وأسفارهم وحجهم وتنقلاتهم في العالم العربي، وهذا ما أسهم في غنى الخزائن المغربية وثرائها، وعلى رأسها الخزانة الملكية.

ورد في حديثكم ذكر الاهتمام الذي تولونه لقضية الفهارس، وأنكم بصدد إخراج كل الفهارس والأدلة التي تعين على الاستفادة من الخزانة، فما المشروع الذي رسمتموه بخصوص فهرسة المخطوطات التي تحتوي عليها الخزانة الملكية؟ وما الذي تم إنجازه من ذلك؟

طبعاً وقع تأخير في إصدار فهارس المخطوطات بالخزانة الملكية، لكن هذه الظاهرة لم تختص بها الخزانة الملكية فحسب، بل هي ظاهرة تعم جلّ الخزائن المغربية، فعندما حصل المغرب على الاستقلال لم يعط الاهتمام كما ينبغي بالخزائن، والآن المغرب على العموم يحاول أن يستدرك ما فات من هذا التأخر، وعندما أسست الخزانة الحسنية في عام ١٩٦٢م لم يشرع في إعداد هذه الفهارس، وكانت هناك محاولة من الفقيه المنوني لم تستمر طبعاً لأشغاله المتعددة، فلم تتمكن الخزانة من البدء في إصدار فهارسها إلا بعد نحو ١٥ سنة من افتتاحها تقريباً، فدعي الأستاذ عبد الله عنان من مصر للقيام بهذا العمل، فاشتغل ما يقارب خمسة أعوام أو أكثر ووضع أول فهرست لكتب

غلاف أحد كتب د. بنبين

غلاف أحد مجلدات فهارس الخزانة الحسنية



في الخزانة الملكية مجموعة من أندر المخطوطات في العالم

التاريخ بالخزانة الملكية؛ وكان تركيزه في كتب التاريخ لأنه كان مؤرخًا، ووقع في أخطاء كثيرة قمنا بتلافيها في النشرة الأخيرة مع إضافة جزء كبير يشتمل على فهرسة المخطوطات التي أضيفت إلى الخزانة بعد ذهاب الأستاذ عبد الله عنان، ثم جاء الأستاذ محمد العربي الخطابي في أواخر عقد السبعين الميلادي فواصل إعداد فهارس الخزانة، وكان اهتمامه بكتب العلوم، فأخرج مجموعة من الفهارس لا بأس بها تتناول مخطوطات البيطرة والرياضيات والحساب والفلك والنجوم، وختمها بفهرس علوم القرآن والتفسير، ثم توقف مدة سبع سنوات أو ثمان قبل أن تنتهي مهمته بالخزانة، فلما أتيت بكل صراحة لم أجد هناك أسسا تقنية تقوم عليها المكتبة، فكان همي الأول هو وضع هذه الأسس، حتى تعدّ المكتبة مكتبة بمعناها الحديث، فبدأنا، كما قلت، وكان مشروعي الأول أن ننشر كشافًا (index)، وهذه هي طريقة المستشرقين حينما يتولون مسؤولية إحدى الخزائن، يضعون كشافًا يحتوي على اسم الكتاب، واسم مؤلفه، ورقم الكتاب، وحينما يوجد هذا الكشاف يكون بمنزلة الآلة للانطلاق في إعداد فهرس علمي تتوافر فيه المعايير الحديثة للفهرسة، لكن واجهتني في إخراج هذا الكشاف مشكلة المجاميع، ومع ذلك فسأحاول قدر جهدي إخراجه في السنة المقبلة إن شاء الله، وقد أعددت لتنفيذ ذلك لجنة تحت إشرافي.

وهكذا وضعت الأسس العلمية للمكتبة من مكتبيين، ومسائل إدارية وتقنية وفهرسية، ولجان، وغير ذلك، وبدأنا العمل بإعادة النظر في فهرس التاريخ الذي أعده عنان، فنشرناه هذه المرة في مجلدين، وأخرجنا فهرس الكتب الخاصة بالأدب، والآن هناك باحث تحت إشرافي مكلف بوضع فهرس خاص لكتب اللغة والصرف والنحو، وهي نحو تسعمئة مخطوطة، وقد بلغ الآن نحو ثلاثمئة، سأقوم بمراجعتها، وهو مستمر في عمله.

كانت إسبانيا في بداية القرن السابع عشر الميلادي في صراع مع المغرب فأخذوا هذه الكتب النادرة التي اعتقدوا في بداية الأمر أنها صناديق مملوءة بالذهب

والباحثان اللّذان أعدا فهرس الأدب يشتغلان الآن بفهرسة المخطوطات المتعلقة بالعروض والبلاغة، وهذه ليست بكثيرة.

ويبقى بعد ذلك كتب الحديث والفقه، وهي كثيرة جدًا، وكتب التصوف، وهي كثيرة أيضا، وهذه الكتب تشغل حيزًا وافرًا في الخزانة الملكية، بل في الخزائن المغربية العامة والخاصة بحكم اهتمام العلماء بهذه الفنون.

من الملاحظ على الفهارس التي صدرت عن الخزانة الملكية وغيرها من الخزائن الاهتمام بالجوانب العلمية للفهرسة، وهو ما يسمى بالدراسة الفيلولوجية، وإغفال توصيف الجانب المادي للكتاب

المخطوط، والعناية بهذا الجانب المادي للمخطوط في الفهرسة مهمة جدًا، كما لا يخفى عليكم لكون الكتاب المخطوط وثيقة أثرية وحضارية، فما تعليقكم على هذا؟

تناولت هذا الموضوع في عدد من كتاباتي ومحاضراتي، وفي الحقيقة هناك إشكال يتعلق بالفهرسة، وإشكال آخر يتعلق بالمخطوط، وكنت قد كتبت أخيرًا أن السبب الذي هو الأصل في هذا الخلاف بين المفهرسين في العالم، فعلى كثرة الفهارس المنشورة للمخطوطات الخاصة بالتراث العربي في مختلف بلاد العالم لا نكاد نجد فهرسين متشابهين، وهذا يعني أنه ليس هناك أسس موحدة في الفهرسة، فما السبب؟ لقد شاركت في عدد من الندوات قدم فيها الكثير من الاقتراحات لحلّ هذه المشكلة، وشُكِّلَت لأجل ذلك مجموعة من اللِّجَان، وتمّ إعداد بطاقات نموذجية للفهرسة، ومع ذلك لم نُفْلِح، فأعتقد، وهو آخر شيء قلته في هذا الأمر، أن السبب يعود إلى الخلاف في تحديد مفهوم الفهرسة وعلاقته بعلم المخطوط (الوصف المادي للمخطوط وهو علم الكوديكولوجيا)، فهناك من يجعل الفهرسة عنصرًا قائمًا بذاته، مستقلا عن علم المخطوط، وهناك من الكوديكولوجيين من يجعل الفهرسة عنصرًا من عناصر علم المخطوط، فعندما لا يكون هناك تحديد واضح لمفهوم الفهرسة، فمتى نبدأ؟ ومتى نقف؟ حتى ندخل مجال علم المخطوطات.

فكثير من الفهارس التي تطبع وتصدر الآن تبحث في مصدر المخطوط، وهذا أمر منتقد، فإنّنا إذا أردنا فهرسة خزانة من الخزائن الكبيرة، وبدأنا نحاول البحث عن مصادر المخطوطات، فإننا نحتاج إلى زمن طويل جدًا لنعد هذه الفهرسة، لذلك رأيت أنه عندما تستوي الخزانة الملكية على سُوقِهَا، وتوضع جميع الأسس المكتبية بصفة نهائية، وتظهر معظم الفهارس، إذ ذاك سأشرع مع اللّجنة التي أشرف عليها في دراسة علم المخطوط للإجابة عن مجموعة من الأسئلة التي تطرح حول مصدر المخطوط وتاريخه وزخرفته ونحو ذلك مما يدخل في صميم ما يعرف بعلم الكوديكولوجيا، مع القيام بالتحقيق العلمي لمصادر المخطوطات، ولي بحث منشور عن علاقة التحقيق بعلم المخطوط، وكيف يستفيد المحقق من علم المخطوط، وأذكر بهذا الصدد أنّني سألت بالقاهرة مجموعة من المختصين في علم المخطوطات: ما هي الفهرسة؟ فلم أجد جوابًا شافيًا، وكما قلت هذا هو السبب في التباين والاختلاف الحاصل في إعداد فهارس المخطوطات في مختلف بقاع العالم، فمثلا في المغرب ظهرت مجموعة من الفهارس كلّها مختلفة، وكلٌّ يتغنى ويدّعي وصلاً بليلى، وليلى لا تقرّ لهم بذاكا.

جلّ ملوك المغرب منذ عهد الأدارسة والمرابطين إلى عهد العلويين عرفوا بجمع الكتب واستنساخها، والحصيلة الوافرة من الكتب التي تضمها الخزانة الملكية أكبر دليل على هذا الاهتمام

ومما يجدر التنبيه عليه هنا أن دراسة علم المخطوط تحتاج إلى تجربة كبيرة وثراء علمي، وإلى خبرة بالآداب والتاريخ وعلم الفهرسة والمخطوطات، كما يحتاج تنفيذ هذه الدراسة إلى وقت ربّما لا يتسع له العمر، لذلك فإنّه يكفينا أن نضع له الأسس التي ستساعد الأجيال المقبلة على القيام به، ومهما يكن من أمر فإنّ هذا السؤال يحتاج إلى محاضرة خاصة أو كتاب خاصّ يفرد للمعالجة.

عطفًا على ما ورد في حديثكم من التنبيه على أهمية دراسة الجانب المادي للمخطوط هناك ظاهرة لاحظتها من خلال اطلاعي على بعض

المخطوطات سواء داخل المغرب أو خارجه، وهي قضية انتشار الحبر واحتراقه مما يؤدي إلى تلف المخطوط وفساده، فما سبب ذلك؟

أوّلا: هذا سؤال تقني، وأعترف بقصوري في هذا الباب، فمعرفة الأمُدَّة والأحبار والمواد المكونة منها لها مختصون في الكيمياء، وكذلك المعرفة بالرقوق والجلود، فهذه أيضًا أستصعبها، فبكل صراحة أعترف بقصوري في هذا المجال، ولكن مع ذلك أقول: إن القدماء كانوا ينهون عن الكتابة بالمداد، ويأمرون باستعمال الحبر، ويقولون: اكتبوا بالحبر لا بالمداد؛ وذلك لأن أصل المداد من الصين، والعرب أخذوه وطوروه وصنعوه بشكل آخر، وأضافوا إليه ما يسمى بالصمغ فأصبح يسمّى عندهم بالحبر، وهو أكثر لمعانًا وإشراقًا ودوامًا من المداد الصيني، والحبر من حبّر يحبّر، أي: زين وحسّن، فالتحبير معناه التزيين والتحسين، فكلمة الحبر مأخوذة من التجميل والتزيين، فلهذا أظن أن الذي تَفَسَّخَ في المخطوطات التي أشرت إليها ليس الحبر وإنّما هو المداد، وعندنا هنا في الخزانة الملكية مجموعة من المخطوطات مكتوبة بالحبر، منها نسخة قيمة من صحيح مسلم في أربعة مجلدات تاريخ نسخها فيما أعتقد سنة ٥٧٤هـ، ومع ذلك فكأنها مكتوبة اليوم، وقد أُعْجِبَ بها وزير الأوقاف السعودي عندما زار الخزانة، وأخذ عنها صورة.

ولـ «فيتكام» مدير خزانة لايدن بهولندا مقال في الطبعة الثانية لدائرة المعارف الإسلامية حاول أن يفرق فيه ويميز بين الحبر والمداد، والسبب الذي جعل العرب يكتبون بالحبر لا بالمداد، فجوابًا عن سؤالكم أعتقد أن التفسخ الحاصل في المخطوطات لا يكون بالحبر وإنما عند استعمال المداد الذي هو أقل دوامًا ولمعانًا، ومع ذلك فأرى أن هذا السؤال ينبغي أن يطرح على متخصصين في الكيمياء، وسيكون جوابهم أدق وأوفى من جوابي هذا.

بدأ كثير من الخزائن العالمية بإنشاء مواقع لها بالإنترنت، تعرّف من خلال هذه المواقع بتاريخها ومحتوياتها، وتعرض فهارسها على المهتمين بالتراث، هل سيكون للخزانة موقع أسوة بهذه الخزائن؟ وما الآفاق المستقبلية التي تنشدونها للخزانة؟

حصلنا على الخط قريبًا، ونحن الآن بصدد إنشاء الموقع، وهذا الأمر أصبح أمرًا لازمًا اليوم، وسنجتهد في تصميم الموقع وإعداد مواده من تعريف بتاريخ الخزانة، وما أنجز من فهارسها، وما إلى ذلك.

أما بالنسبة إلى الآفاق المستقبلية للخزانة فإننا نخطط لأمور كثيرة يأتي في طليعتها عمل علمي جبّار وكبير شرعنا فيه منذ نحو سنة، ونحن السبّاقون إليه في المغرب، وهو إدخال كل محتويات الخزانة على ما يسمى بالأقراص المدمجة (سيديروم)، وقد أتينا بآلة متطورة من أغلى الآلات وأحدثها حتى الآن في تخزين المخطوطات، مع تقنيين للقيام بهذه المهمة، والآن تمّ إدخال نحو مئة مخطوطة ولله الحمد، ونحن مستمرون في إنجاز هذا المشروع.

هناك وثائق ومخطوطات تثبت أن الخزانة الملكية ظهرت ونشأت وكان لها وجود عند المرابطين الصنهاجيين بمراكش الذين حكموا المغرب في القرن الخامس الهجري

ولذلك أقول إن مستقبل الخزانة الملكية سيكون مشرقًا إن شاء الله، ولا أظنّ أن خزانة أخرى بالمغرب لديها هذا المشروع، وهو فهرسة جميع محتوياتها، وإدخال جميع مخطوطاتها في أقراص مدمجة، ثم دراسة ما يسمّى بعلم المخطوط، ومما لا شكّ فيه أن البداية شاقّة وعسيرة، لكن كما يقال من لم تكن له بداية محرقة لا تكن له نهاية مشرقة.

كيف تنظرون إلى مسألة صيانة المخطوطات وحفظها وحمايتها من التلف والضياع، فالمخطوطات كما لا يخفى عليكم معرضة لكثير من الآفات التي قد تفسدها وتتلفها، وهل يعدّ تصوير المخطوطات في نظركم من الوسائل الناجعة في ذلك؟

طبعًا جلّ الخزائن العالمية الكبيرة لجأت إلى تصوير مخطوطاتها لا سيما على الميكروفيلم، لهذا فتصوير المخطوطات على الميكروفيلم والميكروفيش من الآليات والوسائل المهمة، لكن هناك الآن ما هو أهم وأولى؛ وهو تخزين المخطوطات على أشرطة سيديروم، وقد قلت آنفًا: إنّنا بدأنا في هذا المشروع، وعندما ننتهي من إنجاز هذا العمل سيصبح المخطوط في متناول الباحثين عبر الآلة، أما المخطوط الأصلي فلا نسلمه إلا في حالات خاصة.

ونحن عندنا في الخزانة الملكية ما يقارب ٢٠٪ من المخطوطات مصورة على الميكروفيلم، وكنا سنستمر في تصوير باقي المخطوطات لولا حصولنا على الآلة التي تقوم بتخزين المخطوطات على السيديروم، ولهذا لم نعد نهتمّ بتخزين المخطوطات على الميكروفيلم أو الميكروفيش بقدر ما أصبحنا نهتم بتخزينها على السيديروم، وأعتقد أن الانتهاء من مشروع التخزين هذا سيتطلب ما يقارب من ست سنوات إلى سبع؛ إذ ذاك سنقتني الأجهزة اللازمة للقراءة، ونتوقف عن تسليم المخطوط الأصلي للباحثين والقراء، إلا من كان له اهتمام بدراسة علم المخطوط، فإنه لا بد له من تصفح المخطوط الأصلي، وهذا النوع من الباحثين قليل جدًا.

إضافة إلى هذا المشروع فنحن، ككل الخزائن العالمية، نقوم بصيانة المخطوطات وحمايتها، من المحافظة على الطقس من ٢٠٪ إلى ٢٢٪، كما نقوم بعملية التبخير مرة في كل شهر، وهذا لا يعني أنه لا يوجد عندنا مشكلات، فمثل سائر الخزائن نعاني مشكلة الترميم، فهناك كثير من الكتب بحاجة إلى ترميم، وهذا العمل يتطلب وقتًا طويلاً، ويقوم بمساعدتنا على هذا مركز الترميم بالخزانة العامة، وهم يقومون الآن بترميم المخطوطة الأصلية من مقدمة ابن خلدون، ومن المخطوطات المهمة التي قاموا بترميمها الجزء الخامس من كتاب «المقتبس» لأبي حيان، وهو الآن في العرض، وقد تطلب هذا الترميم الانتظار أكثر من سنتين، فلا أخفيكم أنّنا نعاني مشكلة الترميم، وسنسعى في الأيام المقبلة إلى توفير ما يلزم ليكون عندنا بالخزانة الملكية قسم خاص بالترميم، ولتكون الخزانة في المستوى الذي أراده لها مؤسسها الملك الحسن الثاني، طيب الله ثراه.

تقذف عجلات المطابع بكثير من الكتب التراثية، وأغلبها يفتقر إلى مقومات التحقيق والإخراج العلمي اللائق، فما خطورة التجارة بكتب التراث في نظركم؟ وما مدى الجرم الذي تقترفه هذه الدور في حق التراث الإسلامي؟ وهل سيكون للخزانة الملكية مشروع في تحقيق الجاد والنافع من هذه الكتب وإخراجه؟

هذا مشكل قديم، بدأ مع المطابع التجارية في لبنان والشام، فإنهم أخرجوا عددًا من الكتب بصورة سيئة، ونحن اليوم يمكن أن نقدر المطبوع من كتب التراث بالنسبة إلى المخطوط بنحو ١٥٪ إلى ٢٠٪ وربما لا يصل إلى هذه النسبة، وهذا الذي طبع على ضآلته لا تكاد تشكل الكتب التي صدرت منه محققة وبصورة جيدة سوى ١٠٪، وهذا يجسد لنا أهمية الالتفات إلى نشر كتب التراث محققة، وهذا الموضوع يحتاج إلى بسط وتوضيح ويتطلب وقتًا أطول، أما بالنسبة إلى دور الخزانة في تحقيق كتب التراث فسيكون لنا إسهام في ذلك - إن شاء الله تعالى - بعد الانتهاء من المشروعات التي ألمعت إليها سابقًا.



انطلاق الجامعة العربية المفتوحة

اكتشاف مدينة من العصر العباسي

انعقاد مؤتمر إدارة المعلومات في البيئة الرقمية ببيروت

مركز عالمي للفن الإسلامي واللغة العربية في ندوة دولية وصدور موسوعة الكاتبة العربية

بوكر لمارتيل وغونكور لكينيار



خاتمة المطاف

تمثال أنثى النسر الدمشقي عند الكاتب المسرحي الإنجليزي مارلو

احتفال الجامعة العربية المفتوحة

بحضور صاحب السمو الملكي الأمير طلال بن عبدالعزيز، رئيس برنامج الخليج العربي لدعم منظمات الأمم المتحدة الإنمائية «أجفند»، مؤسس الجامعة العربية المفتوحة وصاحب مبادرتها، احتفلت الجامعة بالافتتاح الرسمي، يوم السبت ٢ نوفمبر/ تشرين الثاني ٢٠٠٢م، برعاية سمو الشيخ صباح الأحمد الصباح، رئيس مجلس الوزراء بالنيابة ووزير الخارجية الكويتي، وذلك في مقرها الرئيس بدولة الكويت.


الأمير طلال بن عبد العزيز

وشارك في الاحتفال عدد من وزراء التربية والمعارف والتعليم العالي العرب، وأعضاء مجلس أمناء الجامعة، وكبار المسؤولين في الكويت، وعدد من رؤساء الجامعات في الدول العربية ومديريها، ونخبة من فعاليات المجتمع الكويتي، وأعضاء السلك الدبلوماسي.

وتضمن برنامج الافتتاح كلمة راعي الحفل، وكلمة الأمير طلال، رئيس مجلس أمناء الجامعة العربية المفتوحة، وكلمة الدولة المضيفة، ألقاها معالي وزير التربية والتعليم العالي بدولة الكويت، وكلمة الجامعة ألقاها مديرها الدكتور محمد منذر صلاح.

وقد بدأ العام الدراسي في الجامعة العربية المفتوحة في المقر الرئيس بالكويت، وفي فروع الجامعة في كل من الأردن ولبنان مطلع شهر أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٢م. يذكر أن سمو الأمير طلال أطلق في عام ١٩٩٦م مبادرته بالدعوة لإنشاء الجامعة العربية المفتوحة لتكون مؤسسة غير ربحية تساهم في حل مشكلات التعليم العالي العربي بتوظيف تقنيات التعليم عن بعد والتعليم المفتوح. وقد تأكدت الجدوى الاجتماعية والتعليمية والثقافية استناداً إلى الدراسة التي أجريت حول المشروع على مستوى الوطن العربي. وقد أقر ضمن الهيكل التنظيمي للجامعة ونظامها الأساسي إقامة صندوق لمساعدة الطلاب المتفوقين من غير القادرين، وتقديم المنح الدراسية لهم.

وستكون شهادات الجامعة العربية معترفًا بها، إذ تم التنسيق مع وزارات التعليم العالي في البلدان العربية ليتم الترخيص للجامعة في كل بلد عربي يفتح فيه فرع لها. وقد أنشئت فروع للجامعة حتى الآن في كل من الأردن والبحرين، والسعودية، ومصر ولبنان. وستبدأ الدراسة بفروع البحرين والسعودية ومصر في شهر فبراير/شباط القادم، وفي الخطة إقامة فروع في دول عربية أخرى.

وكان الأمير طلال قد أعلن في سبتمبر/أيلول الماضي تشكيل مجلس أمناء الجامعة العربية المفتوحة من عدد من الشخصيات العربية المهتمة بشؤون التنمية البشرية، واختصاصيين في شؤون التعليم والتعليم المفتوح، وخبراء في التربية. ووقعت الجامعة اتفاقيات ومذكرات تفاهم مع كل من اليونسكو، والجامعة البريطانية المفتوحة للمساهمة في تأسيس البنية التحتية التقنية والمناهج الدراسية. وتتعاون الجامعة العربية المفتوحة مع عدد من الجامعات العربية المرموقة، وإلى جانب ذلك سيقوم البنك الدولي بتقديم دعم لوجستي للجامعة بمقتضى مذكرة تفاهم وقعها مع «أجفند» للتعاون في مجالات التعليم المفتوح والتعليم عن بعد.

تكريم الشيخ عبدالله بن إدريس

رعى صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن فهد بن عبدالعزيز الرئيس العام لرعاية الشباب في يومي ١٢و١٣ رمضان المهرجان التكريمي للشيخ عبدالله بن إدريس الرئيس السابق لنادي الرياض الأدبي، والذي نظمه النادي تقديراً لعطائه الأدبي الثر على مدى عقود من الزمان، وقيادته مسيرة النادي ما يقارب ربع قرن، واشتمل اليوم الأول على حفل خطابي، وتوزيع الدروع التذكارية من الجهات التي عمل بها الشيخ عبدالله بن إدريس .

وفي اليوم الثاني للتكريم أقيمت ندوة عنه بعنوان «جهود ابن إدريس في خدمة الأدب والفكر في المملكة العربية السعودية»، وجاءت في ثلاثة محاور، المحور الأول بعنوان «ابن إدريس شاعراً». وتحدث عنه د. ناصر بن سعد الرشيد، وجاء المحور الثاني بعنوان «ابن إدريس ناقداً»، وتناوله الدكتور حسن بن فهد الهويمل، بينما تناول د. عبدالعزيز بن صالح بن سلمة محور «ابن إدريس صحفياً»، وقد أدار الندوة د. عبدالعزيز بن محمد السبيل.

وفي بداية الحفل الخطابي رحب الدكتور محمد بن

عبدالرحمن الربيع رئيس النادي بسمو الأمير سلطان بن فهد وسمو نائبه الأمير نواف بن فيصل بن فهد وحضور الحفل، مؤكداً أن تكريم الأدباء سنة حميدة ومنهج ثابت لدولتنا الرشيدة، وأن التكريم رمز لاعتزاز الأمة بالرجال العاملين وتحفيز للهمم وتفجير للطاقات ودفع لمزيد من الرقي واعتراف بالفضل لأهله، وصرح بأن الرئيس العام لرعاية الشباب قد وافق على إحداث جائزتين أدبيتين إحداهما للبحوث والدراسات المتعلقة بالأدب في المملكة العربية السعودية، والثانية للإبداع الأدبي، وسيتم تمويلهما من القطاع الخاص.


الأمير سلطان بن فهد

وألقى الشاعر إبراهيم بن فهد المشيقح قصيدة في هذه المناسبة.

وعبر الشيخ عبدالله بن إدريس في كلمته عن تقديره لمن أقاموا له هذا المهرجان، وأكد أن تكريم العلماء دليل على تطور الدولة والمجتمع ونضجهما الحضاري. وقال: «أقدم الشكر مضاعفاً للأمير سلمان الذي شرفني بتعييني رئيساً للنادي، ثم أثناني مرتين عن تقديم استقالتي إحداهما بعد عشر سنوات، والثانية بعد ستة عشر عاماً»، ثم وجه شكر إلى وزارة المعارف وجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ومؤسسة الدعوة الصحفية، وهي الجهات التي عمل فيها. وألقى الأمير سلطان بن فهد كلمة أوضح فيها أن الله سبحانه وتعالى قد وزع المواهب كما وزع الأعمار والأرزاق، وأن المهرجان يتضمن تكريم موهبة الأدب ممثلة في أحد رجالها وهو الأستاذ عبدالله بن إدريس.

عبدالله بن إدريس

وأكد سموه أن تكريم العاملين الذين قدموا وافر العطاء واجب تقتضيه الإنسانية بالوفاء، وفيه للأدب إحياء.. وفي نهاية الحفل قدم معالي الدكتور محمد بن أحمد الرشيد وزير المعارف، ومعالي الدكتور محمد السالم مدير جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، والأستاذ سلطان الحماد سكرتير تحرير مجلة الدعوة دروعاً تذكارية نيابة عن الجهات التي عمل بها ابن إدريس.

ويعد ابن إدريس من الأدباء الذين أسهموا بقسط وافر في مسيرة الحياة الأدبية السعودية وقد مثَّل المملكة في عدد من المحافل الدولية، كما نال عدداً من الجوائز والأوسمة والميداليات.

الحركة العلمية والثقافية في بلاد شنقيط

في إطار نشاطه الثقافي لهذا العام، نظم مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية محاضرة بعنوان «الحركة العلمية والثقافية في بلاد شنقيط»، ألقاها الشيخ أحمد المرابط ابن الشيخ أحمد الشنقيطي، نائب المفتي العام لموريتانيا، وأدار الحوار الأستاذ أيمن بن عبدالله العنقري.

بدأ المحاضر بتعريف بلاد شنقيط وموريتانيا، وقال إنها كلمة قديمة ترجع إلى تاريخ قديم، ثم تتبع أصل الكلمة في كتب اللغة، وقال إن بعضهم فسرها بـ (عيون الخيل)، ثم تطرق لتسمية موريتانيا، وقال إن بعضهم عرّفها بـ (بيوت الخيام)، وحدد الموقع الجغرافي لبلاد شنقيط، التي تقع في غرب أفريقية، ويسكنها خليط من العرب والزنوج أو التكارير بنسبة متساوية.

أحمد المرابط

ثم تطرق المحاضر إلى موضوع المحاضرة وهو الحركة العلمية والثقافية في بلاد شنقيط، وقال إنها تتمثل في الجامعات الأكاديمية ذات المنهج الخاص المعروف اصطلاحًا بالمحاظر أو المحاضر، فالمحاظر قد تكون منسوبة إلى الحظيرة، والمحاضر قد تكون منسوبة إلى الحضرة، ومعناها القرب، أي أن يكون الطلاب بحضرة شيوخهم، أي بالقرب منهم، ويرجىء الشيخ استعمال هاتين الكلمتين: المحاظر والمحاضر إلى التشابه بين الضاد والظاء، ثم تناول المحاضر هذه الجامعات في ثلاث نقاط هي: نشأة التعليم المحظري، والمنهج المحظري للتعليم، والمتخرجون من تلك المحاظر والدور الذي قاموا به.

وبدأ بتاريخ التعليم المحظري وقال إن تاريخه يرجع إلى عهد عبدالله بن ياسر مؤسس دولة المرابطين، تلك الدولة التي عرفت عنها نهضتها العلمية السلفية، وكانت عاصمتها تبعد عن نواكشوط العاصمة الحالية نحو ٧٠ كيلاً، وقد سقطت هذه الدولة على أيدي الموحدين حيث قامت دولتهم مكانها، ولكن التعليم المحظري ظل قائماً في عهد الموحدين كما كان قبلهم وإلى الآن.

ويقوم منهج التعليم المحظري على عشرة توجيهات وإرشادات يوجهها الأساتذة للطلاب، وتشمل هذه التوجيهات: التوجيه بتصحيح النية، والتوجيه بتقوى الله سبحانه وتعالى، وتوطين النفس على طول مدة طلب العلم، والتوجيه بقطع الشواغل التي تشغل الطالب عن طلب العلم، والتوجيه بالحرص على الحفظ، والفهم، والكتابة، والتدرج في تحصيل العلم، والمذاكرة والمدارسة، والصبر على المشاق، وما من واحدة من هذه التوجيهات إلا ولها شاهد من كتاب الله سبحانه وتعالى، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ثم تعرض المحاضر لهذه التوجيهات بالشرح والتحليل.

المحور الثالث في أضلاع الحركة الثقافية هم: المتخرجون في هذه المحاظر ودورهم في الحياة الثقافية في شنقيط، وأعتذر المحاضر من أن هذا موضوع يطول، إذ إن كل واحد من هؤلاء الخريجين يستحق محاضرة، وهم كثر، وأنه سيأخذ في المحاضرة بعض رؤوس أقلام، وسيكون الحديث مختصراً.

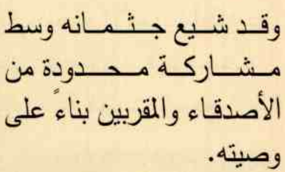
ثم تناول المحاضر هؤلاء الخريجين بالتفصيل، مستعرضاً قبائلهم، وتخصصاتهم، وآثارهم الأدبية، وإسهاماتهم في الحركة الثقافية في شنقيط.

وأكد الشنقيطي أن هذه المحاظر مازالت قائمة حتى وقتنا الحاضر، وأن الدولة مهتمة بها، كما أن التعليم النظامي الحديث أيضاً قائم، ولا يوجد تعارض بين هذين النظامين.

واختتمت الندوة بعدد من المداخلات والأسئلة التي أجاب عنها المحاضر.

رحيل الفنان حسين بيكار

توفي في العاشر من رمضان (الموافق ١٥ نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٢م) الفنان التشكيلي ورسام الكاريكاتير المصري حسين بيكار عن عمر يناهز ٩٠ عاماً، بعد رحلة عطاء استمرت نحو ٧٠ عاماً في الفن التشكيلي وفن الكاريكاتور، إثر معاناة مع مرض عضال استمر أكثر من أربع سنوات،



وقد شيع جثمانه وسط مشاركة محدودة من الأصدقاء والمقربين بناءً على وصيته.



حسين بيكار

ولد بيكار، الذي يطلق عليه لقب «شيخ الفنانين التشكيليين»، في حي الأنفوشي في الإسكندرية عام ١٩١٣م، وتخرج في مدرسة الفنون الجميلة عام ١٩٣٣م، وعمل بالتدريس، ثم التحق في عام ١٩٤٥م بمؤسسة أخبار اليوم التي يعد أحد مؤسسيها ورموزها المعروفة.

وقام بيكار برحلة حول العالم عام ١٩٦٠م محققًا عبرها ما يعرف باسم «رسم الرحلات»، إذ رسم انطباعاته عن كل بلد زاره، وللتشكيلي الراحل كثير من الأعمال أبرزها لوحة إنقاذ معابد النوبة من الغرق تحت مياه بحيرة ناصر أثر بناء السد العالي، ومعبد رمسيس الثاني بأبي سمبل الذي أطلق عليه «العجيبة الثامنة»، بالإضافة إلى مجموعة من الكتب التي يدرس بعضها في المعاهد المتخصصة، وأشهرها كتاب «صور ناطقة»، و«صورة وموال»، و«لكل فنان قصة»، ونال الفنان الراحل عشرات الجوائز العالمية والعربية، كان آخرها التكريم الذي ناله من مؤسسة الفكر العربي خلال مؤتمرها الذي عُقد بالقاهرة في أكتوبر/تشرين الأول الماضي بصفته أحد الرواد الذين قدموا إسهامات كبيرة للأمة العربية.

اكتشاف مدينة تعود إلى العصر العباسي

عثر باحث الآثار السعودي محمد بن سعود الحمود على بقايا مدينة مطمورة تحت الأرض ورجح أن تكون المدينة المكتشفة عائدة إلى الفترة العباسية، وأنها تعرضت لأعمال تخريب وبحث عن الكنوز.

وصرح الباحث أن «المدينة المكتشفة تقع في شرق حوطة بني تميم «جنوب غرب العاصمة السعودية الرياض» عند مفيض شعيب أبو سحراء، وبقرب وادي السوط المشهور في مكان يسمى «القصير» نسبة إلى بقايا قصر من الطين، وتمتد هذه المدينة على مساحة كبيرة بشكل مستطيل يراوح طولها من الشمال إلى الجنوب نحو ٣٠٠ متر ومن الشرق

إلى الغرب نحو ٤٠٠ متر»، وأفاد الحمود بأن القصر الذي نسب المكان إليه هو اليوم مجرد بقايا مستطيلة الشكل، طوله من الشمال إلى الجنوب ٥٥م وعرضه من الشرق إلى الغرب ٢٥م ويبلغ سمك جداره مترين بارتفاع يصل إلى ٣ أمتار وهو يحتوي على أبراج بقي منها اثنان، وتحتوي الجهة الشمالية على بقايا عدد من الغرف تطل على فناء واسع هو الوحيد في الموقع، كما يحتوي الموقع على أساسات جدارية من بقايا قصور واسوار مستطيلة الشكل، إضافة إلى بقايا أساسات لغرف وبعض الوحدات المعمارية لتصل سماكة بعضها إلى ٨٠ سم، وجدران لمساكن وقصور هي مصدات لمياه السيول التي تخترق البلدة الأثرية، وقد أظهر التنقيب في الموقع وجود بقايا غرف مجصصة مطمورة، وانتشار لافت لعدد من كسر آنية من الفخار والفخار المزجج والحجر الصابوني.

وأكد الحمود أن انتشار أجهزة البحث عن المعادن لدى بعض الناس، وخاصة من محبي البحث عن الكنوز، أسهم في تخريب الموقع، إذ لوحظ وجود عدد من الحفر التخريبية منتشرة في أجزاء كثيرة في الموقع منها حديث العهد ولعل من الضروري مد سياج لحماية هذا الموقع.

نداء لإنقاذ المسجد الأقصى


المسجد الأقصى

وجهت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - مؤخراً نداءً إلى المجتمع الدولي للتحرك من أجل إنقاذ المسجد الأقصى في القدس الشريف، من التصدع والانهيار. ونددت الإيسيسكو بأعمال الحفر الإسرائيلية للحائط الجنوبي من المسجد الأقصى التي تتواصل بدعم كامل من سلطات الاحتلال الإسرائيلي، وفي ظل سكوت الرأي العام الدولي عن هذه الجريمة.

وكشفت الإيسيسكو في ندائها الذي وجهته إلى العالم الإسلامي، وإلى المجتمع الدولي بصورة عامة، النقاب عن السياسة الإسرائيلية الرامية إلى هدم المسجد الأقصى بالكامل بصورة تدريجية لإقامة ما يسمى بهيكل النبي سليمان فوق أنقاضه.

وأوضحت الإيسيسكو في ندائها أن من شأن استمرار الحفريات تحت الحائط الجنوبي للمسجد الأقصى أن يؤدي إلى تصدع المسجد وانهياره بالكامل فيما بعد.

وناشدت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة الحكومات والمنظمات الدولية، ولاسيما منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة - اليونيسكو - بالتحرك السريع للضغط على إسرائيل لإيقاف أعمال الحفر، والقيام بحملة دولية من أجل ترميم الحائط الجنوبي للمسجد الأقصى الذي يعد مكاناً مقدساً عند مليار وربع المليار من المسلمين في العالم، فضلاً عن أنه معلم تاريخي وتراث إنساني وعالمي.

جائزة الفرانكفونية لفرانسوا شنغ


فرانسوا شنغ

فاز الروائي والمترجم الصيني الأصل فرانسوا شنغ بجائزة الفرانكفونية الكبرى تقديراً لمجموع أعماله الأدبية، وانتخبته الأكاديمية الفرنسية، التي منحته هذه الجائزة، لكرسي جاك بوربون - بوسي، ليصبح بذلك أول كاتب آسيوي يدخل عالم الثقافة الفرنسية.

ولد شنغ في الصين عام ١٩٢٩م، وسافر إلى فرنسا بعد أن حصل على منحة دراسية مدة سنتين، ولكنه لم يرجع بعد نهاية بعثته الدراسية، حيث استقر في فرنسا منذ عام ١٩٤٩م، ولكن على الرغم من ذلك لم تنقطع صلته طوال هذه المدة ببلاده، وكان يتابع كل ما يدور فيها، بل كان يزورها بين حين وآخر.

وعانى شنغ في بداية حياته الأدبية،إذ لم يستطع أن يبدع بالفرنسية، وكان عاجزاً عن كتابة الشعر والرواية مباشرة بها، ولكن وضعه تحسن تدريجيًا بعد أن تسجل في السوربون، وفي المعهد التطبيقي للدراسات العليا في باريس،

وقصر جهده لقراءة الأدب في أوقات فراغه من الدراسة في المعهد، حتى أصبح أستاذاً للأدب في المعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية.

ولشنغ عدد من المؤلفات، إذ كانت روايته الأولى «قول يتاني» قد ظهرت عام ١٩٩٨م، وحازت على جائزة فيمينا التي تعد من أهم الجوائز الأدبية الفرنسية، ثم جاءت روايته الثانية تحت عنوان «ليس الخلود إفراطاً»، وغيرها من المؤلفات.

جائزة «مان بوكر» لمارتيل

فاز الكاتب الكندي يان مارتيل (٣٩ عامًا) مؤخراً بجائزة «بوكر» البريطانية لهذا العام ٢٠٠٢م، والتي أصبح اسمها الجديد «مان بوكر»، وذلك عن روايته «حياة باي» التي قالت عنها رئيسة لجنة تحكيم الجائزة: «اخترنا كتاباً جريئاً يقدم استكشافاً ابداعياً للإيمان»، وتبرز الرواية الحافلة بالألغاز أسئلة عن العلاقة بين القصص والواقع، واستكشاف الإيمان الديني. وتعد هذه الرواية الثالثة لروائيين كنديين أحرزوا الجائزة من قبل وهم: مايكل أوندا نتشي، ومارغريت أتودوو.

ولد يان مارتيل في إسبانيا لوالدين دبلوماسيين من كيبك، وهو نجل الأكاديمي الشاعر الكبيكي أميل مارتيل الذي يعمل حاليا بالاشتراك مع زوجته على ترجمة رواية ولده إلى الفرنسية.

ويعترف مارتيل بالفضل للروائي البرازيلي ماوسير سكليار في بداية الفكرة الأساسية لرواية «حياة باي» حيث قرأ قبل بضع سنوات مراجعة الروائي الأمريكي أبدايك لرواية سكليار «ماكس والقطط»، التي تدور هذه الرواية حول رجل يجد نفسه في قارب نجاة وليس معه سوى فهد أسود، وبقيت الفكرة في ذاكرته حتى زار الهند وقضى ستة أشهر زار خلالها الحدائق والمساجد والكنائس والمعابد، ثم قضى سنة في كندا لدراسة النصوص الإسلامية والهندوسية والمسيحية، ودراسة أنماط سلوك الحيوان، وسيكولوجيا الأطفال، وعالم الأحياء، إضافة إلى القصص الخيالية عن الكوارث والجزر المهجورة، وبعدها وضع المخطط الأولي للرواية.

اكتشاف مدافن فينيقية

أعلن في بيروت مؤخراً عن اكتشاف مدافن فينيقية في صور بجنوب لبنان تعود إلى القرون ما بين السابع والعاشر قبل الميلاد.


عنجر من الآثار اللبنانية

وأوردت الوكالة الوطنية للإعلام أن القطع الأثرية المكتشفة هي جرار جنائزية تعود إلى العهد الفينيقي العاشر، أي ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد. وقالت إن المدافن تضم ٢١ جرة فخارية وهياكل عظمية وحلياً برونزية وذهبية.

وقالت رئيسة البعثة الاسبانية ماريا أوبت التي اشرفت على عملية التنقيب إن المكتشفات ستقدم للخبراء معلومات عن المجتمع الفينيقي وعاداته وتقاليده ونوعية حياته وطعامه والأمراض التي أصيب بها ومتوسط العمر بالنسبة إلى الجنسين.

وأشارت إلى أن العظام التي عُثر عليها محروقة ومدفونة في جرار ضخمة وممزوجة بالحلي البرونزية كشفت إصابات كانت تلحق بالرجال وخاصة في أكتافهم من جراء الأعمال القاسية في الزراعة والبحر والصيد.

وأوضحت أن هذه الاكتشافات أظهرت أن متوسط العمر بالنسبة إلى الرجال كان بين خمسين وستين عاماً، بينما كان متوسط العمر بالنسبة إلى النساء بين خمسة وأربعين وخمسين عاماً.

جائزة غونكور لكينيار

حاز الكاتب الفرنسي باسكال كينيار مؤخراً على جائزة غونكور الأدبية التي تعد من أكبر الجوائز الأدبية في فرنسا وأوروبا، وذلك عن كتابه «الظلال التائهة» وهو الجزء الأول من سلسلة تحمل اسم «المملكة الأخيرة» ويتكون هذا الكتاب من خمسة وخمسين فصلاً بعضها مقاطع كبيرة، والبعض الآخر مقاطع صغيرة جداً ويصعب تصنيف كتابه «الظلال التائهة» أهو رواية أم مذكرات أم نص سردي؟

ويقول كينيار عن كتابه: إنه لا يعلم كيف تتم قراءته والكتب

الأخرى التي تليه، وستليه «إنها تؤلف مجموعة تشكيكية غامضة، إنها كتب إما تقرأ وإما تهمل»، وأضاف :إنني أفهم تماماً ألا تحب هذه الكتب، إنني لا أحاور في هذا الأمر ومن المبهج أن أجد أخيراً الشكل الذي يخصني».


باسكال كينيار

ويرى الناقد عبده وازن أن جديد هذه الكتابة يكمن أكثر مايكمن في ما تحمل من رؤى ووجهات نظر أي من مضمونات تقترحها اقتراحاً انطلاقاً مما يسمى تناصاً، فالكثير من المقاطع والفصول أشبه بالمعارضات التي تصطدم ببعض المقولات والنصوص، ثم تضفي لعبة كينيار طابعاً خاصاً على الكتابة واسمة إياها بالكتابة التائهة، ويتساءل وازن هل هذه الكتابة تجريبية؟ قد تكون ولكنها تنتمي إلى الأدب القديم مقدار انتمائها إلى الحداثة، وقد يصعب تناول كتاب كينيار الجديد مثلما يصعب تصنيفه ومن ثم قراءته، فما يضمه هذا الكتاب هو مختصر قرون وميثولوجيات وحضارات وتواريخ وأحداث وقد سبكها كينيار في لغة متينة ومصنوعة بإتقان.

زبيد في خطر


سد مأرب

تزمع السلطات اليمنية المختصة بالآثار وبرنامج هولندي ناشط العمل على إقامة مشروع يختص بترميم المعالم التاريخية لمدينة زبيد الأثرية غرب اليمن، وتعد هذه المدينة، التي يعود تاريخ انشائها إلى القرن الثالث الهجري، من أكثر المدن الأثرية اليمنية المهددة بالدمار، إذ تتعرض المدينة إلى موجة من هجرة السكان، مما ينعكس على النشاط التجاري في المدينة الذي هو أمر مرغوب فيه للحفاظ على خصوصياتها، بالإضافة إلى بروز عمليات ترميم بمواد حديثة تشوه المعالم التاريخية للمدينة.

وقد صرح ديك ترستيخا رئيس وحدة التنسيق في البرنامج الهولندي للحفاظ على التراث الثقافي الحضري بقوله: «نتواصل مع المجلس المحلي لإعادة تأسيس لجنة الإنقاذ والتي ستكون معنية بالحفاظ على النسيج الحضري للمدينة».

الجدير بالذكر أن مدينة زبيد قد دخلت قائمة التراث العالمي لمنظمة اليونسكو منذ عام ١٩٩٣م.

صدام الحضارات

نظم معهد السياسة العالمية بمدينة غرناطة (جنوب شرق إسبانيا) بالتعاون مع مؤسسة التراث الأندلسي الإسبانية مؤخراً ندوة عالمية بعنوان «صدام بين الحضارات أم صدام بين الرؤى؟ بحثاً عن أرضية مشتركة».

وقد شارك في الندوة، التي تسعى إلى بحث نقاط الالتقاء والاختلاف الممكنة بين الغرب والعالم الإسلامي، عدد من الخبراء منهم الكاتب البريطاني ماليز روثفن أستاذ في جامعة أبردين (المملكة المتحدة) الذي هاجم في محاضرته مفهوم الحضارة عند صامويل هانتنغتون (صاحب كتاب صدام الحضارات)، وقال إن: «الحضارة هي فكرة مليئة بعناصر متشابكة ومتمازجة»، وأضاف روثفن: «إذا كنا متفقين على أن باريس كانت تمثل منذ القرن التاسع عشر وحتى بداية الحرب العالمية الأولى نموذجاً للحياة الثقافية المزدهرة حيث كان يتعايش فنانون ومثقفون مثل الرسامين الإسبانيين بابلو بيكاسو وجوان ميرو ـ قادمين من من أماكن وثقافات مختلفة، فلا يمكننا إذن الاختزال بخصوص الشرق والغرب»، ويعتقد روثفن أنه ليس هنالك مستقبل لنظرية صدام الحضارات التي قد تقتصر فقط على وسائل الإعلام دون أن تمتد إلى العلاقات الثقافية بين الإسلام والغرب.

أما المحلل المصري محمد سيد أحمد فقد أكّد أن هناك صداماً بين الحضارات، وأن ما ينبغي فعله يتمثل في إعادة تحديد طبيعة المواجهة التي تفاقمت بسبب ثلاثة عوامل هي: العولمة، وانتهاء ثنائية القطب، وأحداث ١١ سبتمبر. وهو يرى أن نهاية هذا النزاع مرتبطة بقدرتنا على استئصال الإرهاب، الذي أصبح العامل الجديد في ثنائية القطب، واكتسب زخماً على حساب باقي توجهات النظام العالمي الجديد.

كذلك أبرز كارل ميير، ناشر مجلة (وورد بوليسي جورنال) المتخصصة في السياسة الدولية، والمحلل السياسي السابق في صحيفتي (واشنطن بوست) و(نيويورك تايمز)، أن الأفكار النمطية التي تروج في وسائل الإعلام حول الإسلام والغرب لا تحدد مسار التاريخ، وأن من يفعل ذلك هم الساسة والشعوب.

إدارة المعلومات في البيئة الرقمية

برعاية وزير الثقافة اللبناني، وبالتعاون بين الاتحاد العربي للمكتبات وجمعية المكتبات اللبنانية، انعقد في مدينة بيروت خلال الفترة ما بين ٢٩ أكتوبر/تشرين الأول والأول من نوفمبر/تشرين الثاني ٢٠٠٢م، المؤتمر الثالث عشر للاتحاد العربي للمكتبات والمعلومات «أعلم»، تحت عنوان «إدارة المعلومات في البيئة الرقمية: المعارف والكفاءات والجودة»، وقد دعا وزير الثقافة اللبناني في كلمته في حفل الافتتاح المشاركين إلى: التحول من الاستهلاك المعرفي إلى إنتاج المعرفة، والتركيز في اقتصاد المعرفة المرتبطة بثورة الاتصالات، والانخراط غير المشروط بالعولمة، وردم الهوة بين الوطن العربي والعالم المتقدم تكنولوجياً.

وقد اشتملت أعمال المؤتمر، الذي شارك فيه ٤٦٠ متخصصاً من ١٧ دولة عربية، على اثنتي عشرة جلسة علمية، بما في ذلك المائدة المستديرة حول المكتبات في القدس، تناولت المحاور الآتية:

- إعادة هندسة المكتبات تكنولوجياً.
- إدارة الجودة الشاملة في المكتبات ومراكز المعلومات.
- تفعيل الإدارة الإستراتيجية للمعرفة.
- المعايير والتشريعات المكتبية.
- التخطيط الإستراتيجي ووضع سياسة المعلومات في الوطن العربي.
- التعليم عن بعد ودور المكتبات في هذا المجال.
- اقتصاد المعرفة.

وقد أصدر المؤتمر في ختام جلساته عدداً من التوصيات تتعلق بالقدس، وإدارة المعرفة، والجودة الشاملة، وتأهيل القوى العاملة، والمعايير والمواصفات والتقييم، والدوريات والنشر، ومشاريع الاتحاد، كما اتفق المؤتمرون على انعقاد المؤتمر الرابع عشر للاتحاد في الجماهيرية الليبية، بعنوان «هندسة المعرفة».

القردة وصغيرها


بيكاسو

بيعت في الشهر الماضي منحوتة «القردة وصغيرها» لبابلو بيكاسو بـ ٦.٧ ملايين دولار خلال مزاد علني نظمته دار كريستيز في نيويورك، وهو رقم قياسي لمنحوته عائدة للفنان الإسباني.

وسعر المنحوتة البرونزية التي صنعها بيكاسو العام ١٩٥١م، مستخدماً سيارتين صغيرتين قدمتا هدية لابنه كلود لصنع رأس القردة، كان مقدراً بين خمسة وسبعة ملايين دولار من قبل خبراء دار كريستيز للمزادات العلنية.

وفي المقابل لم تجد أهم لوحتين عرضتا خلال المزاد، وهما لمونيه وموديلياني من المدرسة الانطباعية والحديثة، من يشتريهما.

وبلغ مجموع المبيعات خلال جلسة واحدة بيعت خلالها ٤٠ من أصل ٥٤ من التحف المعروضة، لدار كريستيز مبلغاً قدره ٦٧.٥ مليون دولار، بينما كانت تقديراتها تشير إلى حصولها على ما بين ٨٧ و١٢٢ مليون دولار.

وكان سعر لوحة مونيه «حوض النيلوفر» التي رسمها الرسام الفرنسي في حديقة منزله في جيفرني مقدراً بما بين عشرة ملايين إلى ١٥مليون دولار.

كما بيعت لوحة من السلسلة نفسها لمونيه بـ ١٨.٧ مليون دولار خلال مزاد علني نظمته سوثبيز في نيويورك.

وقُدر سعر لوحة «الفستان الأسود» التي رسمها الفنان الإيطالي أماديو موديلياني بما بين تسعة إلى ١٢ مليون دولار لكن السعر المعروض لشرائها لم يتجاوز ٧.٥ ملايين دولار.

موسوعة الكاتبة العربية

أصدرت مؤسسة نور لدراسات وأبحاث المرأة العربية طبعة تجريبية من «موسوعة الكاتبة العربية» بمناسبة انعقاد مؤتمر «المرأة العربية والابداع» الذي افتتح في الشهر الماضي في القاهرة.

وتتضمن الموسوعة ثلاثة أجزاء، ويتجاوز عدد صفحاتها ١٦٠٠ صفحة، تسجل أعمال ١٢٠٠ كاتبة عربية بدءاً من نهايات القرن التاسع عشر ونهاية العام ٢٠٠٠م، وتضم مقدمة وتسع دراسات تطرق موضوع نشأة وتطور كتابة المرأة في بلد أو مجموعة من البلدان العربية.

ويتبع كل دراسة منها نصوص لبعض الكاتبات وبيبليوغرافيا شاملة لمؤلفاتهن في مجالات الرواية والقصة القصيرة والشعر والمسرح والسيرة الذاتية. وقد بدأت المؤسسة الإعداد لهذه الموسوعة قبل ٩ سنوات بمبادرة من الكاتبة والمدافعة عن حقوق المرأة العربية الراحلة لطيفة الزيات «توفيت عام ١٩٩٦م»، وأشرفت على إنجاز الموسوعة الباحثة السورية حسناء مكداشي بمشاركة مجموعة من أساتذة الجامعة والمبدعات. ومن بين المشاركين في إعداد الموسوعة أستاذة الأدب الفرنسي في جامعة القاهرة أمينة رشيد وأستاذة الأدب الإنجليزي في جامعة عين شمس رضوى عاشور، وأستاذة الأدب المقارن في الجامعة الأمريكية في القاهرة العراقية فريال غزول، والباحث المغربي محمد برادة والباحث المصري عماد أبوغازي. وتتضمن المجموعة تاريخاً لبداية انطلاقة المرأة المبدعة في العقدين الأخيرين من القرن التاسع عشر في سورية ولبنان ومصر، وتواصلها حتى الحرب العالمية الأولى. كما تتناول بداية تأسيس الجمعيات النسائية في سورية بمبادرة من مريم نمر مقاريوس عام ١٨٨٠م، وانتشار الصالونات الأدبية بصالون ماريانا مرّاش في حلب، وصالون الأميرة نازلي فاضل في القاهرة، وصالون الكسندرا إفرينو في الإسكندرية. وفي الصحافة كانت مجلة «الفتاة» لصاحبتها هند نوفل أول مجلة نسائية عربية صدرت في الإسكندرية عام ١٨٩٢م، في العا م نفسه الذي أسس فيه جرجي زيدان دار الهلال. وفي العام التالي ظهرت مجلة شهرية نسائية في حلب أصدرتها مديحة الصابوني بعنوان «المرأة».

ولقد وصل عدد المجلات النسائية التي صدرت بين ١٨٩٢م و١٩٣٩م، عشية اندلاع الحرب العالمية الثانية ٢٤ دورية، توزعت على مدن المشرق العربي. فضلاً عن القاهرة ودمشق وبيروت وبغداد، شهدت الإسكندرية والمنصورة والفيوم وطرابلس لبنان وحمص وحماه وحلب ظهور دوريات أسستها نساء، كذلك شهدت تلك الفترة ظهور موسوعات عن حياة شهيرات النساء أولاها كتاب «معرض الحسناء في تراجم مشاهير النساء»، لمريم نصر الله النحاس الطرابلسية - السورية الذي طبع في مطبعة جريدة مصر في الإسكندرية عام ١٨٧٩م.

ومن أهمها أيضا كتاب زينب فواز «الدر المنثور في طبقات ربات الخدور» الذي صدر عام ١٨٩٤م. وفي الفترة من ١٨٩٢م إلى ١٩٣٩م، نشرت في مصر وحدها ٥٧١ سيرة نسائية «ألفها نساء أو رجال» في ١٨دورية.

اللغة العربية في ندوة دولية

اختتمت مؤخراً في الرباط الندوة الدولية حول اللغة العربية التي عقدتها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - والبنك الإسلامي للتنمية، وقد أوصت الندوة في ختام أعمالها بتعزيز الثقة باللغة العربية والاعتزاز بها حفاظاً على كيان الأمة وترسيخاً لشخصيتها ووجودها، وعدّت الندوة التفريط في اللسان العربي تفريطاً في الهوية والذاتية الثقافية للأمة، مؤكدة وجوب تقدير التراث العربي الإسلامي والعناية به، وإبراز دوره في الحضارة الإنسانية من خلال أمثلة واقعية.

كذلك أوصت الندوة بالتوسع في نشر اللغة العربية بمختلف الوسائل، وإعداد خطة شاملة للعناية بها في المناهج الدراسية والكتب المنفذة لها، والوسائل المعينة على نشرها في مختلف المستويات.

وطالبت الندوة كذلك بإعداد مدرس اللغة العربية إعداداً علمياً وخلقياً ومهنياً جيداً، كما شددت على ضرورة الاستعانة بالوسائل السمعية والبصرية الحديثة في التدريس، والاستفادة من التقنيات الفضائية لنشر اللغة العربية عبر برامج التعليم عن بُعد، والاستفادة أيضاً من تجارب الآخرين في كل هذه المجالات، ووجوب الاهتمام ببرامج تعليم العربية لغير الناطقين بها، المقروءة منها والمسموعة والمرئية.

ودعت الندوة إلى التوسع في نشر اللغة العربية في الدول التي كانت العربية لغتها الرسمية، وفي أوساط الجاليات العربية في الخارج، وإعطاء اختصاصات إضافية وفعالية أكبر لمجامع اللغة العربية، للمساهمة في رسم الخطط والاستراتيجيات التربوية والعلمية لتعليم اللغة العربية لجميع الشرائح.

وأوصت الندوة بتعيين مراجع ومدقق لغوي، أو مستشار لغوي متخصص في جميع المرافق التي تصدر عنها أدبيات للتداول والنشر، وضرورة إحترام الوضع الدستوري الذي تحظى به اللغة العربية في الدول العربية بجعلها لغة رسمية تمثل ذاتية الأمة وترمز إلى سيادتها، ومواصلة السعي لدى المنظمات الدولية، وخاصة الأمم المتحدة، للاحتفاظ بمكانة اللغة العربية بوصفها إحدى لغات العمل المعتمدة لديها.

ودعا الدكتور عبدالعزيز بن عثمان التويجري المدير العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو - في الكلمة التي ألقاها في ختام الندوة إلى انتهاج سبيل الوسط

والحكمة والتبصر في تطوير اللغة العربية، موضحًا أن التطوير لا يعني بأي حال، إفساد اللغة، أو تمييعها، أو اقتلاعها من جذورها وطمس هويتها، وإنما يكون التطوير والتجديد والتحديث، بالحفاظ على سلامة اللغة وصحتها، وتكييفها في الحدود المعقولة، مع مقتضيات تطور العصر، وأكد استمرار الجهود التي تقوم بها المنظمة من أجل حماية اللغة العربية والنهوض بها وتوسيع دائرة انتشارها في العالم الإسلامي وفي خارجه.

وتحدث في الجلسة الختامية أيضًا كل من: الدكتور عبدالله بن سالم المعطاني باسم البنك الإسلامي للتنمية، والشيخ إبراهيم محمود جوب باسم العلماء والباحثين المشاركين.

مدينة عمرها ٨ آلاف سنة


من الآثار الصينية

اكتشف علماء الآثار الصينيون بلدة يعتقد أنها من أقدم بلاد العالم إذ يتجاوز عمرها ثمانية آلاف سنة، وذكرت الصحف الصينية أن العلماء عثروا على مجمع سكني يحتوي على ١٥٠ منزلاً جنوبي الحدود مع منغوليا بالقرب من مدينة شيفينغ، ويعد العلماء أن هذه أكبر بلدة قديمة تم اكتشافها في الصين وأنها الأكثر محافظة على شكلها الأول، وقال أحد الاكاديميين الصينيين أن فريق رجال الآثار قد تمكن حتى الآن من إماطة اللثام وإزاحة التربة عن الأساسات التابعة لأحد عشر منزلاً وعشرة قبور واثني عشر موضعاً لاشعال النار، ويعتقد العلماء أن المنازل تم تشييدها قبل ٨٠٠٠ سنة، وأن كل منزل كان يقع نصفه تحت الأرض في بلدة كانت ضخمة ومزدهرة. وكانت حفريات سابقة أجريت في المنطقة عثرت على أدوات منزلية وبعض المصنوعات من الاحجار الكريمة، وهي الأقدم بين المدن التي عثر عليها حتى الآن، وأن ثلاث قطع من هذه الاحجار الكريمة المصنعة تدل على أن الصينيين أجادوا تلميع الحجارة الكريمة ونحتها منذ العصر الحجري.

يشار إلى أن علماء الآثار ظلوا يوجهون النقد للحكومة الصينية على إهمالها الشديد في المحافظة على التراث الصيني لان عشرات من مواقع الآثار المنتشرة فوق ضفاف نهر «اليانكي» والنهر الأصغر لا تجد أي عناية من الدولة التي انشغلت منذ مئة عام من الحروب والصراع على السلطة والاستغراق في البرامج لإنقاذ المستقبل الصيني من الانفجار السكاني.

دعوة إلى إنشاء مركز دولي للفن الإسلامي

ندد المؤتمر الدولي للفنون والحرف الإسلامية الذي اختتم أعماله مؤخراً في مدينة أصفهان الإيرانية، بتدمير التراث الفلسطيني على يد العدوان الإسرائيلي، ودعا المؤتمر إلى إنشاء مركز دولي للفنون والحرف الإسلامية وتخصيص جوائز ذات قيمة من أجل تفرغ الحرفيين، وتأسيس اتحاد لفناني العالم الإسلامي.

وقد شارك في المؤتمر باحثون وعلماء متخصصون في الفن الإسلامي وتنوعت البحوث والدراسات المشاركة في المؤتمر، ومنها: دراسة ماكيل الميدانية عن محور العمارة في مدينة ليفنو في البوسنة، ومحاضرة لبترو شيولي عن طرائق ترميم التراث المعماري في آسيا الوسطى «مدينة بخارى»، وقد تعرض زهرا آهري لخصائص التخطيط الحضري في مدينة اصفهان، وعرض صالح لمعي لأنماط العمارة الإسلامية المعاصرة في العالم العربي، كما عرض دينيتا هوليود فيلمًا تحت عنوان «حياة المدينة بين الأمس واليوم»، وعرض سيد أبو تراب نماذج للاختام، وعن الصناعات الحرفية المرتبطة بالعمارة مثل السيراميك وأغطية القيشاني على الجدران نحت أمين أثيل عن «طريق إزنيج» وهو المركز التاريخي للسيراميك وفنون النار، وعرض قسون اوكيار لتقنية الخزف وتطوراتها، وناقشت فيرا تماري علاقة فن السيراميك بحماية الهوية الثقافية، وتحدثت الشيخة ألطاف الصباح عن النسيج والتطريز والأزياء والسجاجيد، وتناولت شهيرة محرز وسونيا النمر علاقة الأزياء والصناعات الحياكية بخصائص الثقافة المحلية، وقدم عبدالرزاق معاذ دراسة عن دور الحرفيات الخشبية، وعرض تورك أوغلي لتفاصيل الحالة العثمانية خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، أما محمد البلوشي فقدم تحليلاً لخصائص الخشبيات القطرية، وتناولت

دراسة شاميلونا الطبقة النخبوية من هذه الصناعات الخشبية في أذربيجان، رصد فيها فن إنارة الآلات الموسيقية، وتناول علي القيم وعدد من الباحثين التصاميم المعدنية خصوصاً النحاسيات.

أما فن صناعة الكتاب من خلال صناعة الورق اليدوي والتذهيب والتجليد وفن الرسم فقام بشرحه حكمت جيكيل، إذ قدم فيه طباعة كيماوية مباشرة على الورق للمرة الأولى أمام الجمهور، وتصدى صباح حسين من باكستان لفن صناعة الورق اليدوي، وعرضت الكسندر سوتيريو فيلماً وثائقياً عن هذه الصناعة شبه المندثرة، أما التذهيب والتجليد فتعرض لهما طانندي ونزيه شحادة.

أما رسوم المخطوطات «المنمنمات» فتصدى لها أسعد عرابي في دراسة عن خصائصها التشكيلية وتقاليدها الجمالية، واستعرض كونسل رندا الرسوم الدينية في حواضر الإسلام، وتعرض ماركوني في دراسة مثيرة لتأثير صورة «حديقة الفردوس» في الفن الإيطالي والأوروبي عموماً، وناقش سمير التريكي العلاقة بين قواعد الفن الإسلامي والحداثة. أما روبرت سكيلتون فقدم بحثاً عن خطوط هجرة رسامي المنمنمات بين إيران والهند خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، وتابع سيد ياواتي تأثير الفن الإسلامي في الجزر الإندونيسية.

إهداءات جديدة للمكتبة الوطنية

تلقت مكتبة الملك فهد الوطنية مؤخراً مجموعة قيمة من الإهداءات في عدد من الموضوعات والتخصصات، ولا سيما ما له علاقة بالإنتاج الفكري السعودي، إذ بلغ عددها ١٠٥٤٩، منها: ٢١٣ كتاباً دينياً من صاحب السمو الملكي الأمير أحمد بن عبدالعزيز، وهي مطبوعة على نفقة سموه. و ١١كتاباً من الشيخ عبدالملك بن عبدالله بن دهيش تمثل جزءاً من مكتبة والده الشيخ عبدالله بن عمر بن دهيش، و ٩٢٩ مجلداً من الشيخ محمد بن ناصر العبودي، وهي من مؤلفاته القديمة والحديثة. و ٧٨ مجلداً من تفسير القرآن من الشيخ عبدالله بن عبدالمحسن التركي. و ٨٥٢٤ كتاباً من الهيئة العامة للاستثمار. و١٥٠ كتاباً من سلسلة كتاب الرياض هدية من مؤسسة اليمامة الصحفية، و ١٤٤ من المخطوطات والعملات والقطع الأثرية من خلال لجنة التبرعات الفلسطينية.

ومما لا شك فيه أن هذه المجموعة الكبيرة من الكتب سوف تغني مجموعات المكتبة خصوصاً المجموعة النادرة وتدعم برنامج الإهداء والتبادل الذي تديره مع المكتبات المحلية والخارجية من الكتب السعودية الحديثة.

فسيفساء بيزنطية بمدينة غزة

أعلنت وزارة السياحة الفلسطينية أنه تم اكتشاف موقع أثري قديم يحتوي على فسيفساء لكنيسة بيزنطية يبلغ عمرها ألفاً واربعمئة عام قرب الساحل في منطقة شمال مدينة غزة. وأوضح مصدر فلسطيني رسمي أن هذا الاكتشاف يعود إلى كنيسة تازيلكية الطراز في العصر البيزنطي وتتكون من ثلاثة أروقة. وأكد أن هذه الكنيسة تشتمل على أرضية فسيفساء ملونة بطول ٣٥ متراً، وبعرض ثلاثة أمتار، وهي ذات زخارف وأشكال هندسية، وتشتمل على كتابات باللغة اليونانية القديمة على عمق ثمانين سنتمتراً من سطح الأرض منها عبارة «يارب تقبل منا هديتنا هذه نحن عبيدك».

مهرجان التراث الإسلامي

نظمت دار فنون الإسلام في الرياض في الفترة من ١ إلى ١٥رمضان مهرجاناً ثقافياً يعد الأول من نوعه، للتعريف بأهمية التراث الإسلامي وجماليته، وذلك من خلال عرض أكثر من ٣٠٠ قطعة متنوعة ونادرة من معادن وخزف وزجاج ورخام وخشبيات ونسيج وعناصر عمارة إسلامية يعود تاريخها إلى ما بين القرنين التاسع والتاسع عشر الميلاديين.

وتم عرض هذه القطع في خمسة فنادق هي: الانتركونتننتال، وماريوت، والفيصلية، والخزامى، والحياة ريجنسي، وذلك بوجود عدد من الخبراء ومصممي الديكور الإسلامي ومنفذيه في مواقع العرض الستة لإعطاء أي معلومات تتعلق بتاريخ القطع وأماكن وجودها الأصلية وبيان أهميتها.

وقد صرح الأستاذ فيصل السعداوي المدير العام لـ«دار فنون الإسلام» بأنه لن يكون هناك بيع لقطع خلال فترة العرض لأن الهدف من المهرجان ليس تجارياً بل ثقافي بحت من أجل نشر الوعي بأهمية التراث الإسلامي. وأضاف السعداوي أن مصادر تلك القطع قد تنوعت من

جميع أصقاع العالم الإسلامي من بلاد الجزيرة العربية إلى بلاد الشام والعراق وتركيا ومصر والمغرب الأقصى وبلاد ما وراء النهر، وإيران وخراسان وآسيا الوسطى، ومناطق شرق العالم الإسلامي والهند وباكستان بمسمياتها القديمة كما كانت عليه وقت تصنيع هذه القطع، وكان من بين القطع النادرة أباريق من البرونز المحفور والمنقوش بأشرطة زخرفية كتابية وتصويرية رائعة، وأحياناً مطعمة بالفضة والنحاس الأحمر يعود إلى القرن الثاني عشر الميلادي «السادس الهجري» من خراسان من العصر السلجوقي، كما توجد مجموعة مهمة لشمعدانات إضاءة مع لمباتها الزيتية من الفترة نفسها، وهي مجموعة متكاملة نادراً ما توجد في مجاميع أخرى، إضافة إلى مجموعة من السجاد اليدوي المهم، وقطع نسيج متنوعة.

عالمية الأدب الإسلامي

أوصت الندوة العلمية الدولية التي اختتمت أعمالها مؤخراً عن عالمية الأدب الإسلامي والتي أقامتها جامعة الملك فيصل في العاصمة التشادية «إنجمينا»، بالتعاون مع رابطة الأدب الإسلامي العالمية، ومركز رسائل النور في تركيا، بالعمل على تعميق الأدب الإسلامي من خلال المؤتمرات والندوات، ودعوة الجامعات إلى تبني مادة الأدب الإسلامي في مناهجها، والاهتمام بأدب الطفل، والاهتمام بإبداع المرأة التشادية، والاهتمام بآداب الشعوب الإفريقية والإسلامية وترجمتها.

وقد مثل رابطة الأدب الإسلامي في هذه الندوة عضو مجلس الأمناء الدكتور عبد الحليم عويس من جامعة الأزهر في مصر، ود. وليد قصاب من كلية اللغة العربية بجامعة عجمان ومثل مركز رسائل النور في تركيا د. إحسان الصالحي، ود. عوني لطفي أوغلو وعدد من الأدباء التشاديين الذين قدموا قراءات شعرية بمشاركة شعراء آخرين من الدول العربية وتركيا.

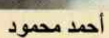
مؤتمر لجمعية الآثاريين العرب

برعاية الدكتور عمرو موسى الأمين العام لجامعة الدول العربية، شهدت القاهرة في منتصف شهر شعبان الماضي انعقاد المؤتمر الخامس لجمعية الآثاريين العرب، وقد شمل المؤتمر عقد الندوة العلمية الرابعة التي جاءت تحت عنوان «دراسات في آثار الوطن العربي»، وبلغ عدد جلساتها نحو اثنتي عشرة جلسة، أُلقي فيها أكثر من تسعين بحثاً، ناقشت جوانب مختلفة من قضايا الآثار والحضارة في الوطن العربي.

وقد شارك عدد من الأكاديميين السعوديين في هذه الندوة وقدموا عدداً من الأوراق، فقدم الدكتور أحمد الزيلعي بحثاً بعنوان «أضواء جديدة على الكتابات الشاهدية المنسوبة إلى عبدالرحمن صرامي المكي»، وتتبع الدكتور خليل بن إبراهيم المعيقل «تطور الكتابة العربية المبكرة في ضوء نقوش شمال الجزيرة العربية»، وتناول الدكتور مشلح بن كميخ المريخي «مناهج التاريخ وأساليبه عند العرب في ضوء النقوش العربية المبكرة»، وغير ذلك من البحوث، كما حضر، إلى جانب أصحاب الأوراق، عدد آخر من الأكاديميين، منهم: الدكتور عبدالرحمن الطيب الأنصاري، والدكتور سعد بن عبدالعزيز الراشد، والدكتور عبدالله محمد لطيف، والدكتور محمد صالح شعيب.

رحيل الكاتب الإيراني أحمد محمود



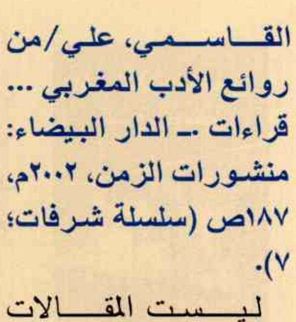

أحمد محمود

توفي في شهر أكتوبر/تشرين الأول الماضي عن عمر يناهز ٧١ عاماً القاص والروائي الإيراني أحمد محمود، الذي يعد واحداً من أبرز الكتاب الإيرانيين المعاصرين الذين التزموا في كتاباتهم هموم الشعب ومشكلاته، خاصة في مناطق خوزستان وجنوب إيران.

ولد الكاتب الراحل عام ١٩٣١م، وقد اعتقل في حياته وسجن، ووضع رهن الإقامة الجبرية عدة مرات، وقد لخص هذه المعاناة في روايته «شجرة التين».

وكان الكاتب الراحل قد بدأ في نشر إنتاجه الأدبي منذ عام ١٩٥٧م، ولكن لم يلتفت إليه إلا عام ١٩٧٤م، عندما نشر روايته الشهيرة «الجيران» التي وصفها الناقد الإيراني جمال مير صادق بأنها أفضل رواية فارسية.

وترك الأديب الراحل مجموعة من الأعمال الأدبية بلغت تسع مجموعات قصصية، وخمس روايات، وقد ترجمت هذه الأعمال إلى عدد من اللغات الحية.

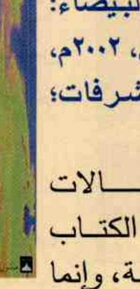


الجاسر، حمد/التصحيف في أسماء المواضع الواردة في الأخبار والأشعار ـ أبوظبي: المجمع الثقافي، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ٢٠٦ص.

يعد هذا الكتاب أحد أهم الكتب الأخيرة التي أنجزها الشيخ حمد الجاسر قبيل رحيله، وفيه يلقي الضوء على كثير من أسماء المواضع التي وردت في كتب البلدان. ومحاولات تنقيتها مما اعتراها من تصحيف وتحريف على مدى الأيام لسبب أو لآخر.

وقد تجول المؤلف مع عدد من الباحثين في جميع مناطق المملكة شرقًا وغربًا وشمالاً وجنوبًا، وكانوا يحاولون في أثناء هذا التجوال تطبيق ما بأيديهم من نصوص المتقدمين على ما يمرون به من مواضع، وقد اتضح أن كثيرًا منها لا يزال يحتفظ باسمه القديم، كما ورد في كتب المتقدمين، وبعضها يحتفظ باسم قريب من الاسم القديم، ولكنه وقع مصحّفًا أو محرّفًا، وقد أورد الباحث في المقدمة أسباب هذا التصحيف الواقع في تحديد الأمكنة القديمة عند المتقدمين في مؤلفاتهم المخصصة لتحديد الأمكنة.

وهذا الكتاب في أصله مجموعة من البحوث التي نشرها الشيخ حمد الجاسر مسلسلة في مجلة «العرب»، وقد قام المجمع الثقافي ببعض التعديلات عليها، منها: أن الهوامش كانت في آخر كل حلقة فقام المجمع بإثباتها أسفل كل صفحة، كما قام بتعديل ترقيم المواد بما يتماشى مع ترتيب الكتاب، إذ كانت بعض المواد غفلاً من الترقيم فرقمت، مع إضافة بعض الهوامش والزيادات التي لزمت إضافتها ليأخذ الكتاب حقه كاملاً في عين القارىء، وقد بلغت المواضع التي تناولها الباحث في الكتاب ١٤٤ موضعًا.



القاسمي، علي/من روائع الأدب المغربي ... قراءات ـ الدار البيضاء: منشورات الزمن، ٢٠٠٢م، ١٨٧ص (سلسلة شرفات؛ ٧).

ليست المقالات المنشورة في هذا الكتاب دراسات نقدية، وإنما قراءات شخصية في بعض روائع الكتب استهوت الكاتب وتوخى مشاركة القارىء العربي في هذه المتعة، وهي أيضًا ترغيب القارئ في اقتناء المؤلفات، وتحبيبها إلى نفسه، وشحذ إرادته لمطالعتها.

يضم الكتاب أحدى عشرة مقالة نشرت كلها في صحف ومجلات عربية، في فترات مختلفة، وقد جاءت هذه المقالات تحت عدة عناوين، هي: «عمي بوشناق: قراءة في قصة قصيرة» لعبدالرحمن الفاسي، و«(شجرة محار) والأدب المغربي المعاصر» لمحمد الصباغ، و«مفهوم الموت في الثقافة العربية: قراءة في رواية (وعاد الزورق إلى النبع)» لعبدالكريم غلاب، و«(يد المحبة) والقصة البوليسية في الأدب العربي الحديث» لأحمد عبدالسلام البقالي، و«ألوان السحر في رواية (شجيرة حناء وقمر)» لأحمد التوفيق، و«مفهوم المرأة في العقل العربي: قراءة في رواية (فتنة الرؤوس والنسوة)» لبنسالم حميش، و«مالكولم أكس وانتشار الإسلام في أمريكا» لليلى أبوزيد، و«وداعًا أيها المعلم العظيم» لمحمد أبوطالب، و«فضل جامعة القرويين وعميدها في إحياء كتاب (الفصوص)» لصاعد البغدادي، لعبدالوهاب التازي سعود، و«طنجة كما تخيلها بول بولز»، و«الكتاب مرآة الكاتب: قراءة في كتاب (الإسلام كبديل)» لويلفريد هوفمان.، لعبدالوهاب التازي سعود.

محمد، صباح محمود/ السياسات المائية في الشرق الأوسط.. عمان: مؤسسة الوراق للنشر والتوزيع، ٢٠٠٢م، ٣٠٠ص.



تشير معظم الدراسات المستقبلية، وبشكل خاص المتعلق منها بدراسة الصراع الدولي المستقبلي في العالم، إلى أن المياه ستكون أحد أهم بؤر الصراع الدولي، على الصعيد الإقليمي وربما على الصعيد الدولي، وذلك نتيجة زيادة عدد السكان والنقص في الموارد المائية المتاحة، كما أن معظم مصادر المياه وبشكل خاص الأنهار، تكون مشتركة بين أكثر من دولة مما يزيد حدة الصراع.

تتناول هذه الدراسة سياسات بعض دول الشرق الأوسط، ويظهر فيها طبيعة مشكلة المياه، والنتائج المترتبة على تلك السياسات في خلق صراع دولي في المنطقة، بدأ المؤلف بالسياسات المصرية ثم الأردنية مروراً بالتركية والسورية والعراقية وانتهاء بالإسرائيلية.

العسقلاني، الحافظ ابن حجر/موسوعة الحافظ ابن حجر العسقلاني الحديثة، جمع وإعداد: وليد بن أحمد الحسين الزبيدي (وآخرون) ـ ليدز (بريطانيا): إصدارات الحكمة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ٦٨١ ص، مج١ (سلسلة إصدارات الحكمة؛ ١٢).

يعد الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني من العلماء البارزين والمكثرين من التصنيف في شتى العلوم الإسلامية، وفي علم الحديث بشكل خاص، حتى أصبح أي طالب علم في الحديث لا يستغني عن جهود هذا الإمام، وقد استقصت هذه الموسوعة، أول مرة، كتب الحافظ بن حجر ومؤلفاته ورسائله المطبوعة سواء الصغيرة منها أو الكبيرة.

وتعد هذه الموسوعة خطوة أولى في خدمة أحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم بطريقة جمع أقوال العلماء الأعلام، الذين عرفوا بتمييز الأحاديث ومعرفة صحيحها من سقيمها كالنووي وابن القطان وابن تيمية وابن القيّم والذهبي وابن كثير وابن رجب وابن عبدالهادي والعلائي والعراقي والبقاعي والسخاوي وغيرهم ممن عاش بين القرن السابع والعاشر. (خرجت الآن موسوعة أقوال الإمام النووي رحمه الله).

وقال المؤلفون: إن ما دفعهم إلى وضع هذه الموسوعة هو: «ما نلاحظه اليوم عند كثير من طلبة العلم والمحققين من تجاهل واضح لجهود العلماء السالفين، والاكتفاء بالإحالة إلى تصحيحات العلماء المعاصرين كالإمام العلامة الشيخ ناصر الدين الألباني والعلامة عبدالعزيز بن باز ـ رحمهما الله ـ وغيرهما، وفي هذا بُعد عن المنهج العلمي في التحقيق، وليس في ذلك غضاضة من شأن أعلامنا المعاصرين».

موردان، ميشال بوغنون/ أميركا التوتاليتارية: الولايات المتحدة والعالم: إلى أين؟، ترجمة: خليل أحمد خليل ـ بيروت: دار الساقي، ٢٠٠٢م، ٢٨٨ص.

التوتاليتارية، في تعريفها الأبسط، هي (قوة احتوائية)، بمعنى أنها تنوي امتلاك مجمل مكونات

الكيان الذي تعيش فيه، ويقول المؤلف: إن أمريكا منذ زمن بعيد تزعم شمولية نمطها التنظيمي الخاص. ولم يسع مفكروها - من أساتذة وكتّاب وكهنة ورجال دولة - لحظة واحدة، إلى إخفاء هدفهم الأخير: وهو فرض أنموذجهم المجتمعي على بقية العالم.

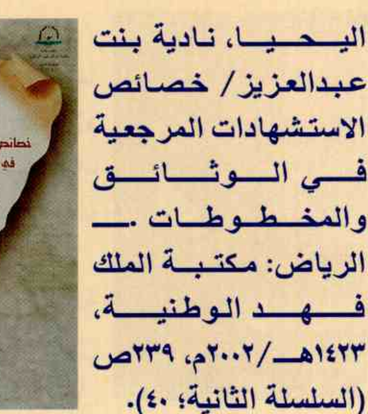
وقد سلطت أحداث ١١سبتمبر/أيلول ٢٠٠١م وتداعياتها، الضوء على سياسة الولايات المتحدة الأمريكية الساعية للسيطرة على العالم، وشرعت طرح السؤال على مصراعيه عما ينتظر الشعوب الأخرى ومصيرها بسبب هذه السياسة، وقد جاء هذا الكتاب قبل أربع سنوات من هذه الأحداث، وكان قد تنبأ بوقوعها وحذر منها، كما دعا الولايات المتحدة إلى نقد ذاتي قبل أن ترتد سياستها عليها.

يفضح هذا الكتاب التوتاليتارية الأمريكية المتبعة منذ نشأة الولايات المتحدة، ويسرد أحداثًا ووقائع عنها لا يمكن إنكارها، تصدم لهولها الأمريكيين أنفسهم، وينبه على أن هذه التوتاليتارية محكومة بهاجس السيطرة على العالم وأمركته، وتصنيف الأمم الأخرى بين محوري «الخير» و«الشر»، وقولبة ثقافات الشعوب وتشويهها والعمل على تجويفها وأمركتها، كما لا يعفي المؤلف الأوربيين وتقاعسهم من مغبة هذه الأحادية والهيمنة الأمريكية ويحملهم مسؤولية ما آل إليه مصير العالم.

هذا الكتاب يعالج بموضوعية أسباب هذه التوتاليتارية، ويشكل إنذارًا يضع أوربا والعالم أمام مسؤولياتهما: فإذا كانا لا يريدان الموت، فعليهما أن يستيقظا لإحباط المشروع التوتاليتاري الأمريكي.

يقع الكتاب في خمسة أبواب رئيسة: الأول تحت عنوان «نحو الأمة المختارة»، والثاني بعنوان «خضوع الدائرة الثالثة»، والثالث بعنوان «الشبكة الكونية الأمريكية»، والرابع بعنوان «استعباد العقول»، والخامس بعنوان «هل يمكن التخلص من الأمبريالية الأمريكية؟».



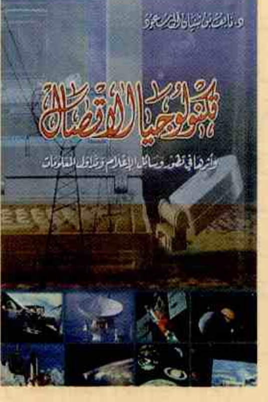


اليحيا، نادية بنت عبدالعزيز/ خصائص الاستشهادات المرجعية في الوثائق والمخطوطات.- الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ٢٣٩ص (السلسلة الثانية؛ ٤٠).

تناول هذا الكتاب موضوع الاستشهادات المرجعية بالوثائق والمخطوطات في رسائل الدكتوراه الخاصة بالتاريخ الحديث والمعاصر لشبه الجزيرة العربية المجازة من أقسام التاريخ في مدينة الرياض، وقد هدفت هذه الدراسة إلى تعرف الاتجاهات العددية والموضوعية واللغوية والمكانية والزمانية للوثائق والمخطوطات المستخدمة، ومعرفة الوعاء الأكثر استخداماً من بين هذين الوعاءين في الرسائل محل الدراسة، وتحديد مقدار الاعتماد على وثائق ومخطوطات من داخل المملكة وموازنة ذلك بالوثائق والمخطوطات المستفاد منها من خارج المملكة، ومعرفة دور المكتبات ومراكز المعلومات في المملكة في توفير ما يحتاج إليه معدو موضوعات الرسائل من هذين الوعاءين.

وقد قامت الباحثة باستخدام المنهج الوصفي «المسحي» على الرسائل المختارة في هذه الدراسة، واستعانت باستبانة موجهة إلى أصحاب هذه الرسائل لمعرفة آرائهم، كما عززت الاستبانة بإجراء مقابلات شخصية واتصالات هاتفية معهم، ومن ثم قامت - بعد جمع البيانات اللازمة - بتحليلها؛ وذلك باستخدام الأساليب الإحصائية التي تتمثل في التكرار والنسب المئوية للمتغيرات التي شملتها الدراسة.

وقد أسفرت هذه الدراسة عن عدد من النتائج بخصوص معرفة نسبة غالبية الأوعية المستشهد بها، واللغات التي كتبت بها الوثائق والمخطوطات، كذلك معرفة الأجنبية منها والمحلية.



آل سعود، نايف بن ثنيان/ تكنولوجيا الاتصال وأثرها في تطور وسائل الإعلام وتداول المعلومات.- الرياض: المؤلف، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ٢٣٠ص.

يتناول هذا الكتاب العلاقة بين تكنولوجيا الاتصال وأثرها في تطور وسائل الإعلام وتداول المعلومات عبر المراحل المختلفة التي مر بها الاتصال الإنساني منذ بدء الخليقة إلى الآن، وذلك عن طريق رصد الإمكانات والقدرات التي زودت بها تكنولوجيا الاتصال أو المعلومات القائم بالاتصال في عملية تجهيز الرسالة الإعلامية وبنائها على مر العصور، وكذلك رصد الوسائط والوسائل والتقنيات التكنولوجية التي اصطنعها الإنسان وفق معايير زمانه ومكانه وأحواله، ووضعها تحت تصرف القائم بالاتصال ليتمكن خلالها من الرسالة الإعلامية وتوصيلها إلى المتلقي المستهدف بغية تحقيق أهداف معينة.

تتضمن هذه الدراسة ثمانية مباحث رئيسة : الأول بعنوان «مراحل تطور تاريخ الاتصال الإنساني»، وتناول المبحث الثاني تكنولوجيا الاتصال الحديثة،أما المبحث الثالث فجاء عن تكنولوجيا الحاسبات الإلكترونية، وناقش المبحث الرابع «المعالجة الإلكترونية للمعلومات»، أما المبحث الخامس فجاء بعنوان «استخدامات الحاسب الإلكتروني»، وكان المبحث السادس بعنوان «تكنولوجيا الاتصال عن بعد»، وتطرق المبحث السابع إلى خدمات الهاتف، وخدمات البريد الألكتروني، وخدمات المؤتمرات عن بُعد، وجاء المبحث الأخير بعنوان «شبكة الحاسبات العالمية الإنترنت»، وتطرق فيه الباحث إلى نشأة الإنترنت وتطورها، والخدمات التي تقدمها من خدمة للاتصال بين الاشخاص والهيئات حول العالم، وخدمة البحث عن الملفات والوثائق والصور، وخدمة الشبكة العنكبوتية «الويب» المترامية الأطراف.



الجزائري، بشير ضيف بن أبي بكر بن البشير بن عمر/فهرست معلمة التراث الجزائري بين القديم والحديث: واقع التراث الجزائري الأصيل بين المعلوم والمجهول.- الجزائر: المؤلف، ٢٠٠٢م، ٣مج، ٦٨٧ص.

يكشف هذا العمل التراثي النقاب عما هو معلوم ومجهول من جهود العلماء والمثقفين الجزائريين في العناية بالتراث الجزائري العربي الإسلامي، خلال أحلك مرحلة عرفتها الجزائر، خصوصًا فيما يتعلق بنتاج اللغة العربية من موقع الحضارة العربية الإسلامية.

والعمل هو فهرسة لموضوعات العلوم التي ألّف فيها العلماء الجزائريون عبر التاريخ مخطوطها ومطبوعها، ورُتبت المعلمة بحسب الموضوعات لا بحسب المؤلفين، وقد ابتدأ المؤلف بعلوم التوحيد، فالتفسيرات فالقراءات فالحديث، فغيرها من العلوم العربية، متمثلاً في ذلك طرائق التدريس التي عرفتها المدارس التقليدية في تلقين العلوم، لذلك نجد أسماء العلماء تتكرر بحسب ما لهم من تآليف في موضوعات شتى، على شرط ألا يتناول من العلماء إلا من أُثر عنه تأليف في علم ما، وما أكثر علماء الجزائر الذين لم يتركوا أثرًا علمياً لسبب ما من الأسباب.

وعمل المؤلف على ربط المعلومات بمصادرها، وذلك من خلال الإحالات والهوامش التي تساعد من يرغب في الاستزادة من البحث والتعرف إلى ما كتب عن التراث الجزائري، كما تناولت المعلمة مؤلفات جزائرية حديثة بحسب ذلك يدخل في باب التعريف بما ينجز ثقافياً في الجزائر، وهو جزء من تراثها.

قدّم لهذا العمل وراجعه الدكتور عثمان بدري، وتكفلت ماليًا بطباعته مؤسسة عبدالعزيز سعود البابطين، وذُيّلت المعلمة بنماذج وصور لمؤلفات جزائرية مخطوطة ومطبوعة.

أبو عزة، عبدالله/الخليج العربي في العصر الإسلامي: دراسة تاريخية وحضارية ـ الكويت: مكتبة الفلاح، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ٦٣٣ص.



يتناول هذا الكتاب تاريخ الخليج العربي في العصر الإسلامي منذ بداية القرن السابع الميلادي إلى منتصف القرن الثامن عشر الميلادي تقريباً، والخليج المقصود بالدراسة هو الأراضي المطلة على الخليج والمتجهة إليه في أنشطتها الاقتصادية والسياسية، وهو ما يمكن أن نطلق عليه تسمية جغرافية: حوض الخليج العربي، وعليه فإن الكتاب يكتفي بتغطية الجانب العربي من الخليج بأقسامه الثلاثة: جنوب العراق، والبحرين القديمة، وعمان، ولا يخرج عن هذه المنطقة إلا في حدود بعض الجزر الخليجية التي كانت لها أدوار بارزة في تاريخ المنطقة.

وتحدث الكاتب عن تسمية الخليج، الذي عُرف بالخليج العربي والخليج الفارسي، وقال إن الخليج لا هو بالعربي المطلق ولا بالفارسي المطلق، بل هو عربي وفارسي، ثم ذكر الأسماء التي أُطلقت عليه في الماضي مثل: البحر الحبشي، وبحر الصين ، وبحر فارس، وبحر الأبلة، وبحر البصرة، وغيرها من الأسماء.

جاء الكتاب في ثمانية أبواب، هي: «تمهيد»، و«الخليج العربي في صدر الإسلام»، و«الخليج العربي يعارض الحكم الأموي والعباسي»، و«الخليج العربي في فترة اضطراب دار الخلافة»، و«دولة قرامطة البحرين»، و«الخليج العربي من ظهور البويهيين إلى ظهور المغول»، و«الخليج العربي في العصر المغولي وتوابعه»، و«الخليج العربي في مواجهة التوسع الأوربي».

وأشار المؤلف في تقديمه للكتاب إلى أن أربعة موضوعات من مادة الكتاب سبق نشرها، ثم أُدخلت عليها بعض التعديلات، وأُدرجت ضمن أبواب الكتاب.

الأنصاري، عبدالرحمن الطيب وحسين بن علي أبوالحسن/العلا ومدائن صالح (حضارة مدينتين) ـ الرياض: دار القوافل، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ١٠٣ص (سلسلة قرى ظاهرة على طريق البخور؛ ١).

هذا أول كتاب في السلسلة التي بدأت في إصدارها دار القوافل للنشر والتوزيع بعنوان «قرى ظاهرة على طريق البخور»، ويتعرض هذا الكتاب لحضارة مدينتين من المدن الواقعة على طريق البخور (طريق التجارة القديم الذي يربط بين جنوب الجزيرة العربية وبلاد الرافدين وبلاد الشام ومصر، ويمر بعدد من المدن والحواضر في الجزيرة العربية) هما العلا ومدائن صالح.

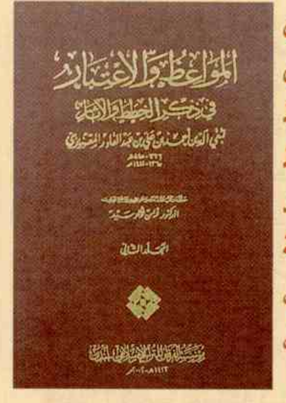
ويبدأ الكتاب بمملكة ديدان ولحيان التي قامت في العلا، فتحدث عن سكانها ومعتقداتهم الدينية ووضعهم الاقتصادي والسياسي ونهاية حكمهم، ثم أورد نبذة من أبرز المواقع الأثرية في العلا، ووضعها في الفترة الإسلامية وأهم آثارها، وختم بمشاهدات بعض الرحالين الغربيين الذين زاروا المنطقة.

وخصص الجزء الثاني من الكتاب للحديث عن الحجر «مدائن صالح»، حيث عولجت آراء الباحثين في نشأة الحجر ودورها التجاري في المصادر الكلاسيكية، وأصل الأنباط وامتداد دولتهم داخل الجزيرة العربية، وعلاقتهم بكل من بلاد الشام وفلسطين، والبطالمة. وتناول الكتاب كذلك تجارة الأنباط من حيث دروبها ومجريات أمورها وسلعها، ثم نهاية حكم الأنباط في الحجر، بالإضافة إلى أهم الدراسات الأثرية التي تحدثت عن الحجر.

ويورد الكتاب أيضًا وصفًا لطراز العمارة وطريقة نحت المقابر وتوزيعها في الحجر، مع نبذة من أهم المعالم الأثرية فيه، ثم نبذة من المعتقدات الدينية في المجتمع النبطي، وما أقامه الأنباط أنفسهم



من معابد ومحاريب في منطقة الديوان وجبل إثلب، وطريقة الدفن في مقابر الحجر، وعن مصادر المياه في المنطقة، وموجز عن مدينة الحجر في الفترة الإسلامية، وقلعة الحجر الإسلامية، ومحطة السكة الحديدية فيها، وأخيراً قائمة بأسماء ملوك الأنباط، ووُثقت معلومات الكتاب التاريخية بعدد وافر من الصور الفوتوغرافية.

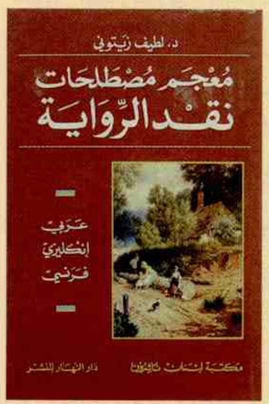


المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي بن عبدالقادر / المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تحقيق: أيمن فؤاد سيد ـ لندن: مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، مج٢، ٦١٤ص.

هذا هو المجلد الثاني من كتاب «المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار» لشيخ مؤرخي مصر الإسلامية تقي الدين إبي العباس أحمد بن علي بن عبدالقادر المقريزي المتوفى سنة ٨٤٥هـ/١٤٤٢م، وقد اشتمل على الجزأين الثالث والرابع، وهما: «أخبار فسطاط مصر ومَنْ مَلَكَها» و«أخبار القاهرة وخلائفها وما كان لهم من آثار».

قدم المؤلف في هذا المجلد وصفًا شاملاً لنشأة عواصم مصر الإسلامية ونموها، من الفسطاط إلى القاهرة، مروراً بالعسكر والقطائع، كما قدم تراجم مفيدة لولاة مصر وتتابعهم في العصر الإسلامي، بدءًا من عمرو بن العاص وحتى آخر الخلفاء الفاطميين الخليفة العاضد لدين الله الذي انتهت بوفاته الخلافة الفاطمية في مصر سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م.

وتعرض المؤلف لخطط الفسطاط الأولى عند إنشائها وما طرأ عليها حتى نهاية عصر الدولة الفاطمية، وكذلك خرابها الذي حصره في سببين: «الشدة العظمى» و«حريق الفسطاط»، وتناول المؤلف أيضًا ما طرأ على ساحل النيل الشرقي المواجه للفسطاط من تغير حتى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، وقدم سجلاً كاملاً لتاريخ القاهرة في عهد الفاطميين، فوصف أسوارها، وقصورها، وخزائن هذه القصور وما تحويه من زخائر وتحف.



زيتوني، لطيف/معجم مصطلحات نقد الرواية ـ بيروت: مكتبة لبنان ناشرون ودار النهار للنشر، ٢٠٠٢م، ٢٣٥ص.

يتناول هذا المعجم مفهومات علم السرد ومصطلحات نقد الرواية وتقنيات التأليف القصصي، ويتجاوز التفسير التاريخي الذي تعرضه المعجمات الأدبية، ويركز اهتمامه في الجانب التقني والنظري، بل إنه يرصد المصطلحات في المصادر النظرية الأساسية والمراجع التطبيقية ليقف على معانيها الأساسية والعلمية، ويعرضها باللغة العربية والفرنسية والإنجليزية ليساعد القارئ على الربط بين مصادر المعلومات المختلفة المتعلقة بكل مصطلح، ويلجأ إلى الفهارس المتعددة اللغة ليسهل على القارئ الوصول إلى المصطلح انطلاقًا من اللغة التي يعرفه فيها، كما يلجأ إلى الإحالات فيعرض في الفهارس الألفاظ المختلفة المتداولة ويحيلها إلى مصطلح واحد ليسهل الوصول إليه، ويخفف من آثارفوضى المصطلحات.

مؤلف الكتاب هو الدكتور لطيف زيتوني أستاذ الإنسانيات في الجامعة اللبنانية الأمريكية في بيروت، وله عدد من المؤلفات منها: «المسائل النظرية في الترجمة» ١٩٩٢م، و«حركة الترجمة في عصر النهضة» ١٩٩٤م، و«سيماء الرحلة» ١٩٩٧م.

نزوى (ع ٣٢، أكتوبر ٢٠٠٢م/رجب ١٤٢٣هـ)



مجلة فصلية ثقافية تصدر عن مؤسسة عُمان للصحافة والأنباء والنشر والإعلان.

صدر هذا العدد من الدورية وبين دفتيه مواد متميزة متنوعة المضمون، بدأ بالافتتاحية التي كتبها رئيس التحرير سيف الرحبي بعنوان: «خمسون عاماً على ثورة يوليو .. (عام الجنازة .. أو البدايات)»، وترجم خالد النجار موضوع «اليمن السعيد» لعزالدين باش شاوش، وناقش هاشم صالح «الفكر التنويري والعقلاني الحديث بين ديكارت وباشلار»، وعدّد حسين الهنداوي «تناقضات التأسيس الأرسطي لمفهوم الاستبداد الآسيوي»، وتناول فريد الزاهي «ابن عربي: الصورة والآخر»، وغير ذلك من البحوث.

وفي زاوية اللقاءات كان هناك لقاءان، جاء الأول مع عالم الاجتماع الفرنسي بيار بورديو: ترجمة وتقديم: حسن الشامي، والثاني مع الروائي حنا مينه، حاوره: بلال كمال، وجاء في باب التشكيل مادتان، الأولى: معرض ماتيس ـ بيكاسو في لندن .. نصف قرن من العلاقة الشائكة والخلاّقة ليوسف الناصر، والأخرى بعنوان الإبداع وجنون الحرية: صخر فرزات، وفي قسم المسرح كان هنالك حوار مع المسرحي التونسي عزالدين المدني، أجراه: فاضل سوداني.

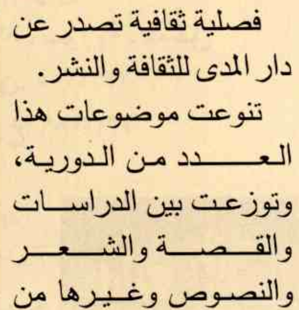
وجاء في باب الشعر: «الربع الخالي .. في الأدب الإنجليزي»، ترجمة: هلال الحجري، ثم «الطواف بالمقاهي الثلاثة» لسعدي يوسف، و«المعتقات» لكمال أبوديب، و«عبدك لبيك» لشوقي أبي شقرا، و«قصائد فانية» لعبداللطيف اللعبي، ترجمة: عبدالقادر هجام، وغير ذلك من القصائد.

كما تناولت النصوص «من الأدب التايلندي رواية «سُم» ترجمة: محمد المزديوي، ومن الأدب الفلسطيني «زعمطوط» لزكريا محمد، و«نيتشه» ترجمة: علي مصباح، و«التجربة» لمحمود الريماوي، و«أصداء» لكايوكو هايشي ترجمة: كامل يوسف حسين، وختمت الدورية عددها بالمتابعات، وفيها: «الاشتغال الثقافي العماني إلى أين؟!» لطالب المعمري، و«دراسة الأدب العربي في جامعات غربية» لمحمد المحروقي، و«الشاعرمتجولا..خبط الأجنحة تحت أكثر من سماء لأمجد ناصر»، لرؤوف مسعد، وغير ذلك من المتابعات.

العنوان: ص.ب: ٨٨٥،
الرمز البريدي: ١١٧ سلطنة عُمان.
هاتف: ٦٠١٦٠٨ ـ ناسوخ: ٦٩٤٢٥٤

المدى (س١٠، ع ٣٨، ٢٠٠٢م)





فصلية ثقافية تصدر عن دار المدى للثقافة والنشر.

تنوعت موضوعات هذا العدد من الدورية، وتوزعت بين الدراسات والقصة والشعر والنصوص وغيرها من ضروب الأدب، بدأت بموضوع نزيه أبوعفش «...وإماتة الموتى!»، وفي باب الدراسات جاء موضوع فيصل دراج: «نجيب محفوظ: تداعي التاريخ وسطوة الزمن»، وتعرض خالد الهرابي لـ «وجوه التحديث في إيقاع القصيد العربي: ممدوح عدوان نموذجًا»، وتناول مصطفى الحسناوي «بورخيس: الأدب واللانهائي»، وكانت آخر البحوث بعنوان «مذكرات الجواهري .. الأسطورة الجديدة» بقلم: سعيد الغانمي.

وفي باب القصة شارك كل من: علي جاسم، ود.فرهاد بيربال ترجمة: ته رزه فائق الجاف، ومحمد

محمود عبدالرزاق، وأميمة الخميس. كما شارك في باب الشعر كل من: سعدي يوسف، ومنذر مصري، ومحمد متولي، وثائر زين الدين، وعاشور الطويبي، وسامر رضوان، وبشير ضيف الله، ونجيب عوض، وطلال الطويرقي، ونزيه أبوعفش.

بالإضافة إلى الأبواب الثابتة: النص، وسينما، والكتب، ورسائل ومحطات.

وجاء في العدد نفسه من دورية المدى، العدد الحادي عشر من فصلية «اللحظة الشعرية»، وكان هذا العدد من اللحظة الشعرية ملفًا خاصًا عن الشاعر العراقي محمود البريكان، وجاء فيه: «البريكان الشاعر (١٩٣١ ـ ٢٠٠٢م)» لصلاح نيازي، و«قراءة شاعر» لفوزي كريم، و«أربع مراثٍ للبريكان» لعباس الكاظم، و«في الخلطة الأيديولوجيـة» لنزار أغري، و«حكاية كونديرا المنسية» لسعيد فرحان.

وختمت الدورية بيوميات اللحظة الشعرية.

العنوان:

ص.ب: ٨٢٧٢ ، سورية ـ دمشق

تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥

ناسوخ: ٢٣٢٢٢٨٩

بيادر (ع ٣٧، رمضان ١٤٢٣هـ)

دورية فصلية ثقافية إبداعية تصدر عن نادي أبها الأدبي.

احتوى هذا العدد من بيادر على عدد من الدراسات، والمقالات، والنصوص الإبداعية. ففي باب الدراسات كتب عبدالله محمد الحميد عن «عمر بن الخطاب رضي الله عنه الأديب الناقد»، وقدم د. السر سيد أحمد العراقي قراءة من كتاب بحوث في « تاريخ عسير الحديث والمعاصر»، كما قدم الأستاذ أنور بن محمد خليل عسيري مقالات بعنوان «قراءات الآخر في فكرنا العلمي»، وتضمن العدد حواراً مع الشاعر السوداني مصطفي سند، أجراه أحمد عبدالله التيهاني.

وفي باب واحات نقرأ لكل من : فيصل علي أكرم، وأحمد الصالح، وأحمد عبدالله عسيري، وسعود اليوسف، وناصر لوحيشي، وعصام ترشحاني، وعلي آل عمر عسيري، أما في باب السرديات فنقرأ لكل من: سهام حسين القحطاني، وناصر سالم الجاسم، ونادية الفواز، والدكتور غازي عبدالله حريري، ومصطفى عبدالجواد، وهدى فهد المعجل، وفوزية علي العمري، وتهاني عبدالكريم المنقور.

وشارك في باب بدايات كل من: وليد مسلمي، وفاطمة العسيري، كما اشتمل العدد على «قراءة في رواية أنثى تشطر قبيلة»، قدمها عبدالحفيظ الشمري، واختتم العدد بإعادة نشر مقال للشيخ حمد الجاسر نشر سنة ١٣٨٨هـ، في مجلة العرب يتناول فيه «منتدى خالد الأدبي» حينما كان الأمير خالد الفيصل مديراً عامًا لرعاية الشباب، وأوجد أول منتدى أدبي في الرياض، وهو الأول من نوعه ـ أيضًا ـ في المملكة.

العنوان:

ص.ب: ٤٧٨ ـ أبها ـ المملكة العربية السعودية.

هاتف: ٢٢٤٤٢١٠

ناسوخ: ٢٢٦٢١٦٥



عالم الفكر (مج ٣١، ع٢، أكتوبر ـ ديسمبر٢٠٠٢م)

مجلة فكرية محكّمة، تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت.

حوى هذا العدد مجموعة من الدراسات الإسلامية، بدأت ببحث للدكتور بن عيسى باطاهر في قضية إعجاز القرآن عند المفكر المغاربي مالك بن نبي ، أما البحث الثاني

للدكتور مهدي أسعد عرار فيعالج موضوع تأويل مشكل القرآن فيركز في الجانب اللغوي الأكاديمي بدءاً بمشكلة دلالة الصيغة الصرفية ودلالة المفردة، ودرس ابن قتيبة الثقافة اللغوية العالية للقرآن الكريم، أما البحث الثالث للدكتور أحمد محمود هويدي فتطرق إلى الدراسات القرآنية في ألمانيا: دوافعها وآثارها، ومدى إسهام المستشرقين الألمان في الدراسات القرآنية، وفي البحث الرابع يلقي الدكتور الحبيب الجنحاني الضوء على الإقطاع في المجتمع العربي الإسلامي، وأخيراً يقدم الدكتور عفيف البهنسي دراسة حضارية تاريخية عن التاريخ المعماري الإسلامي.

وفي باب آفاق نقدية، نقرأ البحوث الآتية: «التأويل: دراسة في آفاق المصطلح»، للدكتور عبدالقادر الرباعي، و« الدراسات الأدبية العربية المقارنة» للدكتور الرشيد بشير بوشعير، و« خليل حاوي شاعر الموت والحرية» للدكتور يوسف حامد جابر، و«مرايا العدالة: بحث في رواية الحرب في لبنان» للدكتور لطيف زيتوني، و«النقد العربي والحداثة بنية التجريب في الخطاب النقدي العربي» للأستاذ خالد سليكي»، والكتاب الفلسفي في المغرب سنة ٩٩» للدكتور كمال عبداللطيف.

العنوان:

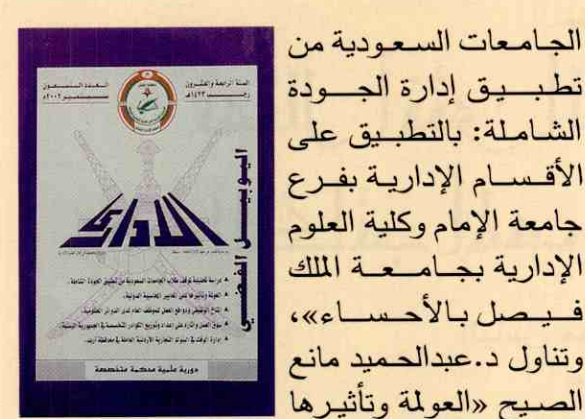
ص.ب: ٢٣٩٩٦ ـ الصفاة ـ الرمز البريدي ١٣١٠٠ دولة الكويت.

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.

الإداري (س ٢٤، ع ٨٩، ربيع الثاني ١٤٢٣هـ/يونيو ٢٠٠٢م)

مجلة دورية متخصصة في مجال العلوم الإدارية تصدر عن معهد الإدارة العامة في مسقط.

حفل هذا العدد ببحوث تناولت مجالات الإدارة المختلفة، بدأها د.عبداللطيف بن صالح النعيم بموضوع عنوانه «دراسة تحليلية لمواقف طلاب الجامعات السعودية من تطبيق إدارة الجودة الشاملة: بالتطبيق على الأقسام الإدارية بفرع جامعة الإمام وكلية العلوم الإدارية بجامعة الملك فيصل بالأحساء»، وتناول د.عبدالحميد مانع الصيح «العولمة وتأثيرها في المعايير المحاسبية الدولية وانعكاساتها على التطبيقات المحاسبية في الدول النامية»، وقدم كل من الدكتور أكثم عبداللطيف الصرايرة، والدكتور يونس عبدالعزيز مقدادي دراسة ميدانية عن «المناخ الوظيفي ودوافع العمل للموظف العام لدى الدوائر الحكومية في محافظة جرش»، وتناول د.محمد عبدالرشيد علي «سوق العمل وآثاره في إعداد وتوزيع الكوادر المتخصصة في الجمهورية اليمنية»، وناقش مأمون أحمد سليم دقامسة كيفية «إدارة الوقت في البنوك التجارية الأردنية العاملة في محافظة أربد».



وفي باب قراءات قدم علي بن نصيب الشحري عرضاً وتحليلاً لكتاب د.فؤادة عبدالمنعم البكري «الاتصال الشخصي في عصر تكنولوجيا الاتصال»، وأعد علي بن نصيب الشحري موضوعاً عن ندوة «إدارة الجودة الشاملة بالأجهزة الحكومية بين المفهوم العلمي ومتطلبات التطبيق»التي عقدها معهد الإدارة العامة في مسقط بحضور ١٤٤ من القيادات الإدارية في الأجهزة الحكومية ومؤسسات القطاع الخاص، بتاريخ ٢ ـ ٣ يونيو/حزيران ٢٠٠٢م

العنوان:

ص.ب: ١٩٩٤ ـ الرمز البريدي: ١١٢ مسقط ـ سلطنة عمان.

هاتف: ٦٩٩٠٠٨/٦٠٢٣٨٦/٦٠٢٢٥٢

ناسوخ: ٦٠٢٠٦٦

تمثال أنثى النسر الدمشقي عند الكاتب المسرحي الإنجليزي مارلو

إلياس مصطفى خلف
حماة - سورية

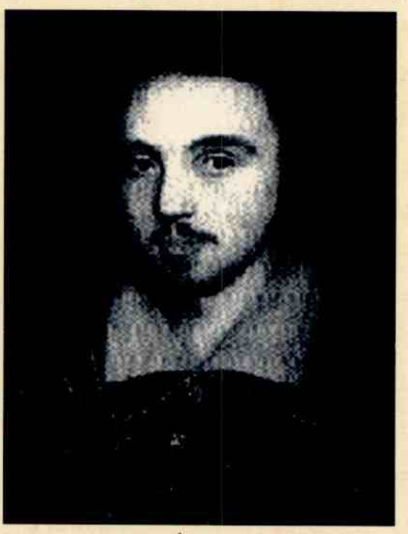
ترد صورة تمثال أنثى النسر الدمشقي في مسرحية «تيمورلنك الكبير» (١٥٩٠م) للكاتب المسرحي الإنجليزي كريستوفر مارلو (١٥٦٤ - ١٥٩٣م). ومن الجدير بالذكر هنا أن هذه المسرحية تؤرخ ضمن قالب مسرحي وملحمي الغزوات التي قام بها تيمورلنك المغولي (١٣٣٦ - ١٤٠٥م) بدءاً باحتلاله لبلاد فارس (إيران آنذاك) وانتهاءً بانتصاراته على الإمبراطورية التركية وسلطانها بيازيد في عام ١٤٠٢م.

ففي تلك المسرحية يصل تيمورلنك بجحافله إلى مشارف مدينة دمشق فيرى أبراجها الشامخة، ويرى أيضاً تمثالاً ذهبيًا يمثل أنثى طائر النسر، ويقول في معرض تحدّثه عن خطة غزوه لهذه المدينة: «إن أنثى النسر هذه التي تفرش جناحيها على جدران هذه المدينة لن تستطيع الذود عنها، أو رد هجومنا وضرباتنا الموجعة.»(١)، وتشير الناقدة الإنجليزية إيثيل سيتون، في سياق حديثها عن المصادر التي استقى مارلو منها مادة مسرحيته، إلى ورود صورة تمثال نسر دمشق في رواية فروسية ومغامرات تدعى (بيفيس هامبتون):

على الجسر انتصب برج
مطلي بالذهب باللون الأزرق اللازوردي الصافي،
وهذا البرج جميل يبهر الأبصار،
وعلى هذا البرج وقف نسر من الذهب،
وعيناه كانتا من الحجارة النفيسة(٢).

ولكن قبل الشروع في البحث في دلالة صورة طائر النسر في هذين العملين الأدبيين نجد لزامًا علينا النظر في صورة النسر في تراثنا العربي، جاء في كتاب «حياة الحيوان الكبرى» للشيخ كمال الدين الدميري:

[النسر] عريف الطير وسيدها.. ويقال: إنه من أطول الطير عمراً.. وهو حاد البصر.. وأشد الطير طيراناً وأقواها جناحًا(٣).


كريستوفر مارلو

من هنا نجد أن النسر يرمز إلى السيادة والملكية والقوة وحدة البصر، وما يؤكد شموخ هذا الطائر أن أنثاه تبيض في الأماكن العالية الضاحية للشمس(٤).

وورد بخصوص أنثى هذا الطائر أيضًا أنها تخاف على بيضها وفراخها الخفاش فتفرش في وكرها ورق الدلب لينفر منه، وهذا ما يرمز إلى أمومتها وغيرتها على فراخها وعشها(٥). وفي ضوء عاطفة الأمومة والغيرة على الأبناء والوطن نستطيع أن نتفهم تشبيه الرجال الصالحين بالنسر الذي يعرف وطنه، ويرفرف على فراخه ويزقها(٦).

والسؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا الآن: لماذا يرد طائر



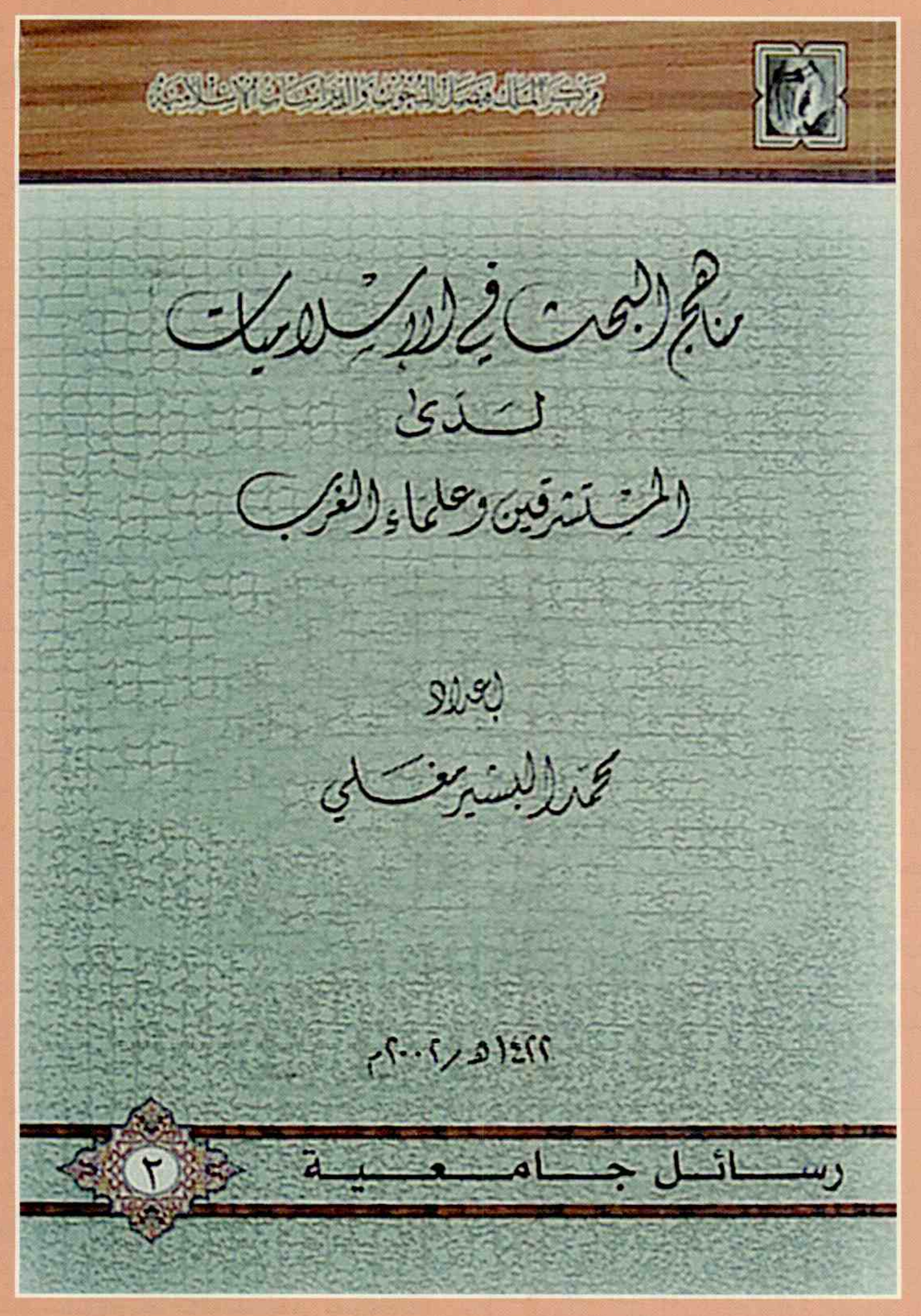
النسر مذكرًا في رواية بيفيس هامبتون ويرد مؤنثًا في مسرحية مارلو؟ يرد النسر مذكرًا في رواية بيفيس هامبتون ليرمز إلى السيادة والملكية والشموخ، أما مارلو فيؤنث هذا الطائر كي يجمع في طياتها معاني السيادة والملكية والرفعة من جهة، وعاطفتي الأمومة والغيرة على الأبناء والوطن من جهة أخرى، وما يؤكد هذا التفسير هو أن تيمورلنك يشبّه عذراوات دمشق بالحمائم اللاتي خرجن من أعشاشهن بغية مناشدته كي يتحول عن خططه العدوانية حيال مدينتهن وأبنائها.

ومن الجدير بالذكر هنا أن صورة أنثى النسر التي تبسط جناحيها فوق مدينة دمشق وأبنائها، وصورة العذراوات اللاتي تداعين لنجدة دمشق ونصرتها تذكراننا بالبطلة فولا منيا في مسرحية (كوريولانوس) للكاتب المسرحي الإنجليزي وليام شكسبير، التي تمثل الوطن الغالي، والتي تتوسل إلى ابنها كي لا يحرق روما التي تبرز بمنزلة الوطن والأم والرحم الذي خرج منه(٧).

وبعد، لا غرو أن نقول: إن أصل صورة الوطن كأم يكمن في استخدام تمثال أنثى النسر الدمشقي رمزًا للوطن الأم الذي يحمي أبناءه، ويذود عنهم. وفي ضوء صورة الوطن كأم نرى فرنسا أم الشعب الفرنسي، وتحتل فرنسا المكانة نفسها في مسرحيات شكسبير التاريخية الإنجليزية(٨). ونرى إنجلترا أمًّا للشعب الإنجليزي، أمّا أنجبت الأبطال الذين يدافعون عن ثراها، وأمّا للذين يشعلون نار الفتنة والحرب الأهلية فهم ينكرون فضل أمهم، ويدوسون رحمها الذي خرجوا منه(٩). وإذا كانت صورة الوطن كأم عربية الأصل فهذا يدل على غنى فكرنا العربي، وتراثنا الثقافي، ويدعونا إلى ضرورة كشفه للغرب الذي نهل من معينها على مر العصور.

الهوامش

١. مسرحية (تيمورلنك) لمارلو، تح: ت. أ. دولف، لنذن، ١٩٦٤م، ص:١١٣.
٢. المصدر نفسه، ص:٢٤١.
٣. حياة الحيوان الكبرى، للدميري، بيروت، بلا تاريخ، ص:٣٤٩.
٤. المصدر نفسه، ص: ٣٤٩.
٥. المصدر نفسه، ص:٣٤٩، ٣٥٢.
٦. المصدر نفسه، ص:٣٥٢.
٧. مسرحية (كوريولانس) لشكسبير، تح: ج. جامب، لندن، ١٩٧٥م.
٨. مسرحية (ريتشارد الثاني) لشكسبير، تح: أ. كير، لندن ١٩٧٨م، ص: ٢٠٦ ـ ٢٠٧.
٩. مسرحية (الملك جون) لشكسبير، تح: ج. هونيكمان، ومسرحية (الملك هنري السادس) الجزء الأول لشكسبير، تح. أ. كيرنكروس.


مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية
مناهج البحث في الإسلاميات
لدى
المستشرقين وعلماء الغرب
إعداد
محمد البشير مغلي
١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م
٢
رسائل جامعية